
حب وموت في بيروت
بشير الجميل وبربارة اليهودية

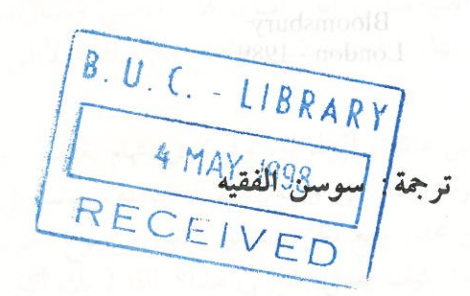


حبٌّ وموتٌ في بيروت

بشير الجميّل وبربارة اليهوديّة

تأليف

بربارة نيومان



ترجمة: سوسن الفقيه

دار الاتحاد
للطباعة والنشر

بيروت ـ لبنان
ص. ب ١٨١٣ ـ ١١
تلفون ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى
نيسان (ابريل) ١٩٩٣
الطبعة الثانية
آذار (مارس) ١٩٩٤
الطبعة الثالثة
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٤

هذه ترجمة كتاب:

THE COVENANT

Love and Death in Beirut

By:

Barbara Newman

with

Barbara Rogan

Bloomsbury
London - 1989

مقدمة الكاتبة

أركع قرب قبره وأغمض عيني ولكن لا أستطيع الصلاة.. يتراءى لي وجهه بملامحه القوية وفمه الصارم وعينيه المبتسمتين. وفجأة، يكلمني صوته الأجش قائلاً بلهجته الشرق أوسطية: باربرا..

يرقد في قبر حجري منصوب فوق هضبة صغيرة مليئة بالأعشاب، واحة من الهدوء في أرض نسيت السلام، ومعه دُفن أمل بلاده. كان بشير الجميل في الرابعة والثلاثين من عمره عندما انتخب رئيساً للبنان، وبعد ثلاثة أسابيع فقط أصبح ميتاً.

تضغط ابنتي «بيني» على ذراعي وتنظر إليّ بقلق، إنها لم تلتقِ بشيراً بتاتاً لذلك كان اهتمامها بي أنا. أقول لها: «دعيني وشأني»، إذ لا أستطيع البكاء أمامها.. فحينها تقبلني وتخرج مع مرافقينا لأبقى وحدي مع بشير.

«قلت لكَ إنني عائدة» أقولها له، وفي نبرتي اتهام بغيض ـ ملاحظة باهتة متوعدة ـ مرّت سنة على وفاته.. سنة كاملة، كانت لي بمثابة كابوس، وندم غير مجد. ومع الحزن ينتابني شعور من نوع آخر، شعور الغضب والاستياء: كيف يفعل بشير بي هذا؟ لماذا لم يك أكثر حذراً؟ لقد حذّرته وأصدقاؤه حذروه أيضاً، ليس لديه أي حق في أن يعرّض نفسه للقتل، وإذا كان عليه أن يموت فلماذا فعل ذلك وأنا في الجانب الآخر من العالم.

ولكن هذا الغضب مجرد مزاح وأنا أعلم هذا. ليس عليّ إلقاء اللوم على بشير لكن على قاتليه، الذين لم يحاكموا حتى الآن، فماذا إذا ألقي القبض على «الرجل المفجر»، الذي فجّر ٤٥٠ باونداً من الـ T.N.T وحطّم بذلك أمل لبنان تحت ثلاثة طوابق من الحجارة، (عندما أخرجوا بشير من تحت الأنقاض كان وجهه الجميل مشوهاً لدرجة يصعب تمييزه، وكانت أطرافه كلها محطمة. . .) ولكن. . لن أفكر بهذا الآن. . . لا ليس الآن، وابنتي «بيني» داخل السيارة تنتظر رجوعي.

في العالم البيزنطي لسياسة الشرق الأوسط لا يتصرف أحد بمفرده، هناك دواليب متداخلة في بعضها البعض، وهذا الرجل الصغير البائس الذي ألقوا القبض عليه لم يك سوى سن دولاب صغير فحسب.

لست إنسانة سهلة، لا يستطيع المرء أن يكون كذلك في مهنة كمهنتي، ولست متسامحة، أو لطيفة، وليس من السهل الانسجام معي، ولكني قاسية، ومنذ اللحظة التي علمت بها بموته، أردت أن أعرف من قتل بشير الجميل، والآن، أشعر وأنا واقفة قرب قبره، بتلك الرغبة تتحجّر وتتحول إلى قرار صلب وبارد كبلاطة قبره.

لدي بعض الأفكار طبعاً، لم يك بشير ملاكاً، «في لبنان» كان يقول «لا يحكم المرء بالقبلات والعناق»، كان صلباً وعنيداً، لا ينحني ولا يتحول عن آرائه بسهولة، كان ثورياً بكل ما في الكلمة من معنى، وكان محبوباً وجماهيرياً، بين جنوده وضباطه، لكن كان لديه العديد من الأعداء، حتى من بين مؤيديه، وهؤلاء كان عددهم يتساوى مع أعدائه من الفلسطينيين والسوريين.

وكان له أعداء أيضاً داخل عائلته، فعقب موته، سرعان ما استُبدل بشير بأخيه الأكبر أمين الذي بقي مدة طويلة يتحمس ليحتل مكانه كقائد شرعي للأمة المسيحية.

كنت أعلم أن قاتل بشير هو شخص مقرّب منه، شخص كان على

علم بكل تحركاته، صديق موثوق به، رفيق في الحزب، أو أحد أقاربه. وهذا يعني أنني كنت متأكدة إلى حد ما من الشخص، لأنني كنت أنا وبشير، أكثر من مجرد عاشقين، مع أن في الأمر بعض الغرابة، فأنا يهودية، من مواليد نيويورك، محققة صحافية، مطلقة مرتين ولست مخدوعة من أي رجل، في حين كان بشير مقاتلاً مسيحياً لبنانياً، ومتزوجاً، وكان رجلاً عملياً، يحب الأفعال وليس الأقوال، وكنت أمينة أسراره. ربما كان السبب الذي جعل هذا الرجل المتحفظ والخصومي أن يكون صريحاً معي، هو هذه الاختلافات بحد ذاتها وأيضاً لكوني امرأة، أياً كان السبب، فأنا أصدق ما قاله لي أنه خلال السنتين التي أمضيناهما معاً لم يك أحد قريباً من بشير أكثر مني سوى أمه.

هناك أيضاً شيء آخر، فبرغم اختلاف ظروف ولادتنا، إلاّ أننا كنا نتقاسم شبهاً كبيراً، فأنا إنسانة عملية، ولست روحانية، أو صوفية. . وعندما أقول أن حبنا كان مبني على أساس التفاهم العميق، أعني بهذا التفاهم الذي يتجاوز حدود الظروف والمكان. وهو نوع من الإدراك والتعرّف الخاص. الحب شعور عاصف، غير جدير بالثقة، أو هكذا اكتشفت، ولكنني لم أحب بشير فحسب ولكني كنت أهتم به وأرعاه، كان صديقي، ولهذا أنا مدينة له بشيء قد يكون بمقدوري أن أعطيه إياه: ليست العدالة ولكن الحقيقة.

البحث عن الحقيقة هي مهنتي، وأنا جدية في ما أفعله، علّمتني التجارب أنه على المرء أن يرجع إلى الوراء دائماً حتى يكتشف الحقيقة، ولكني لا أريد أن أقوم بهذه الرحلة، لقد جئت إلى هنا كي أدفن ماضي لا لأبعثه، ولكني لا أملك الخيار، فكرت أن زيارتي لقبره ستكون كافية لتستريح روح بشير، لكني اكتشفت أن المطلوب مني هو أكثر بكثير من ذلك.

- ١ -

اتصالي الأول بالموساد

ويبقى السؤال: من أين أبدأ؟ والجواب، لا أجده بسيطاً. فمعظم قصص الحب تبدأ من أول لقاء بين الرجل والمرأة ولكن نشوء حبنا ـ أنا وبشير ـ بدأ حتى قبل أن نلتقي بوقت طويل. وربما يكون الأمر رومانسياً أكثر لو تكلمت عن الحب من أول نظرة. ولن أكون كاذبة بهذا أيضاً. لأن انجذابنا لبعضنا البعض كان مباشراً ومتبادلاً. والحقيقة أن سلسلة كاملة من الظروف والحوادث أعدّتني لبشير وانتهت بهبوطي في بلد تحاشيته طويلاً.

ربما تبدأ قصتنا في القدس. في يوم شتوي، ممطر وبارد من عام ١٩٨٠. الإسرائيليون جنود بارعون لكنهم ليسوا كذلك في تدفئة العمارات. وكل جندي إسرائيلي ألتقي به كان يرتدي سترة عسكرية خفيفة، خضراء اللون، يرتديها في الداخل والخارج. أما أنا فحافظت على الدفء بالعمل والجري. كان أمامي ستة أسابيع فقط لبحث وإخراج تحقيق عن الإرهاب مدة بثه ساعة، لـ«20/20»، برنامج الـ «ABC News Magazine» ولكن كانت هناك عقبة كبيرة أمامي وهي أن الإسرائيليين كانوا لا يثقون بي. لأنني سبق وأطلقت قصتين بارزتين لاقتا الكثير من الاستنكار والكره من الإسرائيليين. ولهذا فقد شكوا بأنني أخطط لقصة أخرى.

في واقع مهنتي، لا بد من الربط بين القصص ووقائعها، ولهذا

أرى من الضروري الرجوع إلى الوراء وملاحقة خيط متشابك يقودنا من بيروت عبر القدس إلى واشنطن في سنة ١٩٧٦. عندما أطلقت قصة كارين سيلكوود، كانت هذه القصة مهمة وبارزة وحداً فاصلاً في عملي ونجاحي. وفي النتيجة كُرّمت بجائزة ولاية أوهايو لصحافة التلفزيون، وهي أقدم جائزة في هذه الصناعة. وأغريت بعرض مربح ولكن تركت هذا العرض يمر مرور الكرام لأتابع انطلاقة مهمة كهذه: معلومات ـ قدر كبير منها، البعض منها مزوّر، والبعض الآخر ساخن وجيد. مصادر جديدة ناس لها أسرار وتفتش عن الشخص المناسب لتودعها عنده، كنت أشبه بطفل أطلق سراحه في دكان حلويات. لكن هذه الحلويات لم تكن كلها حقيقية.

وبسبب طبيعة قصة سيلكوود كانت الكثير من المعلومات التي حصلت عليها تتعلّق بالأنظمة والإجراءات النووية، والحراسة والإجراءات الوقائية، أو نقصها. أفادني التحقيق بكثير من المعلومات، وسمعت الكثير من الإشاعات التي لها علاقة بالقصة. وأتت من مصادر متنوعة، وتتعلق بالتغطية المزعومة لسرقة اليورانيوم الأميركي من مصنع في أبولو، بنسيلفانيا يعالج الوقود للبرنامج النووي البحري الأميركي.

كان لدي بعض المصادر «الثرثارة» في المؤسسة الذرية، وقد لاذوا بالصمت عندما سئلوا عن النيومك (Numek). وكان هذا مشجعاً. وبعد ثمانية أشهر من البحث والتدقيق استطعت أن أثبت أنه في منتصف الستينات حوّل الموساد الإسرائيلي ما بين ١٠٠ و ٤٠٠ باوند من اليورانيوم المخصّب من مصنع أبولو. وهذه الكمية تكفي على الأقل لصنع ١٢ قنبلة نووية. وقد عمل الكثير من المحققين الصحافيين في هذه القصة. ولكني كنت أول من حظي بها وأخذها إلى أبعد الحدود. فأذيعت قصتي في الـ National Public Radio وطبعت في الـ Rolling Stone. ولاقت اهتماماً من المحطات الإخبارية وأجريت مقابلات صحافية كبيرة حولها.

لم أدخل في هذه القصة لأؤذي إسرائيل، كما أنني لم أكن مهتمة بمساعدتها. كانت وجهة نظري هي الإجراءات الوقائية والحراسة غير الملائمة، للمادة النووية من وكالة الطاقة النووية A.E.C. إلاّ أن نواياي لم تكن تهم الإسرائيليين، الذين أغضبهم هذا الاتهام، وكان إنكارهم له شديداً. لا يسعني القول هنا إلاّ أنهم على حق بأن يغضبوا، فمن المحرج جداً أن يُقبض عليهم، متلبسين وأيديهم داخل مرطبان الحلوى لحليفهم الأكبر.

وما يدهش أكثر في قصة «نيومك» هو امتداد وتوسّع التغطية (قصة تجر أخرى). حصل التحويل عام ١٩٦٥، وفي السنوات التالية ظهرت بعض التسريبات هنا وهناك. كما أن العديد من التحقيقات القائمة أجريت ثم تركت. وأدعت الـ A.E.C أن اليورانيوم لم يسرق. ولكنه تسرب وضاع داخل الأنابيب وكان هذا ردهم على كل الإدعاءات القائلة بأن الوقود النووي اختفى. وكانوا يعنون بذلك أنه خلال عملية التصنيع وعندما مرّ اليورانيوم عبر الأنابيب التصق بعض منه على جوانب الأنابيب. تفسير منطقي لم ينجح لأنه عندما غُسلت الأنابيب وأخذ وزن كمية اليورانيوم الملتصقة على جوانبها، كانت الكمية الموجودة تعادل جزءاً بسيطاً جداً من الكمية المفقودة. وفي حالة «النيومك» حيث اختفت مئات الأرطال من اليورانيوم، صرفت الـ F.B.I النظر عن قصة الـ A.E.C التي تحكي عن اليورانيوم الضائع في الأنابيب. ولكن عندما حاولوا متابعة الأمر، صدر قرار بالتخلي عنه من قبل الرئيس جونسون نفسه.

في ذلك الوقت، كانت الـ F.B.I قد توصلت إلى نتيجة مؤداها أن موظفاً صاحب رتبة عالية في النيومك له صلات وثيقة بإسرائيل، ساعد أو سمح بالتحويل. رغم أنه لا النيومك أو الـ A.E.C قد اعترفتا علانية بأن التحويل قد حصل فعلاً (وأصرّتا حتى النهاية بأن المادة اختفت في عملية التصنيع)، إلاّ أن الشركة دفعت في نهاية الأمر ضريبة

قيمتها ٨٣٥,٠٠٠ دولار، وهو مبلغ ضخم في تلك الأيام.

وإذا افترضنا أن التغطية قد نجحت فعلاً، فإنه من المستحيل ألاّ يثير العجب اشتراك الـ A.E.C في الجريمة مع الموساد. وإذا كانت الـ A.E.C اشتركت، فماذا عن حراسها في الـ F.B.I والـ C.I.A.

دعّمت بعض المعلومات التي اكتشفتها، الافتراضات القائلة بقبول ضمني، داخل الـ A.E.C وأظهرت على نحو لافت للنظر موقف «عدم التدخل» تجاه عمليات الموساد في فنائها الخلفي. كنت كلما عرفت أكثر، كلما زادت معلوماتي واكتشفت في النهاية أن اهتمامي قد تحوّل من الإجراءات الوقائية والحراسة غير الملائمة لمادة قابلة للإنشطار إلى الموساد نفسه.

كانت الوكالة الإسرائيلية تتآمر عليّ حتى قبل أن أعلم بدورها في عملية التحويل في النيومك. وكان يظهر لي أن عملاء الموساد ينزلقون بسهولة في المياه المظلمة تحت سطح الأرض. وهم يُعتبرون بركودات (أسماك بحرية ضخمة ضارة) عالم الجاسوسية، إذ كانوا فاعلين ودقيقين، ومهابين من أعدائهم، وأنا أحترم النجاح، كخطف «أدولف أيخمان»، والتحويل في النيومك، وإعاقة تطوير صاروخ نووي مصري في الخمسينيات باغتيال العديد من العلماء الألمان ممن كانوا يعملون به. فقد أظهر الموساد أنه باستطاعته النجاح في عمليات ما من وكالة جاسوسية تستطيع توقعها أو حتى التفكير بها. ولم تك هذه الأعمال أول أعمال الموساد. والموساد يعمل مع وحدات خاصة في الجيش الإسرائيلي كوحدة مركز القيادة، ووحدة رجال الضفادع الأسلوب التقليدي نفسه الذي تعاملت به الـ C.I.A مع القوات الخاصة. وبمساعدة نظرائه في الجاسوسية العسكرية يوجّه الموساد المعلومات الخام ويحللها. وتدوّن هذه التحليلات في أجهزة الكومبيوتر لقوات العمليات التكتيكية والمحمّلة بمختارات عسكرية سرية ودقيقة.

وفي هذه اللحظة وأنا أكتب ذلك يدفن أبو جهاد رئيس العمليات

في منظمة التحرير في سوريا. وأبو جهاد هو الرجل الذي لامه الإسرائيليون أكثر من غيره على انتفاضة الضفة الغربية وغزة. وهو اليد التي شدّت حبال معظم «الإرهابيين» الذين هاجموا المدنيين الإسرائيليين في الداخل والخارج. أراد الإسرائيليون أن يكون معلوماً دون قوله على نحو واضح، إنهم هم الذين قتلوا أبا جهاد، فقد قتلوه مع حرسه الخاص ومساعديه في منظمة التحرير. ووفروا زوجته وبناته وقد أخذوا بعض الوقت ليجمعوا أوراقه المنثورة قبل أن يولوا مدبرين. كان لذلك الهجوم كل العلامات المميزة لعملية هيأها الموساد ونفذتها وحدة مركز القيادة التي قامت أيضاً بالغارة على بيروت عام ١٩٧٣ التي راح ضحيتها ثلاثة من كبار ضباط منظمة التحرير وحوالي سبعين أو ثمانين جندياً.

هذه القصة غير المكتملة عن الموساد كانت الموضوع الرئيسي في الملف الذي جلبته معي عام ١٩٧٧ عندما انضممت إلى هيئة الـ 20/20 في ABC News Magazine كمحققة.

وبطلب منه، عُينت للعمل مع الصحافي المراسل جيرالدو ريفيرا. وفي عام ١٩٧٩ قررت أنا وجيرالدو استخدام المادة التي كنت قد بدأت تكوينها عن الموساد لعمل قصة عن ذلك القوام البالغ السرية.

طلبت المساعدة من السفارة الإسرائيلية وكانوا في غاية التهذيب معي، وهذا يعني أنهم لم يضحكوا في وجهي.. ولكن الأمر انتهى بقولهم وبطريقة لبقة: «ليس هناك أي مجال».

ولكن بعد فترة قصيرة، جاءني أحد الإسرائيليين مزوّداً بكثير من المعلومات. وقال لي «ليس هناك أي مجال للتحدث عن الموساد»، لكنه قال لي إذا كنت مهتمة بعمل موضوع عن الإرهاب، فبإمكانهم مساعدتي وإعطائي الكثير من المعلومات.

وجاء دوري لأكون لطيفة فشكرت الرجل وقلت له بأنني سأفكر

بالأمر. وذهبت إلى جيرالدو وقلت له بلهجة ساخرة، «يريد الإسرائيليون استغلالنا». فسألني: لماذا؟

وبعد مناقشات، قررنا أنا وجيرالدو أن أذهب إلى إسرائيل لتقييم ما يريد الإسرائيليون عرضه، ولمتابعة برنامجنا السري في الوقت نفسه وهو معرفة قصة الموساد. وفي كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٨٠، طرت إلى إسرائيل للمرة الأولى.

كانت تلك البلاد مختلفة عن أي شيء توقعته، كذلك كان رد فعلي للأرض والناس الذين بدوا لي إلى حد كبير، كجزء كبير منها. كنت غريبة ولكن لم أستطع لجم إحساس ثابت بأنني كنت هناك من قبل. الجمال القاحل في المناظر الطبيعية والألوان الرائعة في القدس.. العمارات الحجرية البيضاء التي تتوهج تحت أشعة الشمس، كل هذا كان مألوفاً. زرت الحائط الغربي، وهناك غمرتني عاطفة يصعب عليّ وصفها... كنت كالآتي إلى الوطن ولا يعرفه من قبل...

ولكن لم يك لديّ الوقت لتأمّل سر استجابتي الشخصية. لأن أيامي مرت بنوبة من التحقيق والتخطيط. كنت أركّز على الناس، وليس على المناظر الجميلة.

الإسرائيليون ليسوا أغبياء، كانوا يعلمون ما كنت أهدف إليه إلاّ أنهم تصرفوا بذكاء. فلم يضعوا شيئاً يعيق أو يوقف تحقيقي عن الموساد.. كما زوّدوني بمعلومات عن الإرهاب. وخلال الأيام الخمسة الأولى من تلك الرحلة تأكدت من أنهم يملكون المادة الحقيقية لقصة رئيسية لم تروَ بعد. بالطبع، هناك بعض الأحداث المحددة والمنعزلة للإرهاب وقد أعلنت رسمياً في الولايات المتحدة، ولكن في عمل شبكة الأخبار يجب القيام بعرض مشاهد لكوارث متعددة. لمجزرة في مطار أو عملية خطف أو سرقة، ولكن ما كنت ألاحقه وما كان الإسرائيليون مستعدين لتزويدي به هو معالجة الإرهاب: كنت أريد أن أعرف كيف كان الإرهاب يستخدم كسلاح سياسي، ومن كان يشد حبال الآخر،

وتأثيره ككل على أمة مستهدفة.

في مهنتي، المعلومات هي أصعب عملة متداولة من الجميع، إلاّ أنه ومنذ البداية كان من الواضح أن الإسرائيليين كانوا على أتم الاستعداد لإعطائي مجموعة كبيرة من المعلومات المصنّفة سرّية. لمَ أنا؟ تساءلت. ماذا فعلت لأستحق هذا السخاء.

في ذلك الوقت، ظننت أن السبب بالتحديد هو أنهم كانوا يعتبرونني عدوهم، فالقصة التي كانوا يريدون استخراجها ستحمل وزناً أكبر لو أتت من صحافي نقدي، وليس من أحد أفراد العصابة. وداهنت نفسي أيضاً، بأن المخبرين الإسرائيليين المحترفين كانوا يحترمون المهمة التي قمت بها بملاحقتي آثارهم الباردة في قصة نيومك.

ولكني أعلم الآن أن هناك سبباً يفوق بأهميته أي سبب آخر، وهو أنني كنت مهتمة، ولم يك الآخرون كذلك.

عندما يتكلم الإسرائيليون عن الإجماع يستعملون الكلمة الإنكليزية، فليس هناك ما يعادلها في اللغة العبرية. وبهذا يضيفون وزناً على القول القديم القائل: حيثما وجدت ثلاثة إسرائيليين تجد خمسة آراء. هذا طبيعي أليس كل الإسرائيليين الذين التقيتهم كانوا متحمسين لإمكانية العمل معي. كان الكثير من الموظفين يريدون ضمانات أو على الأقل بعض الدلالات ليعلموا أين أذهب بتلك المعلومات التي آخذها. ومن الغرابة أن يرفض بشدة موظفو المكاتب التعاون معي، بينما يبدي كبار ضباط الاستخبارات استعداداً لإعطائي الإذن.

وعلى الرغم من ذلك بدأت بالخطوة الخاطئة.

كان مصدر إسرائيلي قد أعطاني رقماً هاتفياً داخل الـ «كيريا» وهو مجمّع في تل أبيب يأوي تجهيزات وزارة الدفاع والمخابرات وقد قال لي هذا المصدر: «إذا تكلم معك هذا الشخص، تصلين إلى مبتغاك ولكنه شخص متعال ومتكتم».

«ما اسمه؟» سألت.

هنا ضحك الإسرائيلي وقال «يدعونه رافي همسرياش».

وقبل أن أطير إلى إسرائيل، طلبت الرقم لأحدّد موعداً. فردّ عليّ صوت رجل بفظاظة: ـ «ألو».

«هل هذا السيد همسرياش؟» سألت.

صمت.

«أعيدي» طلب الصوت بالإنكليزية، بنبرة مشككة.

فشرحت له من أكون وكررت: «هل أنت رافي همسرياش؟». فقال الصوت العميق: «هل تعلمين، ماذا تعني همسرياش؟»

«لا».

«النتن» هلر قائلاً، «دعيتني برافي النتن». . وضعت رأسي على يديّ «آسفة» قلت له. «لم أكن أعلم. هل هذا يعني أننا لن نعمل معاً؟» ويأتي صراخ غريب من الهاتف.

ومرّت لحظة اكتشفت فيها أن رافي همسرياش كان يضحك.

اسمه الحقيقي هو رافي ايتان وكان مستشار وزير الدفاع في الشؤون الإرهابية، وهو معاون رفيع له صلات قوية بالموساد ومخبر عسكري، لقبه «النتن» جاء في عهد الانتداب البريطاني قبل حرب الاستقلال عندما عبر مياه البواليع لينسف محطة رادار بريطانية على جبل الكرمل في حيفا والتي كانت تتعقب السفن المحمّلة باليهود القادمين إلى فلسطين.

وعلى الرغم أنني لم أك أعرف ذلك حين التقينا أنا وايتان، كان ايتان يخدم كرئيس الـ Lekem في مكتب الاستخبارات العلمية الفائقة السرية داخل وزارة الدفاع. كان الـ Lekem مسؤولاً عن تجنيد الجاسوس الأميركي جوناثان بولاد الذي سلّم معلومات عن دائرة

الاستخبارات البحرية الأميركية قبل أن يُلقى القبض عليه وعلى زوجته بتهمة التجسس.

بالرغم من بدايتنا الصعبة، فإن ايتان أصبح مصدراً لا يثمن، وفي النهاية، صديقاً.

كنت دائماً أستمتع بالذهاب إلى مكتب ايتان في ذلك الفناء الفسيح المعروف بالكيريا. كانت هذه المنطقة الأكثر حساسية في تل أبيب تهيمن عليها المكاتب السرية لقسم الدفاع والاستخبارات العسكرية، وكان الجو هناك يوحي بالسرية، وكانت الشوارع المليئة بضباط عاقدين العزم، أشبه بخلية النحل النشطة.

وكان مكتب ايتان الموجود داخل بوابة الملك داود، مميزاً بباب كبير لا يخترقه الرصاص، ويضج بالحركة: التلفونات ترن بدون انقطاع، وايتان يرد على أكثر من مكالمة في الوقت نفسه وأشخاص هنا وهناك ينتظرون دورهم.

«باربرا» يصرخ عندما يراني «ادخلي..» ملوحاً لي بيده ومتابعاً حديثه على الهاتف. كان ايتان رجلاً قصيراً قوياً ممتلىء الجسم، عيناه أشبه بعيون البوم، يرتدي نظارات سميكة، وكان قد فقد جزءاً كبيراً من سمعه نتيجة الجروح التي أصيب بها في حرب الاستقلال، ولهذا كانت نظاراته تخفي أداة للسمع. وكان مظهره يوحي بأنه شخص عاميّ وغير رسمي وكان مظهره الخادع العامي وغير الرسمي يخفي واحداً من أبرع المخبرين والفعّالين المؤثرين. وعلى الرغم من أن معظم أعماله الجريئة ما زالت سرية، فإنه استناداً إلى الوثائق التاريخية، كان قائد ميدان لعملية الموساد التي خطفت أدولف أيخمان من الأرجنتين.

سبق وقلت إن الإسرائيليين كانوا على علم ببرنامجي السري، وفي الواقع كنت أعرف سر تجاوبهم معي ومساعدتهم لي. فرافي ايتان لم يك يساعدني بهدف المساعدة فقط، برنامجه كان تحذيرياً، ويريد أن

يظهر بوضوح الدور الذي يأخذه الإرهاب وليحذّر من أنه إذا لم تؤخذ هذه المسألة بجدية أكثر فإنها ستنتشر، وكان ايتان يريد أن تظهر هذه القصة بأوسع طريقة ممكنة، لذا أعطانا قدراً كبيراً من المواد المهمة، وفتح لنا الباب لنكتشف الحلقات المفقودة التي بحث عنها الصحافيون لسنوات وهي: إثبات الصلات بين الإرهابيين العالميين، الدليل المفقود لتورط السوفيات بتدريب وتزويد قواتهم.

ولقد حذّرني ايتان، آنذاك، بأن هذه الادعاءات ستلقى إنكاراً واسع المدى، ولن أكسب شيئاً إذا قمت بها.

لم يكن مهماً أن يكون لإيتان أيضاً برنامجه طالما أن الأشياء التي كان يقولها لي صحيحة، وبالإمكان إثباتها، وإذا كان كذلك فإنه كان لدي قصة تستطيع تغيير طريقة تفكير الأميركيين، ولكن جعلت الحكومة تعرف أنني لن أطرح جانباً جزءاً من القصة. كنت أريد كل شيء أو لا شيء.

وكل يوم عمل كان يبدأ في الساعة السابعة صباحاً وينتهي عند الساعة الثانية أو الثالثة فجراً. بالإضافة إلى ايتان، كان لي اتصالات رئيسية مع دانر باتير، المسؤول الإعلامي لرئيس الوزراء مناحيم بيغن، والصحافي أوري دان، والجنرال زفي بار، الذي كان صلة الوصل بيني وبين نخبة وحدة تقاوم الإرهاب واسمها ايمام، وزئيف شيف وهو أفضل مراسل عسكري في إسرائيل، ومرشدي في الموضوع الذي كتبته عن «الحرب غير المقدسة».

غدت مهمتي صعبة ومؤلمة.

عزمت على تقديم تقييم عن التهديد الذي كان الإرهاب يشكّله على إسرائيل. كنت بحاجة لمدخل إلى الاستخبارات العسكرية. ولكي أستوعب نوع التدريب المصمم لمقاومة ذلك التهديد، كان عليّ الاجتماع بعناصر كلواء جولاني ورجال الضفادع والـ Sayaret matkal، أو وحدة مركز القيادة للأركان العامة، التي تعتبر صفوة

الوحدات المتقدمة لمقاومة الإرهاب في العالم. وكنت أريد أيضاً دراسة عملية إرهابية واحدة وذلك من خلال الدراسة الدقيقة لمرتكبي الجريمة وضحاياها، والقوة الرادعة. باستثناء الإذن الذي مُنح لي لمتابعة المهمة الرئيسية والذي سرعان ما ألغي، فقد حظيت في النهاية بكل شيء. وأعطاني رافي ايتان بالأخص، الخلاصات والمذكرات. ووضع المعلومات التي كنت أستلمها في سياق الكلام، وأمدني ببيانات وثائقية عن الاتصالات الداخلية بين مجموعات بادر ماينهوف والجيش الأحمر الياباني Red Brigade والـI.R.A. وبتدخله، أو بالأحرى بتطفله هذا، أُذِن لنا مقابلة كولونيل في منظمة التحرير الفلسطينية في مجموعة فتح الموالية لعرفات، في سجن إسرائيلي. كان الكولونيل عدنان جابر قد دخل الأكاديمية العسكرية في الاتحاد السوفياتي، وكان المنهج يتضمن التدريب على السلاح، والتكتيك، والقتال، والهندسة العسكرية، والمتفجرات. وقد استخدم جابر تدريبه لاحقاً بقتل ستة يهود وجرح ستة عشر آخرين، كانوا عائدين لتوّهم إلى منازلهم بعد تأدية الطقوس الدينية في الخليل في الضفة الغربية. ومن خلال جهود المحقق البارع أو المطلع رافي ايتان، بدأت القصة تأخذ شكلاً أوضح وتصبح مفهومة عندي أنا كصحافية. كنا كلنا نريد أن نعرف ماذا يحصل، ومن كان وراء كل ذلك الرعب. وإذا كان الاعتقاد السائد عن الشرق الأوسط بأن الاتحاد السوفياتي هو الذي درّب وزوّد تلك المجموعات، فهذا يرجع إلى العمل الذي قمنا به أنا وجيرالدو وباقي فريق الـ «٢٠/٢٠»، في هذه القصة.

وبعد أربعة أسابيع مضنية في إسرائيل، عدت إلى الـ A.B.C. ومعي جدول تفصيلي، وكل فيلم مصوّر احتجنا إليه. وعندما رأى مخرجنا آف ويستين ما جمعت، قرر أن تبث المادة لساعة كاملة بدلاً من خمس عشرة دقيقة.

عدت إلى إسرائيل بعد ستة أسابيع، لأكلم المشاركين في القصة

ولاختيار الأشخاص الذين سيقابلهم جيرالدو في الفيلم.

وكنا قد قررنا، أن إحدى القطع الرئيسية، ستكون بمثابة نظرة فاحصة لعملية إرهابية واحدة، من وجهة نظر كل المشاركين: الضحايا، ومرتكبو العملية، والفرقة الإسرائيلية المقاومة للإرهاب التي تعاملت مع الوضع. اجتمعت بكثير من ضحايا الإرهاب. وكان البعض منهم من الذين بقوا على قيد الحياة بعد المحرقة. كانت رواياتهم مؤلمة للغاية. وقمت أيضاً بزيارة حضانة على الحدود الشمالية لإسرائيل. وهناك، رأيت ثقوب الرصاص على الحائط حيث أطلق جنود منظمة التحرير الفلسطينية، النار على الأطفال هناك. وذهبت إلى المدرسة الابتدائية حيث رمى الجنود الأولاد من النوافذ وقذفوا القنابل عليهم. ولكن عندما سمعت عن شمادر هدر Smadar Hadar أدركت أنها هي التي أحتاج إليها.

فـ «الحادثة»، التي كلّفت شمادر هدر كل شيء تملكه في الحياة، كانت الأسوأ من نوعها. وقد مات ثلاثة إسرائيليين فقط في ذلك الهجوم، مقارنة بالعشرات الذين أُغتيلوا في مطار بن غوريون ومعالوت. ولكن كان لمأساة شمادر صدى آخر في نفسي. وأعتقد أنها رُسمت على ضفاف الذاكرة العُرقية التي قال عنها يونغ: «إنها تكمن في داخل كلّ منا».

في ليلة ٢٢ نيسان/ أبريل عام ١٩٧٩ اخترق أربعة فدائيين من منظمة التحرير الفلسطينية من مجموعة «فتح»، المياه الإسرائيلية بقوارب صغيرة. واقتحموا شقة شمادر وداني هدر، وابنتهما يائييل ذات الأربع سنوات، وطفلها الرضيع في بلدة نهاريا القريبة من شاطىء البحر. وقد استيقظ داني على صوت تحطيم الزجاج فأخذ بندقيته وركض إلى غرفة الجلوس، وأقفل باب الغرفة بقوة. أما شمادر التي راودها شعور بأنها عاشت هذا الوضع من قبل، فقد انتزعت طفلها من سريره واختبأت في خزانة الثياب، أما طفلتها فكانت أبعد

من أن تصل إليها حيث كانت في الجهة الثانية من غرفة الجلوس.

أما الطفل الذي انزعج من إيقاظه فقد بدأ بالبكاء وضغطت شمادر بيدها بقوة على فمه حتى لا يُكشف مكان اختبائها. وسمعت ابنتها تصرخ وزوجها يبكي بألم. ولكن ظلت مختبئة مع الرضيع.

وأصيب الفلسطينيون بحالة رعب كبيرة، إذ تسببّوا بكثير من الضجيج أيقظ الجيران واستقدم الجيش. عندئذ أخرجوا داني وابنته بالقوة إلى الشاطىء. ومع اقتراب الجنود الإسرائيليين، انتزعوا الطفلة من بين ذراعي والدها ورموا بها على الشاطىء المليء بالصخور. وبينما أمسك ثلاثة رجال بداني، ضرب الرابع الطفلة بكعب بندقيته، محطماً رأسها. ثم أطلقوا الرصاص على الأب بعد ذلك.

وجاء الجنود بعد فترة قصيرة، وقتلوا اثنين من الفلسطينيين وألقوا القبض على الاثنين الآخرين وهما: سامي قنطار وأحمد عبرس.

وعندما دخل الجنود المنزل لم يروا أحداً مما جعلهم يعتقدون أن الإرهابيين قد أخذوا العائلة بأكملها، ومرّت نصف ساعة قبل أن يجدوا شمادَرَ مجمّدة من الذعر في مخبئها، والرضيع، الذي أصبح صامتاً، منهكاً كان مضغوطاً بشدة إلى صدرها، فانتزعوه منها ولكن بعد فوات الأوان: ففي حالة الذعر، خنقت شمادر طفلها حتى الموت. قصة مروعة، وكابوس أم، ولكن الأسوأ من هذا كله هو أن الأمر بدا مألوفاً، فقد سبق وقرأت قصصاً مماثلة عن جمع اليهود في المحرقة.

ذهبت إلى نهاريا لمقابلة شمادر، فوجدت أمامي امرأة سمراء صغيرة ومخيفة، كانت قد تزوجت مرة ثانية وأصبح عندها طفلة أسمتها آدي وهي الحروف الأولى من أسماء عائلتها الميتة، وسألتها: لم بقيت في نهاريا، فردت بجواب سيلازمني إلى الأبد:

«كنت الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة».

وأردفت قائلة: «ففكرت أنه من الأفضل أن أبقى هنا وأبدأ من

جديد وأكوّن عائلة مرة ثانية، وكان لديّ إحساس أنه عليّ أن أثبت لهم أن باستطاعتهم قتل الأطفال، ولكن ليس باستطاعتهم قتل الروح، لا يستطيعون قتل إيمان أو معتقد ما، قتلوا عائلتي، ولكن لم يدمروني»..

بالنسبة لي، كانت شمادر كالذين بقوا على قيد الحياة إثر المحرقة، وجاؤوا إلى إسرائيل، وأسسوا دولة، وحاربوا من أجلها، ورفضوا الموت بعناد.

اجتمعت بالفلسطينيين من فريق منظمة التحرير في السجن الإسرائيلي، وقد رووا قصتهما بواقعية دون أن يبديا أي أثر للندم. جلس سامي قنطار، الذي لقّبه جيرالدو لاحقاً بـ«الرأس المدوّر» قبالتنا وعلى شفتيه ابتسامة الرضى، وعندما سئل إذا كان يشعر بالأسف على قتل الطفلة الصغيرة ردّ مدافعاً: «من الطبيعي أن نعتبر كل من أخذ الجنسية الإسرائيلية، أنه أخذ شيئاً منا، ولهذا نحن نطمح للإطاحة بالجنسية الإسرائيلية وكل من يحملها».

«سوف أقتل كل إسرائيلي لأنه جاء واغتصب أرضي وهجّر شعبي»، استمعت إليه حتى النهاية، ثم خرجت وتقيّأت.

واجتمعت أيضاً بالجنود الذين ألقوا القبض على الإرهابيين، ومنهم من قاتل في خطوط المواجهة في الحرب غير المقدسة ضد الإرهاب، لا أعلم ماذا توقعت وبالتأكيد لا يوجد أحد مثل «جيورا أنبار»، وهو أصغر ملازم في الجيش الإسرائيلي، خدم في النخبة أي (لواء جولاني) الذي نفّذ عملية الليطاني في لبنان. وجيورا خاض معارك ضارية ضد منظمة التحرير في تلك المناسبة وغيرها من المناسبات، سألته عن شعوره نحو ذلك فردّ قائلاً: «أكرهه، ولسنا كالإرهابيين، نحن نقاتل الجنود فقط وليس النساء، وعلى الرغم من ذلك فإنني في كل مرة أقتل أحداً، أفقد جزءاً من روحي». وقابلت «بوباي» أيضاً، وهو قائد وحدة رجال الضفادع وقد سُمي كذلك لأنه ضئيل الحجم وصلب كالمسامير، ويدخن، تكلّم هذا

الجندي الأسطوري مطوّلاً عن الثمن المعنوي للقتل، وكم هم حريصون على تفادي المدنيين، حتى ولو كان ثمن هذا خسارة بعض رجالهم.

في السنوات التي تلت وفاة بشير الجميل رجعت إلى الوراء باحثة عن النقطة التي وصلت إليها هذه القصة، وأدركت أنه ليس هناك أية نقطة، ولكن سلسلة من الحوادث قادتني إلى الأعماق حتى اكتشفت أنني لم أعد متفرّجة، إنما أصبحت مشاركة، ولكن، في الوقت ذاته أعلم أنه كان للعملية بداية مميزة، مقابلاتي مع شهادر هَدَر والمهاجمين فجّرت أحاسيس لم أكن أعلم أنها في داخلي وكان العزم المزروع داخلي منذ زمن طويل قد اشتعل فجأة واستهلكني من الداخل.

أنا يهودية، ابنة يهود شرقيين ممن نزحوا قبل الحرب العالمية الثانية، لست متدينة، وفي معظم حياتي لم أكن مناصرة للصهيونية بشكل خاص ولكن لا أذكر أي وقت في حياتي لم أكن على علم فيه عن المحرقة. كان والداي يتكلمان دوماً عن النازية، التي أبادت فروعاً كاملة من عائلتيهما، وليس مصادفة أن أغرق في التاريخ وأكتب نظريتي عن المحرقة، لديّ ذاكرة واسعة، وجزء منها قد تبدد كـ «ياد فاشيم» (المتحف التذكاري للمحرقة). كرهت طوال حياتي النازية وأساليبها حتى أنني إلى اليوم لم أتخلّص من الإحباط. كنت أحلم أحلام اليقظة في المدرسة، كالمحاربة مع المقاومة الفرنسية، أو قيادة عصابة من الفدائيين في المناوشات ضد الفيشيين ورؤسائهم النازيين أو قتل الحرّاس وإطلاق سراح السجناء.

وفي إسرائيل رأيت أن ضحايا الإرهاب، كضحايا النازية، كانوا فريسة لقوة الكراهية العمياء المسخرة لقضية بغيضة، وكما كانت شهادر تمثل من بقي على قيد الحياة بعد المحرقة هكذا أيضاً أخذ الإرهاب مظهر محرقة جديدة استهدفت كسابقتها اليهود أولاً.

في عام ١٩٨٠، نظر العالم إلى الإرهاب كمشكلة إقليمية، كما

سبق ونظر إلى مشكلة النازية المعادية للساميّة في عام ١٩٣٨ كمشكلة داخلية تخص ألمانيا. ولكن كان من الواضح لي أن هذا الوباء لو حدث في الشرق الأوسط، سوف ينتشر ويعم العالم الغربي. لهذا، لم تكن فقط لامبالاة الإعلام الغربي بالإرهاب المرادف المعنوي للتغاضي المقصود عن المحرقة، ولكن كانت المرادف العلمي لقصة النعامة التي دفنت رأسها في الرمال.

في كل ليلة تتراءى أمامي وجوه الجنود، والضحايا والإرهابيين، وأسمع أصواتهم في أحلامي. وبدأت أشعر أنه لدي مهمة أشهد عليها.

ولكن كان لدي عمل لأقوم به أيضاً. لهذا احتفظت بمشاعري لنفسي ولم أقل لأحد من مصادري الإسرائيلية كيف كانت القصة تتشكل وكانوا كلهم أطرافاً فيها. وكنت مصممة على الاحتفاظ بعاطفتي حتى ولو كان الثمن عدم ثقتهم المستمرة بي.

نحن موهوبون بهذا التكتم وتاريخنا مليء بالصراع. فالإسرائيليون كانوا منفتحين بشكل لافت للنظر، إذ سُمح لنا بالتصوير داخل السجون السرية للغاية وبزيارة غرفة الرادار السرية للأسطول.

التقينا بالجنرال مانو شاكيد، وهو قائد لقوة ضاربة متحركة تكتيكية تعمل مع وحدة مركز القيادة التي نفذت عملية عنتيبي في أوغندا، وقام مغاويرها بقتل قادة منظمة التحرير في بيروت، وقد اطلعنا على الخرائط وصور فوتوغرافية متسلسلة للاستخبارات، استخدمت في الكثير من العمليات، وناقش معنا أسباب نجاح الوحدة. الذي يعود لعاملين كما قال: الأول كان التخطيط لسيناريوهات متعلقة بالوحدة أدخلت في الكومبيوتر، بعد كل هذه الاحتمالات التي مورست آنفاً، حتى لا تكون هناك أية مفاجآت عند حصول أية أزمة.

والعامل الثاني والشيء الذي لا بد منه في كل عملية:

الاستخبارات، من العاملين الميدانيين في الموساد إلى الاستخبارات العسكرية. فالمعلومات عن العمليات الرئيسية مثل عملية الـ (عنتيبي) واغتيال قادة منظمة التحرير في بيروت عام ١٩٧٣ (وفي تونس عام ١٩٨٨)، كانت تتم مداولتها باستمرار حتى اللحظة التي تبدأ فيها العملية. وإذا كان هذا النوع من المعلومات الاستخباراتية المباشرة غير متوافرة، كما قال الجنرال، فإن العملية لا تتم.

سُمح لنا أيضاً بتصوير الأسلحة السوفياتية والوثائق التي وجدت مع الفدائيين الفلسطينيين، وأيضاً مقابلة السجناء الفلسطينيين. . وفي نهاية المطاف كان عندنا كمية تكفي لعشرات التحقيقات. وتحوّلت أفكاري إلى المنزل وإلى مهمة تحرير هذه المواد كلها.

كنت جالسة أنتظر جيرالدو في فندق الشيراتون في تل أبيب عندما جاءني رسول يقول: «مكالمة هاتفية في انتظاري» كما قال، من السيد دايفيد كيمحي. نظر إليّ جيرالدو ورفع حاجبيه وقال: «كيمحي المراوغ». «فات الأوان» رديت قائلة.

منذ أسابيع وأنا أحاول مقابلة مدير وزارة الخارجية، ولكن الرجل الثالث في الموساد سابقاً أثبت أن مقابلته دونها صعوبات.

كيمحي، رئيس محطة الموساد في بيروت في السبعينيات، كان رجل إسرائيل الأول في لبنان. كنت أتوق لمقابلته ولكن من حوله كانوا يماطلون متذرعين بشتى الحجج، إنه في الخارج، أو في فترة استراحة، عاد ولكنه مشغول جداً، أو إنه مجتمع برئيس الوزراء، أو في الكنيست ـ يعني يستحيل الوصول إليه.

وتلقيت الرسالة، واستطعنا العمل بدونه والآن فجأة وقبل أيام قليلة من رحيلنا اتصل بي. ولكن كنت أريد اكتشاف كل شيء التنقيب عن كل شيء ولهذا ما كان عليّ إلا أن أمسك بسماعة الهاتف وأشكره على اتصاله، وأخطط لمقابلته في اليوم التالي.

كان مكتب كيمحي في العمارات المبنية حديثاً قرب الكنيست الذي

كان يحوي وزارة الخارجية. انتظرت دقائق قليلة في غرفة الانتظار التي كانت تحتوي على مقعدين قديمين بالإضافة إلى سكرتيرة وقبل أن تأذن لنا بالدخول إلى غرفة مكتبه، نظرت حولي باندهاش كان الأثاث صلباً، ومستعملاً ومن الواضح أنه كان مختاراً لهدف الاستعمال وليس للتزيين. دخلت مكاتب حكومية عديدة من قبل ولكن لم أر واحداً غير مزخرف كمكتب كيمحي.

ولد ديفيد كيمحي في انكلترا وعلى الرغم من كونه إسرائيلياً إلّا أنه ما زال يتمتع بشيء من التحفّظ الإنكليزي. ومن دون شك أن هذا قد تعزز خلال سنوات خدمته في الموساد، حيث ارتفع إلى أعلى المراتب قبل أن يُطرد عندما حدث انقلاب في المكتب.

كان لديه خلاصة عن نشاطاتنا وقال أنني أثرت في شعبه الغضب.

كانت المقابلة جيدة، أفادنا كيمحي بصورة شاملة ومفيدة عن حرب إسرائيل ضد الإرهاب، ولكن عندما ضغطنا عليه لتزويدنا بالتفاصيل المميزة تملّص من الإجابة بأدب ولباقة.

وتطرّق جيرالدو إلى موضوع محاربة الإرهاب سائلاً: في بلد مليء بالإرهابيين الكامنين، كيف تحترسون من الهجمات في الداخل.

□ «بحذر شديد» أجاب كيمحي.

ضحكنا بأدب: «ولكن بشكل خاص» قال جيرالدو «وكيف تتعامل مع التهديد؟ هل عندكم عملاء بين الفلسطينيين؟»

هنا مدّ كيمحي يديه بعفوية وقال: «أخشى القول بأننا أصبحنا في مياه أعمق من أن تبلغها قدم».

ـ ولكنك تعرف دون شك.

□ «نعم، ولكن لعبة الاستخبارات تعتمد على أقل عدد ممكن من الأشخاص العارفين. وهؤلاء الذين يعرفون أكثر، يتكلمون أقل».

ثم قال جيرالدو: «أنت الآن المدير العام لوزارة الخارجية. ومركزك

قوي هل أنت الجاسوس الأساسي الذي عمل في الخفاء؟».

ـ «أعوذ بالله» قال كيمحي بحماس. أؤكد لك أناموظف مدني لا أكثر ولا أقل.

□ ألم تكن جاسوساً سابقاً؟

ـ كلا بالتأكيد، قال كيمحي ناكراً ما كان كل من في الغرفة يعرف أنه صحيح.

أبدى كيمحي استغرابه لأننا سنجري تحقيقاً عن الإرهاب. حتى ذلك الوقت كما قال لنا، غطى الصحافيون حوادث محددة فقط، وليس الصورة بأكملها. كان يريد المساعدة. وسألنا: هل قابلت هذا الشخص أو ذاك؟ وكل اسم ذكره كنا نرد بنعم.

«ممتاز» قال كيمحي ومن ستقابلان في لبنان؟

□ «لن نذهب إلى لبنان» قلت.

ـ بدا منذهلاً «حقاً؟!». قال بلهجته البريطانية. «ولكن ألم تقولي أن موضوعك هو الإرهاب؟».

□ «نعم»، قلت وأنا عالمة بما سيأتي في الحديث.

ـ ولكن، كيف ستتجنبين الذهاب إلى لبنان، أنظري، وقال: «إذا كان الإرهاب سرطاناً، فإن إسرائيل تعاني من حالة يمكن السيطرة عليها، ولكن لبنان مصاب بمرض الإرهاب الذي هو بالنسبة إليه كالفاتيكان بالنسبة للكاثوليك أو كالمصباح بالنسبة للنور.

فكرت بمنزلي، وبابنتي، التي كانت تتوقع مجيئي وفكرت بموعدي النهائي وتنهدت.

نظر جيرالدو إليّ: «عليّ أن أذهب إلى إيطاليا»، قال جيرالدو بنبرة توحي بأنه عليّ اتخاذ القرار بنفسي، وأضاف «أستطيع العودة ثانية».

□ «ليس لدي تأشيرة دخول»، قلت له، «وليس عندي أية

اتصالات هناك. لا أعرف أحداً».

ـ «لا تقلقي بشأن ذلك»، قال كيمحي مشجعاً، «إذا كنت ترغبين في الذهاب، سأهتم برعايتك هناك».

□ «شكراً جزيلاً».

ـ «أراك في بيروت، باربرا». قال جيرالدو ضاحكاً.

□ والتفت إلى كيمحي سائلة «من عليّ أن أرى هناك؟».

ـ «بشير الجميل»، قال بسرعة.

□ «من»؟.

ـ «يبلغ الـ ٣٢ من العمر فقط. وهو رئيس «القوات اللبنانية». الميليشيا المسيحية، ويقود بشير الحرب ضد الإرهاب في لبنان. قتلت ابنته ذات الثمانية عشر شهراً في سيارة مفخخة السنة الماضية».

«بشير رجل مميز»، أضاف كيمحي بلطف «وجميل للغاية».

□ «قد يكون محازباً أصلب من أن نستخدمه لأهدافنا»، قلت له وتابعت:

ـ «لن نمضي وقتاً طويلاً في لبنان، إذا ذهبت أريد الدخول والخروج بسرعة، أحتاج إلى شخص يعطيني صورة شاملة، وليس إلى مقاتل في الجبهة».

ـ «هذا راجع لك، طبعاً» قال كيمحي بقليل من الحياء، «سأعطيك قائمة بأشخاص قد تعتبرينهم محترمين ولكن..».

□ «لكن؟».

ـ «لكن يظهر أنك ستخسرين قصة عظيمة، وتجربة عظيمة أيضاً، إذا تجاهلته. شخصياً، أنا أعتقد إذا كان هناك أي أمل للبنان، فذلك الأمل هو بشير الجميل».

□ «حقاً»؟ قلت له مشككة. «من هو؟ ومن أين هو؟».

ـ «إنه الابن الأصغر لزعيم الموارنة، صاحب النفوذ القوي، بيار الجميل».

وأخذ كيمحي يشرح لي السياسة اللبنانية بوضوح لم يسبق لي سماعه عند التطرّق إلى موضوع لبنان المعقّد، بل ولم أسمعه منذ ذلك الحين. فعندما بدأ يتكلم استطعت أن أرى لبنان بمتاهاته العدائية المتشابكة، والمنافسات الطائفية.

كان كيمحي موهوباً بالرؤية الواضحة والتعبير الواضح. والموارنة، كما شرح لنا كيمحي، طائفة كاثوليكية طردت من سوريا في القرن الخامس والتجأت إلى جبال لبنان، وكجميع الأقليات في الشرق الأوسط، اليهود في إسرائيل، والأقباط في مصر، عاش الموارنة في عالم محفوف بالمخاطر.

ولكن وجد الموارنة الازدهار في لبنان، وبعد انفجار النزاعات الطائفية، وُضعت موازنة دقيقة في الميثاق الوطني، ووفق قوانين هذا الاتفاق، انقسمت القوة بين الفئات المهيمنة، وكان منصب الرئاسة للموارنة بالإضافة إلى المراكز المهمة في الجيش والمالية التي كانت كلها بيد هذه الطائفة.

وازدهر لبنان بهذا الترتيب، وحتى عام ١٩٧٠، كان هذا البلد واحة للثقافة الغربية، فقد كان أمراء عرب يحتفظون ببيوت لهم في لبنان هرباً من قسوة المجتمع والعادات التي كان يفرضها الدين عليهم، والأوروبيون يأتون سعياً وراء مكان غريب وآمن، وأصبحت بيروت شهيرة بـ«سويسرا الشرق» لأن أصحاب البنوك فيها كانوا من النخبة التي تموّل معظم الصفقات التجارية الكبرى في العالم.

وحصلت في عام ١٩٧٠ حادثتان غيّرتا وجه التاريخ في لبنان إلى الأبد، وهذا عندما طرد الملك حسين في الأردن، اللاجئين الفلسطينيين من حرب ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل واستقبلهم لبنان بدوره تضامناً معهم، واستقرّ عدد كبير من اللاجئين في الجنوب، القريب من

الحدود الإسرائيلية بينما اتخذ قادتهم السياسيون، والعسكريون بيروت الغربية مقراً لهم حيث الغالبية المسلمة.

ولم يدرك المسيحيون على الفور الخطر الذي سيهدد سلطتهم، وربما بسبب مرور عشرات السنين من الأمن والسلام والازدهار. وبسبب المنافسة الداخلية بين العائلات المارونية الثلاث الرئيسية، أخفق المسيحيون في تشكيل قوة متحدة تردّ أولى المناوشات مع الفلسطينيين، وفي ١٣ نيسان/ أبريل، عام ١٩٧٥ اشتعلت الشرارة التي قادت إلى حرب أهلية شاملة، وككل الحروب التاريخية المهمة، بدأت هذه الحرب بحادثة صغيرة:

فقد ضلّ أوتوبيس آتياً من عاليه، وقاصداً مخيم صبرا، ومحمّلاً برجال لمنظمة التحرير طريقه فتوقف في منطقة للمسيحيين هي عين الرمانة، وكان الرجال في طريقهم لدفن أحد الرفاق، فطلبوا من أصحاب المتاجر إقفالها احتراماً للمتوفي، وحصل نزاع بين الفريقين أسفر عن ضحية مسيحية، وكان هذا الأخير من حراس الشيخ بيار الجميل، مؤسس حزب الكتائب المسيحي، والذي كان في تلك اللحظة يحضر مراسم عمادة في مكان قريب من الحادث.

فسرّ المسيحيون هذه الحادثة كمحاولة اعتداء على حياة الشيخ بيار. وبعد بضعة أشهر ردّ المسيحيون على تلك الحادثة بمجزرة في الكرنتينا، التي هي جزء من مرفأ بيروت الشرقية، بسبب هذه المجزرة قامت منظمة التحرير الفلسطينية بمجزرة ضد المسيحيين في الدامور. .

واستمر الأمر على هذا المنوال. . إلى أن اشتد القتال وامتدّ إلى الفئات الأخرى، وعندما انتزع الفلسطينيون السيطرة على معظم مناطق الجنوب اللبناني، من الجيش اللبناني استغلّ السوريون هذه الفرصة واحتلوا لبنان بأمر من العرب، ظاهرياً. . . وجاء السوريون لحماية المسيحيين ـ الذين كانوا يواجهون تحالفاً قوياً بين الفلسطينيين و«أمل» ـ ولكن ما إن أصبح التوازن العسكري لصالح الموارنة، حتى مال

السوريون بثقلهم إلى الجهة الأخرى، وأصبحت منظمة التحرير الفلسطينية قادرة على إطلاق الهجمات الفدائية ضد إسرائيل من لبنان، وذلك بسبب تطور قوتها العسكرية، وقد عجّل انتقام إسرائيل المحتوم بانهيار السلطة اللبنانية المركزية.

وفي عام ١٩٧٦ اشترك الكتائبيون (الميليشيات المسيحية المنتصرة) في حرب مفتوحة مع منظمة التحرير الفلسطينية، وردّ هجمات المسلمين اللبنانيين المتمردين، وتمزّقت بيروت إرباً بسبب المعارك التي دارت بين الميليشيات الطائفية التي كانت تراهن على قوى في المنطقة.

والأسوأ من هذا كله، من وجهة نظر المسيحيين، هو أن «فيروس» النزاعات الحزبية كان قد أصاب صفوفهم أيضاً، فما لبث أن حمل المسيحيون السلاح ضد إخوانهم. ومع تدهور نفوذ الحكومة المركزية، وانحلال الجيش في الأحزاب الطائفية، عمّت الفوضى وضعف نفوذ الحكومة، وأصبح لبنان أشبه بأخطبوط في حالة حرب مع نفسه، وانبثق من هذا الخضم المشوش والمضطرب قائد فاتن شبيه بالأبطال العظماء لبريطانيا القروسطية، ولم يكن هذا القائد سوى بشير الجميل.

بشير الجميل، كما قال كيمحي، نجح في عمل ما لم يستطع أي رجل آخر فعله، ألا وهو توحيد المسيحيين.

«كيف؟» سألت كيمحي.

فردّ قائلاً: «عبر الإقناع السياسي، واستعمال القوة عند الضرورة، لم يكن بشير ملاكاً، وقد فعل ما كان يجب فعله».

«فعل ما يجب فعله، يبدو الأمر وكأنه نقش على ضريح» قلت له باستخفاف.

بدا كيمحي مندهشاً، ولكن لم ينبس ببنت شفة. لقد تكلم عن بشير بشغف وتوكيد، وكان هذا بمثابة تأييد شديد له من رجل قوي، وتساءلت: ماذا فعل، أو ماذا وعد أن يفعل بشير، ليحظى بهذا كله،

لا شك أن لكيمحي أسبابه لإعلاء منزلة هذا الشيخ، ولكن كنت أتساءل، إلى أي حدّ سيكون لبشير التأثير في نهاية المطاف، إذا كان، كما أشك الآن، رجل إسرائيل في لبنان. «لقد فعل ما أمرته أنت أن يفعل». قلت متأملة في صوت عال.

بدا كيمحي وكأن الأمر يسلّيه وقال: «قابليه واحكمي بنفسك إذا كان بشير دمية أحد».

نسخت قائمة كيمحي، مضيفة علامة صغيرة إلى جانب اسم بشير الجميل، وفي تلك الليلة استضفنا أنا وجيرالدو، كل مصادرنا الإسرائيلية، وتركت الحفلة باكراً لأذهب مع صديق إسرائيلي إلى غرفتي حيث بحث ونقّب في أمتعتي وأزال كل ما كان يشير أنني كنت في إسرائيل، وفي اليوم التالي طرت إلى بيروت.



باربرا نيومان



بشير الجميل

- ٢ -

في بيروت

يستغرق الطيران من تل أبيب إلى بيروت ست ساعات من الوقت، وهذا يعتبر أطول من طريق البر، وأسرع من السير على الأقدام، هكذا هو تأثير السياسة على النقل ووسائله، إذ تتشعب وتتباعد الخرائط السياسية، والجغرافية لإمكانات الوصول، بشكل واسع في الشرق الأوسط، لدرجة أن على المرء أن يطير غرباً ليذهب شمالاً.

وهذا كان يلائمني، لم أكن مستعجلة للوصول. نظرت خارج النافذة محدقة في السماء اللبنانية، وأنا أرشف الشمبانيا، محاولة العثور على كلمة غير كلمة «الخوف» لوصف ذلك الإحساس الغريب في أحشائي، أغمضت عيني وحاولت الاستراحة ولكن ارتسمت في خيالي مشاهد من إسرائيل، وظلّت أصوات السجناء الفلسطينيين المليئة بالكراهية والحقد ترن في أذني. لقد أدركت خلال تلك المقابلات، كم هو مريح وجود الحراس المسلحين على الأبواب.

كيف ستكون مقابلة هؤلاء الناس الذين لا تشمل كراهيتهم الإسرائيليين فحسب بل كل يهودي مهما كانت جنسيته، في بلد هم المسيطرون فيه؟

كان الأسبوع الماضي متعب لي للغاية، لقد أنهكني إصراري على استخراج القصة، كنت مصرّة للغاية عليها، حتى أنني بتّ أرفض أية

معلومات غريبة أو دخيلة عليها، كنت أستمع فقط إلى ما يخص التحقيق الذي باشرت به رافضة ما عدا ذلك. وفي رحلتي الأولى، قابلت الملازم الإسرائيلي الشاب «جيورا انبار»، وعندما علمت أنه سينقل خارج لواء «جولاني»، اتصلت بدان باتير ومنعت عملية النقل نهائياً حتى يصل جيرالدو وطاقم التصوير.

وأدركت أنني كنت أتصرف كظالمة، ولكن لم يكن بوسعي غير ذلك، كان عليّ إنجاز المهمة، وكان فريق المصورين يمشي حولي بحذر، وحتى جيرالدو كان يراقب نفسه، وعندما جلست في الطائرة في طريقي إلى بيروت عبر مصر، أحسست وكأني أجلس فوق بركان حيّ.

لعل السبب هو تغيّر ضغط الهواء، أو العزلة المفاجئة، ولكن عندما ارتفعنا فوق الغيوم، بدأت مشاعر مكبوتة بالإنفجار، أحسست بالغضب، والحزن على ضحايا «الإرهاب» وامتلكني شعور بالإعجاب بهؤلاء الرجال والنساء الذين حاربوه دون أن يخسروا إنسانيتهم.

محور التحقيق أو محور قصتي كما بدأت أراه الآن، سيكون أشخاصاً أمثال شهادر هدر. أناس رفضوا التصرف كضحايا على الرغم من أن عندهم من الأسباب ما يكفي لفعل ذلك، أناس أصرّوا وبعناد على أن يعتبروا أنفسهم منتصرين، وأحسست أن «الإرهاب»، بغض النظر عن مسبباته، مقيت. كان يستأسد على ميزان عالمي عنيف، وهذا الإحساس جعل تعاطفي واحترامي يزيد للضحايا الذين لم يستسلموا.

لقد طبّعني والدي بالحاجة الثنائية إلى أن أكون قوية، وأن أتحالف مع الضعفاء. في كل مرة أبدأ فيها بعمل قصة، أورّط نفسي بشكل عميق فيها، ولكن بين كل القصص التي عملت بها ما من شيء حرّكني، وهزّني، كهذه القصة عن الإرهاب. وأن أكون خائفة من الذهاب إلى بيروت كان يعني فقط، أنه عليّ الذهاب، وليس لأني كنت

متهورة، ولكن لأن هذا الإحساس بالخطر هو معلم ثمين يشير إلى قلب القصة.

طلبت كأساً آخر من الشمبانيا وحاولت القراءة، وذهب فكري إلى الأحزاب المتحاربة في لبنان، إنه موضوع في غاية التعقيد، فإذا فكرت بهذه الحروب كحرب المسيحيين ضد المسلمين، أو اللبنانيين ضد الفلسطينيين، أو حتى حرب سوريا ضد الكل، يبدأ الشيعة بذبح بعضهم البعض، ويقتل المسيحي أخيه المسيحي، فأرجع حيث بدأت. ينظر الصحافيون إلى لبنان على أنه غابة، وإسرائيل كمستنقع، وأرى أنهم مصيبون في ذلك.

كنت أفضل مستنقعاً حقيقياً على بيروت، وقد بدا لي الغوص في مستنقع مليء بالتماسيح التي تلاحقني وكأنه رحلة استجمام عندما قارنته بالمناورة بين نيران عشرات الفئات المتحاربة.

بالطبع كنت على علم بالحواجز على الطرقات، وماذا حصل، وما يمكن أن يحصل. منذ تسع سنوات، لم يكن خطف الأميركيين أو الغربيين، هو الرياضة الوطنية اللبنانية بعد، ولكن كان هناك العديد من الحوادث البغيضة، وكان كيمحي قد لخّص لي مقتل المحرّر اللبناني سليم اللوزي حيث خطف عند حاجز مسلح وعُثر عليه ميتاً بعد عدة أيام، من جراء التعذيب. لم يكن قتل اللوزي بعد تعذيبه، عشوائياً. فقد اتخذ موقفاً وقتل على أساسه.

لم أفعل بعد ما يغضب أحداً، ولكن بقيت فكرة نهاية سليم اللوزي في ذهني، كترياق فعّال للاسترخاء.

ومما زاد قلقي أكثر هو أنني كنت أطير دون تأشيرة دخول، معتمدة فقط على توكيد «آف ويستين» مخرج الـ «٢٠/٢٠»، لي، بأن هناك شخصاً من مكتب الـ A.B.C في بيروت، سيسهّل دخولي. ولكن لم أكن أعرف أحداً من ذلك المكتب ولم أكن أحبّذ الاعتماد على الغرباء. على الأخص أن هناك فرصة جيدة في التلفزيون، للاحتكاك بين مكتب

الأخبار المحلية، ومخرجي المجلات الإخبارية. كانوا يعتبروننا متطفلين، نرغب في إذاعة مصادرهم بضربة قوية وسريعة، بينما عليهم أن يشقوا طريقهم في الوحل بصعوبة.

ولعل ذلك كان السبب في توتري وقلقي الزائد، ولكن عندما بدأت الطائرة بالهبوط في ضباب الأصيل الأزرق، بدا لي للوهلة الأولى أننا وصلنا إلى معسكر، إذ رأيت عبر النافذة جنوداً في كل مكان، يتوزعون في مجموعات صغيرة يتحادثون، والرشاشات معلّقة على أكتافهم. ولكن عندما دنَوْنا أكثر، اطمأنيت، فقد كان هناك بعض الركاب في أطراف المطار.

نظرت حولي في المطار ولم أجد أي أثر لمبعوث «آف ويستين»، وشعرت بالمرض، وبينما أنا أتخيل نفسي موقوفة، والتحقيق معي جار، أو حتى أنني طردت أو سُجنت. رأيت اسمي على لوحة كبيرة، ولوّحت بيدي، ثم جاءني حامل الإشارة وكان رجلاً طويلاً ونحيفاً في منتصف العقد الثالث من عمره.

□ «سين تولين» قال لي مصافحاً، «مراسل راديو الـ A.B.C».

ـ «وأنا بربارا نيومان».

بدا مشككاً. كنت معتادة على ذلك. فمنذ أن أذيعت كل من قصة سيلكوود ونيومك واسمي معروف في هذه المهنة، ولكن وجدت مرة تلو الأخرى أن الأشخاص الذين كنت ألتقي بهم يتفاجأون بشكلي الذي يبلغ طوله خمسة أقدام، ويزن مئة باوند.

قلّب تولين نظره بي مبتسماً، ثم وقف جانباً، وللمرة الأولى لاحظت أن هناك شخصاً آخر معه.

«أقدم لك مدير فندق الكومودور، الذي تلطّف وجاء ليجلبك».

تصافحنا وشكرت المدير على لطفه وكرمه، ولكن قلت إنني لا أريد المكوث في الكومودور.

«عن إذنك لحظة» قالها تولين بمنتهى اللباقة لمدير الفندق ثم أخذ بذراعي وقادني بعيداً.

□ «ماذا تعنين، لن تمكثي في الكومودور؟».

- «لا أريد الكومودور».

□ «ولكننا نمكث هناك كلنا، لديهم كل التسهيلات».

- «سأمكث في فندق ألكسندر».

□ «ولكنه في بيروت الشرقية» ردّ تولين، وكأنه يشرح لطفل، «الجهة المسيحية، إضافة إلى أنها منطقة منقبضة. بالله عليك، لم تريدين المكوث هناك؟».

- «نصحني صديق بذلك» قلت له بلطف، غير راغبة بإطلاعه على مهمتي ونحن بعد في مطار بيروت.

□ «لكنه جاء بسيارته» قال تولين، «وليس ذاهباً إلى بيروت الشرقية».

- «من المفروض أن هناك سيارات للأجرة»، كنت بدأت أفقد أعصابي ولم أتوان عن إظهار ذلك له.

حدّق تولين بي ثم هزّ كتفيه مستسلماً.

الجهة التي يختارها الصحافيون للعيش، في مدينة مقسّمة، هي بالتأكيد إشارة إلى أية ناحية تميل القصة إليها. وفهم كلّ منا أنه برفضي اقتراحه كنت بذلك أخطو خارج هذا الاتفاق.

«ستكون جنازتك» قال لي مطبقاً شفتيه، ثم ذهب واعتذر إلى المدير، الذي نظر إليّ بدوره نظرة عميقة، ثم رحل. جمعنا أنا وتولين حقائبي وخرجنا من المطار إلى البرد القارس، والضوء المزعج، وضجيج السيارات.

وفي داخل سيارة الأجرة، التفت إليّ تولين بوجه منقبض قائلاً:

«ما هو هدفك؟ ماذا تفعلين هنا؟».

«قصة عن الإرهاب»، قلت له بصوت خافت وعيني على السائق «عندنا الجانب الإسرائيلي، والآن نريد الجانب اللبناني. نريد مقابلة عرفات، هل تستطيع أن تجعل هذا ممكناً؟».

□ «ولم تريدين المكوث عند المسيحيين إذا كنت تودين مقابلة عرفات؟».

- «ليس عليهم أن يعرفوني، دع الغرفة في الكومودور باسمي».

لم يكن هذا هو الجواب الذي يسعى إليه. فحاول مرة ثانية: «لم تأتي إلى هنا من قبل، أليس كذلك؟».

- «كلا، هذه المرة الأولى».

□ «دعيني أضعك في الجو، لا يمكث أحد في الجهة المسيحية ولن يجد الفلسطينيون مكوثك هناك؟ رابطة الصحافة كلها تمكث في الكومودور».

والكومودور هو الفندق الذي سبق وسمعت عنه بأن له اتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية، وفكرت أن أقول له الحقيقة ـ إنني أريد المكوث في أوتيل «ألكسندر» لأن ديفيد كيمحي قد أعدّ الترتيبات الضرورية ليقابلني مصدر مهم هنا ـ ولكن سمعت نفسي أقول:

«لست هنا لأرى الصحافيين».

□ «ولست هنا لرؤية عرفات أيضاً» هدر قائلاً.

حدّقنا ببعضنا البعض للحظات، ثم هزّ كتفيه لامبالياً، وقال: «لا أستطيع مساعدتك إذا كنت أجهل ماذا تفعلين».

كان ما يقوله صحيحاً، والصحيح أيضاً بأنني كنت لا أريد أن أبوح له بشيء. جزء من ترددي كان بسبب طبيعتي المتكتمة، وجزء منه لم يكن بسبب ذلك. نعم، لقد جاءني تولين بتأشيرة الدخول ولكن برغم هذا لم أشعر به كشخص أستطيع إخباره قصة حياتي.

ومن ناحية أخرى، فإن جيرالدو سيأتي بعد أسبوع، وكنت بحاجة إلى كل مساعدة، فتحت دفتري الصغير على صفحة قائمة الأسماء التي أعطاني إياها كيمحي، وناولته لتولين «ماذا تستطيع القول عن هؤلاء الأشخاص».

تصفّح تولين القائمة، ثم رفع وجهه إليّ بفزع «الكتائب» قال مشككاً.

هذا، طبعاً، كان منذ تسع سنوات، يعني الأبدية بمقياس الشرق الأوسط. في ذلك الوقت، كان الكتائب المسيحيون شيئاً لا يمسّ، وكانت الصحافة الغربية تنظر إليهم وتشبههم بجنود العاصفة الفاشية يقاتلون لأجل الاحتفاظ بمواقع الامتياز على الكتل المسلمة. وإذا رجعنا إلى الوراء، إلى تاريخ الكتائب نرى أن هذا الشبه نشأ منذ بدايتهم: كانت المنظمة الوطنية التي أسّسها بيار الجميل في أواخر الثلاثينيات، بعد زيارة له إلى ميونيخ لحضور دورة الألعاب الأولمبية هناك عام ١٩٣٦، تشبه ظاهرياً فئات الفاشية الشابة، من حيث تشديدها على التدريب العسكري، والمعرفة السياسية والرياضية، وقد دعّم هذا الشبه، اللباس العسكري للكتائب، وتحيتهم العسكرية المميزة بمدّ الذراع على نحو مستقيم.

لكن ثبت الاختلاف، في الأربعينيات، عندما أخذ الكتائب على عاتقهم حماية جماعة اليهود الضعيفة في لبنان، الذين كانوا يرونهم أقلية مثلهم، مع فرق واحد وهو أنهم أضعف وبحاجة أكثر للحماية .وفي عام ١٩٦٧ عندما اندلعت حرب الستة أيام، طوّقت الكتائب الحي اليهودي في بيروت لحماية السكان.

وبرغم هذه التصرفات ظل وصف الفاشية يلاحق الكتائب. ومع أن الصحافة تحبّذ الإدعاء بأن هذا محايد، فإن معظم الصحافيين يتعاطفون مع ما يطمح إليه العالم الثالث من الاستقلال القومي، وفي حالة لبنان فإنهم كانوا ينظرون إليه وكأنه يخص الشعب الفلسطيني الذي لا وطن له. هذا الانحياز لوّن الملاحظات الأولى والتقارير عن

الحرب الأهلية في لبنان. ومنذ ذلك الوقت، بدّل المسلمون المتزمتون عبر عقد من النضال العسكري وخطف الرهائن تحالفاتنا وكذلك ملاحظاتنا بما يشبه الـ ١٨٠ درجة.

«في إسرائيل» قلت، «أخبرتني مصادر من المخابرات عن المجازر التي حصلت للمسيحيين، رجالاً ونساءً وأطفالاً في الدامور وجبال الشوف، كانوا متأكدين منها، إلا أنني لم أسمع بهذه القصة مذاعة في الأخبار الأميركية».

«لقد تحدثنا عن المسيحيين»، قال تولين مدافعاً «فقد قاموا بمجزرة في تل الزعتر، مثلاً، وقدمنا تقريراً عنها».

□ «ولكن هل قدمت تقريراً عن مذبحة المسيحيين؟».

- «لم أرَ أي دليل».

□ «وهل بحثت عنه؟».

نظر إليّ تولين بغضب. وفي تلك اللحظة بالذات وصلنا إلى مخرج المطار حيث انتشر خمسة جنود على حاجز في الطريق يدل على أنهم سوريون. وبخلاف الجيش اللبناني في المطار، كان هؤلاء الجنود يحملون بنادقهم على أهبة الاستعداد. وخلف الحاجز صف مرعب من الدبابات، وناقلات مدرّعة للجنود، وأسلحة أوتوماتيكية.

اقترب جندي شاب ناحية تولين وقال بالإنكليزية: «جوازات السفر»، ناوله تولين جوازي وجوازه. فأخذهما الجندي إلى رجل بلباس مدني .«رجل مخابرات» قال تولين متمتماً وأخذ هذا الأخير يدقق النظر في الجوازين قبل إرجاعهما. تحدّث الجندي إلى السائق بالعربية، ثم ما لبث أن نزل ليفتح صندوق السيارة. وأخيراً سُمح لنا بالمرور.

□ «هل يفعلون ذلك مع المواطنين؟».

- «طبعاً» قال تولين وضحك بازدراء، «ليس عند اللبنانيين ما يقولونه هنا».

قال لي الأشخاص الذين عرفوا لبنان، إن بيروت القابعة بين

المتوسط والجبل، كانت مدينة جميلة قبل بدء الحرب. بقيت معالم قليلة من ذلك الجمال، في القطاع المسلم. وعند مرورنا بعشرات العمارات التي ثقبت من جراء القذائف والقنابل، كان تولين يشير إلى مواقع الكارثة وكأنه مرشد سياحي.

كان الجنود السوريون، وجنود منظمة التحرير الفلسطينية يتمشون عمداً في الشوارع التي كانت شبه خالية من المواطنين، والأطفال في الخارج يلعبون «الغميضة» وسط أكوام من العارضات المعدنية المتساقطة.

وقفنا مرتين عند حاجزين خلال الاثنتين والعشرين دقيقة قيادة إلى فندق «ألكسندر». أحد هذين الحاجزين كان مبنياً من الأحجار الرمادية الثابتة ويخص السوريين. والثاني، مبنياً من أكياس الرمل ويخص جنود منظمة التحرير. كنت أشعر بضيق في كل مرة كنا نقف فيها ولا علاقة للخوف بالموضوع، ابتسمت للجنود وردّوا عليّ بالمثل. كنا نعبر ما يسمى بالخط الأخضر الذي يقسّم بيروت الغربية المسلمة عن بيروت الشرقية المسيحية وبدت لي بيروت الشرقية مدينة مختلفة. لم يكن هناك أية علامة للوجود العسكري الذي كان يطغى في بيروت الغربية. الشوارع هنا تضج بالعائلات المتجوّلة.

اندفعت سيارتنا نحو الممر الدائري لفندق «ألكسندر» الذي بدا وكأنه مرّ بأيام أفضل. خرجنا أنا وتولين من السيارة وذهبنا معاً لتناول كأس في البار. وبينما كان تولين على أهبة الرحيل جاء إلى البار رجل مميز بشعر قاتم اللون وقامة طويلة وعينين خضراوين مروعتين. حيّا الرجل تولين ونظر إليّ من ورائه وحتى قبل أن يقدّمنا تولين، علمت أنه مرسل من ديفيد كيمحي.

«بيار يزبك. . بربارا نيومان» قال تولين، فرمقني الرجل بنظرة عارفة مؤذية. «بيار هو صلة الوصل بين بشير الجميل والصحافة».

«أهلاً بك في بيروت» قال يزبك، وصافحني بقوة. «فكرت أن

نتكلم أثناء العشاء، ولكن إذا كنت تريدين استعادة نشاطك أولاً . . ».

وفهمت ما يلمح إليه. عندما نزلت من غرفتي، كان تولين قد ذهب، ويزبك في انتظاري في الردهة، وقام لتحيتي. تناولنا العشاء في مطعم فرنسي رائع، جدرانه بيضاء، تطل نوافذه المصنوعة من الزجاج المزخرف، على أشجار مضيئة تتحدى الظلام في صف طويل. كان الندّال يحومون حولنا، ويقدمون لنا ويقترحون علينا مختلف أنواع الطعام، كنا الزبونين الوحيدين تلك الليلة.

كان بيار شخصاً منفتحاً غير متعصّب لقوميته، أناقته في غاية الكمال، يتصرّف على طريقة الأوروبيين مع احتفاظه بطبيعته الشرق أوسطية، وكانت صفاته هذه مغايرة تماماً لأسلوب الإسرائيليين. وكان يبدو لي أنه أقرب إلى مساعد ديفيد روكفلر منه إلى معاون قائد عسكري. تكلمنا عن الوضع في لبنان، وطلبت من يزبك إعطائي خلاصة عن الأشخاص في قائمة كيمحي التي كنت قد حفظتها عن ظهر قلب. وعندما وصل إلى اسم بشير الجميل، توقعت مؤيداً محباً ولكن يزبك قال دون أن تتغير نبرته: «بشير هو قائد القوات اللبنانية، وهي تشمل كل الميليشيات المسيحية التي تحارب جيوش سوريا، ومنظمة التحرير الموجودة في بلادنا، هو الذي وحّد الأحزاب المسيحية لا أدري إذا كنت تدركين كم هذا مثير للدهشة في بلد مثل لبنان».

□ «وكيف وحّدهم؟» سألته

- بالتصور الذي وضعه عن لبنان الجديد قال يزبك: «أمة خالية من العنف الطائفي، والفساد الذي يسمم حياتنا الآن».

□ وأيضاً بقتل منافسيه، قلت له. كان كيمحي قد حدثني عن عملية بشير الجميل التوحيدية في ٧ تموز ١٩٨٠ حيث شنت قوات الجميل هجوماً مفاجئاً على أكبر منافس للكتائب، «النمور»، وهي ميليشيا يرئسها داني شمعون وكانت ضربة مميتة. فقد قُتل ثمانون رجلاً، ونجحوا في تشتيت المجموعة، بعد هذا انضمت اثنتان من

الميليشيات المسيحية الصغيرة إلى الجبهة الموحّدة للقوات اللبنانية التابعة لبشير، والكثير أيضاً من رجال شمعون.

- نظر يزبك إليّ نظرة حادة «بشير هو الرجل الوحيد الذي أعرف أن باستطاعته توحيد المسيحيين وقد فعل ما هو ضروري ليحقق ذلك، ودون أن نتوحّد ليس لدينا أية فرصة للبقاء. إنه رجل استثنائي، وصعب أيضاً، على نحو استثنائي. «هل تعلمين أنه يبلغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة فقط، وهو الأصغر في عائلته».

بالتأكيد إنني بدوت شاحبة ومرتبكة، أخذ يزبك يتكلم بالتفصيل، «عليك أن تفهمي أنه في تقاليدنا، هناك ما يُعرف بحق البكورة السياسية، فالابن الأكبر يرث الزعامة دائماً. لذلك فإن شقيق بشير، أمين، كان ليخلف والده كزعيم للمسيحيين. ولكن بشير اغتصب هذا الحق منه، ليس بالقوة إنما بشخصيته المهيمنة». تردد قليلاً ثم دنا مني وقال بصوت منخفض: «أظنك تعلمين عن ابنته».

□ فقط أنها مات، قلت له. «لقد أخبرني ديفيد كيمحي بذلك».

- «في العام الماضي» تابع قائلاً: «وفي صباح باكر من يوم أحد أخذ ثلاثة من حرس بشير الخاص ابنته، مايا، ، لإيصالها إلى بيت جدتها. فانفجرت السيارة ومات الأربعة، كان عمر الطفلة آنذاك ثمانية عشر شهراً فقط».

فكّرت بابنتي، هي الآن بأمان مع والدها ولكن أظنها مشتاقة إليّ، لم يعرض عملي «بيني» للخطر، ولكن كان يحرمها مني. الكبار يفعلون ما يجب عليهم فعله، ويعاني الأطفال من النتائج.

□ وسألت: من فعل ذلك؟

- «لا نعلم بالضبط من» قال يزبك متجهماً «ربما منظمة التحرير أو ربما أعداء بشير من المسيحيين».

□ وماذا فعل الجميل؟ سألته وأنا أعني ما كانت ردة فعله، فمنطقة

الشرق الأوسط، شهيرة بشعار العين بالعين.

- «ظهر في التلفزيون تلك الليلة ودعا إلى التزام الهدوء وقال لأنصاره إنه لن يحتمل أية عمليات انتقامية. ثم بعث حرسه الخاص ليرافق بعض السجناء الفلسطينيين المحتجزين لدينا إلى مأوى أمين. فعل هذا ليقيهم من الإعدام من غير محاكمة قانونية».

□ وماذا بعد ذلك؟

- «دفن ابنته ثم تابع مهمته».

أنزلت قلمي ودفتري على المائدة ونظرت إلى يزبك، وأنا أفكر أنه عليّ القضاء على هذه التفاهة في المهد «اسمع يا بيار» قلت له بحزم «لي ابنة أيضاً».

- أعلم.

□ «وإذا حصل أن أذاها أحد. . »- لم أستطع حتى القول قتلها - «ابنتي هل تعلم ماذا كنت سأفعل؟

- «تسعين للانتقام. كما يفعل كل شخص عادي، ولكن بشير ليس عادياً».

□ ما هو إذن؟

وللمرة الأولى بدا يزبك وكأنه لا يعرف ما يقول. ومدّ يديه وبعد لحظة قال «السياسيون كلهم يتكلمون عن تفضيل الوطن على الذات. بشير هو الرجل الوحيد الذي أعرفه عاش كذلك».

□ ألا يهتم بعائلته؟

- «كان يعبد تلك الطفلة» رد وهو يكاد يصرخ.

ورأيت النّدال يتهامسون. ثم تابع يزبك بهدوء أكثر «بشير رجل عاطفي، مايا كانت تعني له كل شيء، أؤكد لك، لن تحبي ابنتك كما أحب هو ابنته».

كانت يداه ترتجفان. ولاحظ ذلك فوضعهما في حجره. احكمي بنفسك، قال.

□ «هل سيراني» سألت.

ـ أشعل يزبك سيجارة، وكأن ذلك كان بمثابة إشارة للندّال إذ سرعان ما جاؤوا لرفع الأطباق عن الطاولة. «بشير كان يتوقع قدومك»، قال لي وهو يأخذ نفساً عميقاً. «سيراك غداً».

كان الوقت منتصف الليل، عندما رجعت إلى غرفتي، أي الخامسة مساء حسب توقيت واشنطن، حتماً ستكون «بيني» قد عادت من مدرستها.

واتصلت بها في منزل والدها، كانت «بيني» غاضبة مني وغير مهتمة، ولهجتها جافة. وكأنني كنت أتصل بها من مكان قريب وأصرّت على أن لا تسألني عن موعد رجوعي إلى الوطن.

□ «أحبك» قلت لها.

ـ «عليّ أن أذهب الآن يا أمي»، ردت قائلة.

آلمني هذا. وباشرت بما أقوم به دائماً عندما أتألم من شيء ما: غرقت في العمل، قررت أن أراجع المذكرات، وقصاصاتي عن بشير الجميل، استعداداً للقائه.

كان رجلاً متناقضاً على الورق: محام يرئس جيشاً، سليل أسرة أرستقراطية لها نفوذ قوي، يعتنق برنامجاً وطنياً بغية الإصلاح الديموقراطي. وقرأت ملخصاً عنه يقول، إن الجميل أمضى بضعة أشهر في الولايات المتحدة عام ١٩٧٢ وهو يحضر دورة تخرجية في القانون الدولي في هيوستون، حيث كان لعائلته صلات قوية هناك وبأنه عمل لفترة قصيرة في مؤسسة قانونية في واشنطن.

رجل كان يعد نفسه آنذاك لمركز مرموق في امبراطورية العائلة، التي اتفقت أن تكون لبنان، إلا أنه لم يكن يسعى لمركز رئيسي. كان

لبشير أخ أكبر، هو أمين، اختاره أبوه ليكون خلفه التقليدي الذي كان في ذلك الحين نائباً في البرلمان، ومدعوماً دعماً قوياً من المسيحيين في منطقة جبال المتن.

كان من المتوقع أن يعود بشير من الولايات المتحدة خلال سنوات قليلة، مستعداً ليتخذ مركزه في النخبة المارونية. ولكن هذا التخطيط لم ينجح. فمؤسسة واشنطن المتخصصة في القانون المشترك، حقل مضجر للغاية بالنسبة لبشير، كان قلقاً، وشده الحنين إلى الوطن. كان يتوق للعودة إلى ما كان يعتبره مركز العالم. ثم ما لبث أن أعد بشير حقائبه، وأقفل عائداً إلى بيروت.

أبوه، الشيخ بيار، استاء من هذا الأمر سراً، ولكنه شجعه علانية. واستمر بشير يزاول القانون والمحاماة مدفوعاً بإحساس الواجب في مكتب في شارع الحمراء، وعاد أيضاً إلى حبه الأول ـ السياسة ـ وأخذ مركز رئيس مندوبي فرع الأشرفية لحزب أبيه، الكتائب. وخلال أشهر من عودته، بدأ بالاجتماع بفئة شابة من المنشقين المسيحيين الذين كانوا يعارضون بمرارة، الوجود السوري في لبنان. كان بشير يجادل علناً في كل ساحة عامة ومنصة، فبرغم أن السوريين دخلوا لبنان بدعوة منه، إلاّ أنهم لن يرحلوا بهذه السهولة ولكن يجب أن يطردوا بأسرع ما يمكن قبل أن يترسخوا أكثر. إن التأجيل كما قال، سيجعل السوريين أمراً واقعاً مما سيؤدي إلى تصلبهم أكثر فأكثر.

لم يكن السوريون العقبة الأولى التي كانت تواجه المنشقين، ولكن الزعماء الموارنة أنفسهم. والشيخ بيار الجميل من ضمنهم كانوا قد رحبوا بالجيش السوري لمواجهة الفلسطينيين، وكان النزاع الأساسي بين الأب والابن هو أن الرجل العجوز كان يرغب في تحمل المعاملة المهينة من سوريا من أجل استتباب الأمن، وكان بشير يجادل بأن سوريا هي سبب انعدام الاستقرار في لبنان وبأنها ستشكل ائتلافاً ضد أي حزب تشعر أن نفوذه أصبح قوياً. وكان الأب والإبن يتعارضان في

الرأي بشدة بشأن اتفاق القاهرة عام ١٩٦٩. هذا الاتفاق، الذي صوّت له بيار الجميل في البرلمان، كان يعطي منظمة التحرير الفلسطينية الحق بمهاجمة إسرائيل من الحدود الجنوبية اللبنانية. فهذا الاتفاق كما اعتبره بشير انتهك وحدة الأراضي الوطنية اللبنانية، ويدعو أيضاً، إلى تقسيم لبنان، وإلى انتقام إسرائيل من اللبنانيين. وكان بشير الجميل حينذاك، شاباً ثورياً متطرفاً، وفي مقابلة قرأتها علمت أنه عندما كان بشير طفلاً، أُعجب بدور أبيه القيادي في طرد الفرنسيين من لبنان. ولم يكن عنده أي أمل في أن يحصل على هذه الفرصة لامتحان قدرته. واللافت للنظر أنه حين حانت الفرصة لبشير أخيراً، أراد أن يتغلب على أبيه فاستولى بشير على بنية القوة المارونية ومؤسسة الكتائب عبر دفع عصابته الصغيرة لمضايقة السوريين. والسوريون، كما سبق وقال لي الإسرائيليون ،يكرهون بشير.

لم يصدق الشيخ بيار الجميل في بادىء الأمر التقارير التي كانت تصله عن نشاطات بشير وقد كان بشير تلميذاً، كانت أخبار أعماله الجريئة تصل إلى العائلة مخففة. كانت سمعة الولد كمهيج سياسي تجذب اللوم أكثر من اللازم، ولكن لم يستبعد بيار الجميل الأمر. فبالنسبة لبشير ليس هناك ما يسمى بالمستحيل. وسأل الأب ابنه إذا كان هو المسؤول عن المضايقات التي تحصل لضيوفهم السوريين.

واعترف بشير بذلك على الفور.

استولى الغضب على بيار، وأمر بشير بالكف عن القيام بهذه الأعمال. ومنذ ذلك الحين صدر حكم على بشير يقضي بأن يهتم بالأمور القانونية وترك السياسة لمن هم أكبر منه وأفضل، وبالأخص لأخيه الأكبر أمين. ورفض بشير ذلك. «اندفاعك وتهورك الطفولي سيقودنا إلى الدمار» قال له الشيخ بيار غاضباً وهدد بطرد بشير ورفاقه من الحزب الكتائبي ولكن الشيخ بيار كان يعرف أن ابنه عنيد للغاية منذ ولادته.

وعندما رأى أنه لن يستطيع تحريك بشير توقف عن مواجهته.

في عام ١٩٧٥ اندلعت الخلافات والنزاعات التي كانت تغلي على نار خفيفة، بين اللبنانيين ـ المسيحيين ـ والمسلمين، والفلسطينيين إلى حرب أهلية.

الضحية الأولى للقتال كان الجيش اللبناني، الذي تمزق إرباً بسبب الولاء الطائفي. ومع بقاء المسيحيين من غير حماية إلا بميليشياتهم، تخلى بشير الجميل عن القانون وحمل السلاح مع الكتائب.

كان عندي قصاصات لمعلومات أكثر عن بشير ولكن غلبني النعاس. فأغمضت عيني كي أستريح لحظة لأستيقظ بعد ساعات على رنين الهاتف.

□ وجاءني صوت سين تولين متحمساً عبر الخط: «يجب أن أراك»؟

ـ «ماذا حصل؟» ونظرت إلى ساعتي، إنها الثانية والنصف.

□ «لا أستطيع إخبارك على الهاتف».

ـ «أين أنت؟».

□ «في الكومودور إنه أمر مهم للغاية سأعبر إلى بيروت الشرقية. وأكون عندك بعد نصف ساعة».

ـ «أنا في انتظارك». قلت ولكن كان قد أقفل الخط.

عدت إلى النوم. وارتديت معطفي عندما سمعت دقته على الباب. دخل تولين وأقفل باب الغرفة خلفه بحذر. كان مظهره غريباً غير مرتب، وثملاً قليلاً، مع أنني لم أشم أية رائحة تدل على ذلك.

ـ «ما الأمر؟» سألته. «هل استطعت تدبر أمر مقابلة عرفات؟»

□ وضحك قائلاً: «ليس هناك أي مجال لن يقتربوا منك أبداً، ولن أورّط نفسي بهذا الموضوع أيضاً».

ـ خاب أملي، ولكن لم أتفاجأ. قد يكون عرفات مصدراً مهماً، ولكن لم نكن بحاجة له، فمقابلات جيرالدو مع سجناء منظمة التحرير

أعطتنا ما يكفي من المعلومات. «إذاً ما هو الأمر المهم»؟ سألت تولين.

جلس على السرير ودعاني للجلوس إلى جانبه. لكني بقيت حيث أنا.

لدي خليط رائع، قال «هل تريدين شيئاً منه؟» ظننت أنني أحلم. هذا المجنون يعرض عليّ الحشيش في الثانية والنصف صباحاً. «لا أدخن» قلت له.

«عندما كنت في روما..» قال متملقاً. «ألا تريدين التذوّق»؟

□ «هل قطعت كل هذه المسافة لهذا فقط؟ بكم حاجز مررت؟»

- «اثنان فقط» قال بتواضع: «عليك أن تعرفي الطرق الخلفية، إذا كنت لا تحبذين الحشيش، نستطيع أن نفعل شيئاً آخر».

- «مثل؟»

وابتسم ابتسامة عريضة وقال: «لاحظت جزمتك الجلدية السوداء. ولكن ليس هذا ما يهمني، أحب أن أغرز إبراً فيك».

□ «إبر»، رددت بعده، متسلية أكثر مني غاضبة، «أين؟».

- «على صدرك، ولكن بحب. أستطيع ربطك إلى السرير».

□ «أخرج، أخرج» صرخت عالياً. ثم شديته من على السرير ودفعته خارج الباب.

لم أر تولين أبداً بعد ذلك اليوم وبعد فترة قصيرة من كتابة «الحرب غير المقدسة»، قصتنا في الـ«٢٠/٢٠» عن الإرهاب، التي أذيعت في نيسان/ أبريل عام ١٩٨١، قتل تولين رمياً بالرصاص في بيروت الغربية. ولم يتم القبض على قاتليه أبداً. وصدم العاملون في الـABC، وظن بعضهم أن تولين قتل بسبب القصة.

طلبت الإدارة رؤيتي. حاول جورج واتسون، وهو الآن رئيس مكتب الـABC، في واشنطن، أن يجعل المقابلة غير رسمية، وكان شعوري بالانزعاج وأنا جالسة في مكتبه، أكثر مما كنت عليه وأنا أواجه

الحواجز السورية. «ماذا تستطيعين القول لنا عن ذلك؟» سأل واتسون.

«لا شيء» قلت. «لم يكن بيننا ما يذكر».

□ «ألم يساعدك في قصتك؟»

- «أخذني من المطار إلى الفندق».

□ «هل تظني أنه قتل جزاءً؟»

لم أكن أريد تصديق ذلك. «كان للتولين بعض المشاكل الشخصية» قلت له «قد تكون هذه جريمة خاصة».

□ «أية مشاكل شخصية؟» قال متسائلاً.

أخبرته عن تعاطي تولين المخدرات والحشيش. وكيف أراد أن يشك في صدري الإبر. لم يحرك واتسون ساكناً أو ينبس ببنت شفة. لم يظهر على وجهه ما يدل على أنه تفاجأ أو أنه لم يصدق ما أقوله. وبدا لي وكأني أقول له أن تولين كان رئيس كشافة.

لا أحبذ التفكير بأن تولين قُتل بسبب قصتي. من المحتمل أننا لن نكتشف السر. ولكن أظن أن هناك أمراً نستطيع أن نكون متأكدين منه وهو أن تولين مات بسبب لبنان.



بيار يزبك وديفيد كيمحي يتبادلان الأنخاب

- ٣ -

لقائي الأول ببشير

من حسن الحظ أن العمل الذي أقوم به كان يتلاءم بشكل دقيق مع مزاجي. فعملي كمحققة صحافية ومخرجة تلفزيونية كان يمنحني صداقات عابرة، وهذا أفضل نوع من العلاقات بالنسبة لي. وعند ابتدائي بقصة ما ارتبط بها وبمجموعة من الأشخاص لأسابيع أو حتى لشهور. وعندما أنتهي من كتابتها أرحل تاركة خلفي كل شيء كأن شيئاً لم يكن.

وبعد كل قصة مرهقة أستريح لفترة أقضيها مع ابنتي «بيني». ثم أغوص من جديد في المشروع الذي يلي.

لقد ربّاني أبي على هذه الطريقة، علمني بأن العمل هو السعادة بعينها، وجعلني أستوعب هذه اللازمة: أي شيء يدخل بيني وبين عملي سيّىء، وخصوصاً الحب. ترعرعت في (ريفير دايل) في نيويورك في ظروف مريحة. كان والدي لاجئاً يهودياً، من سلالة مفكرين من Vilna. ودخل كلية الحقوق ليصبح محاميا لامعاً في نيويورك. أما أمي فهي تنحدر من سلالة روسية أكثر بساطة. كان والدي رجلاً معطاء ومحباً لنا. لكنه كان يعطي كل وقته تقريباً، وطاقته وانتباهه لعمله لذلك لم يكن لديه سوى القليل من الوقت يوفره لي ولأختي.

وعندما نأخذ إجازتنا كنا نمضي بعض الوقت معاً. إذ كان يحب أن يمتعنا بالروايات التاريخية، وخصوصاً تلك التي تتكلم عن الشجاعة.

والقصة المفضلة لدي، كانت ليونيداس وثرموبيلي، التي تروي قصة الملك الإسبرطي، الذي تحدى القبائل الفارسية من أيام احشويرش مختاراً الموت بشرف على حياة العبودية.

ليس فقط أنني كبرت ولديَّ تصميم على أن أظهر شجاعتي لوالدي وللعالم، ولكن كنت مبرمجة أيضاً للتجاوب مع تلك الخاصية في الرجال. وأظن، أن والدي، بطريقة ما، أعدني لبشير الجميل.

عاد بيار يزبك في الصباح التالي ليأخذني إلى بشير ولم أنم بما فيه الكفاية منذ ذلك الفصل مع تولين. كنت مصابة بصداع فظيع حتى أنني رديت بفظاظة على تحية يزبك المرحة.

كان يوم أحد مشرقاً، الرؤية فيه حسنة، ولا أثر نهائياً لجلبة حركة المرور، سرنا في شوارع ضيقة مهجورة بدت عمارة آل الجميل من بعيد، عادية ولكن عندما اقتربنا أكثر رأيت أنها أشبه بحصن، فعشرات الجنود المسلحين يحملون البنادق على أكتافهم والرشاشات بأيديهم، يقفون على أهبة الاستعداد خلف أكوام من أكياس الرمل يبلغ علوها ثمانية أقدام. جَعَلنا الجنودُ ننتظر في الخارج، ونحن نرتعش من البرد، بينما أخذ ضابط يدقق النظر في بطاقتي الشخصية ووجهي. أخيراً، أومأ برأسه إلى يزبك، وسمح لنا بالدخول. كانت العمارة من الداخل مظلمة وقذرة. وكان هناك رواق صغير يقود إلى مصعد عتيق له باب حديدي. وصعدنا إلى الطابق الأعلى.

فتحت لنا الباب امرأة جميلة، عمرها يناهز الثلاثين. قدّمني بيار إلى زوجة بشير، صولانج الجميل.

«تفضلي إلى الداخل، باربرا». قالت لي بإنكليزية مرحة. «أرجوك اجلسي، سأنادي بشير على الفور».

وما إن خرجت حتى تمعنت في أرجاء الغرفة. في أحد طرفي غرفة الجلوس كان هناك خزانة للكتب، في الطرف الآخر شرفة تكسوها الثغرات والفتحات التي تسببها الرصاص. كان الحائط مليئاً بلوحات غير

مميزة، والأثاث كان بسيطاً وعصرياً. والشيء الوحيد الذي كان يمتاز بالفخامة هو طبق موضوع على طاولة الصالون مليء بعلب السجائر الأميركية.

ورغم أن الشقة كانت مريحة ولطيفة بما يكفي، إلّا أنها لم تكن قريبة ولو إلى حد بعيد من الصورة التي رسمتها في مخيلتي عن بيت شيخ عربي. وكما سأعلم فيما بعد، فإن مسكن بشير الجميل، كان متواضعاً وهذا إثبات يدل على مزاجه السياسي. كنت أدقق النظر في رسم فوتوغرافي محاط بإطار فضي لفتاة صغيرة ذات عينين ضحوكتين ونظرة متهورة، وعندما فتح الباب من خلفي استدرت لأرى من الآتي.

فإذا ببشير الجميل يمشي في الغرفة، حافي القدمين، يتساقط الماء منه، ويرتدي ثوب الحمام. مشى نحوي بخطى واسعة قائلاً: «آسف لأنني جعلتك تنتظرين». وهو ينظر مباشرة في عيني «لم أنم طوال الليل».

«بشير»، تمتم يزبك وبدا مغتاظاً بعض الشيء.

لقد سبق لي وأن رأيت صوراً كثيرة. ولكن ما من واحدة قد هيأتني لما أراه الآن. لقد كان بشير الجميل، بكل بساطة، رجلاً وسيماً. متوسط الطول، وشعره أسود فاحم. وكان يشكل فمه خطاً ثابتاً ومتوازياً. وكانت عيناه مهيمنتين على وجهه، ولافتتين للنظر ودافئتين وضحوكتين، فيهما لمحة تحد. أحسست بالإلفة وأنا أنظر إليهما. لم تكن عيناه غريبتين عني. كنت أعلم أن بشير يبلغ من العمر اثنين وثلاثين سنة، وأنه يصغرني بأربع سنوات، ولكنه كان يبدو أصغر من ذلك.

صافحته وتمتمت ببضع كلمات لم أعد أذكر ما هي. وأخذ بشير بيدي وقادني إلى الأريكة. أوحت لمسته بشيء من الحياء، ولكن في الوقت نفسه، كان سلوكه سلوك الواثق من نفسه إلى حد بعيد.

رحت أفكر وأنا أجفف يدي خلسة بواسطة ثوبي أنه لا يمكن أن يكون هذا الرجل سيئاً كما يقال عنه. وحاولت أن أتخيّل سياسياً

أميركياً، قد ظهر في مقابلة وهو يقف عارياً والماء يتساقط منه، جيمي كارتر، مثلاً، رونالد ريغان، ليندون جونسون، الآن، على الأقل كان هذا محتملاً.

«سأعود حالاً»، قال الجميل. ورجع بعد لحظات. ثم قدّمت لنا الخادمة القهوة وانسحبت. جلس الجميل على مقعد كبير وبدأ يحدثني وكأننا نعرف بعضنا منذ سنوات، لم تكن هناك أية حواجز أو حدود بيننا. وفي حديثه لم يكن بشير عدوانياً بل صريحاً وواضحاً.

□ «ماذا تريدين أن تفعلي هنا؟» سألني.

ـ «أريد اكتشاف ما يحصل هنا مع منظمة التحرير الفلسطينية، أريد إثبات الاتصالات هذا إذا كان هناك أية اتصالات، بين منظمة التحرير والمجموعات الإرهابية الأخرى، وأريد أن أعرف أيضاً عنك من أنت؟ وماذا تمثل؟»

أومأ الجميّل برأسه وقال بخفة: «لقد فعلت عين الصواب بمجيئك إلى هنا. إننا نحارب منظمة التحرير منذ ١٢ سنة. ونحن على علم بهم أكثر من غيرنا، حتى أكثر من الإسرائيليين. إن المنظمة لا تأبه بمن تدمر لكي تحقق هدفها. جاء الفلسطينيون إلى هنا وأسسوا دولتهم على أرضنا، بل يقسمون أنهم لن يغادروا لبنان إلا زحفاً نحو القدس».

□ «نحن نعلم» قال لي، وكان واضحاً أنه يقصد كلينا، «أن هذا لن يحصل أبداً». إننا لا نحارب منظمة التحرير والسوريين فحسب، بل أيضاً الجيش الأحمر الياباني، وبادر ماينهوف، ومنظمة «الألوية الحمر» الإيطالية. وهؤلاء كلهم تدرّبوا في مخيمات منظمة التحرير في لبنان. وفي كل مرة تحصل أعمال وحشية ويكتشف الغرب قائداً إرهابياً جديداً، نضحك ونقول كنا نعرفه».

ـ «متى بدأ القتال؟» سألت.

□ «بدأ «السحق» منذ اثنتي عشرة سنة، عند مجيء منظمة التحرير الفلسطينية، أما القتال فقد بدأ منذ خمس سنوات، عندما أدركنا نحن

المسيحيين، أخيراً، أننا خسرنا سيادة بلدنا. حكومتنا ومؤسساتنا هي بمثابة قشور فارغة. لا أحد يأخذ المسؤولية على عاتقه. قادتنا ليسوا رجال دولة بل جنرالات إقطاعيين. لقد نمنا في بلد متحضّر لنستيقظ ونجد أنفسنا في أدغال».

ـ «الأدغال لا تنبت خلال ليلة وضحاها». قلت له.

«إنها فيروسات». قال الجميل، «تنتشر بسرعة وتشل المرء خلال ساعات فقط. الفلسطينيون يحملون هذه الفيروسات: أينما ذهبوا يجلبون معهم العنف والموت. لقد شلّوا لبنان ولكننا لم نمت. فنحن نصدّهم».

ـ «العين بالعين؟».

□ «كلا، هذه ليست طريقتي. إننا نحارب الفوضى بالنظام، والدمار بالبناء. إن القوات اللبنانية ليست مجرد ميليشيا فحسب لقد أصبحنا القوة الحامية لدولة بلا قائد. أنشأنا بنى لسد هذا الفراغ: مستشفيات، محاكم، دور أيتام، مراكز للشباب، برامج للمسنين، محطات إذاعية، هل تعلمين أن القوات اللبنانية تدير إذاعة للموسيقى الكلاسيكية؟ وهذا لأن لدينا تصوراً عن مستقبل لبنان. سوف نربح هذه الحرب، وندفع السوريين والفلسطينيين، خارج بلدنا، وحينها فقط سيبدأ العمل الحقيقي، لمهمة إعادة بناء لبنان».

ـ «بأي شكل؟»، سألت، وأنا أفكر بأن بشير محق في قوله هذا فهو الرجل الوحيد الذي يملك تصوّراً للبنان مستقل وسيد.

□ «ديموقراطية برلمانية»، قال مشدداً. هذه الأرض ليست للمسيحيين. إن الصحافة الغربية تصوّرنا وكأننا الطبقة النخبة في المجتمع نتشبث بامتيازاتنا. هذا تصوّر خاطىء بالكامل. نحن نمقت حكم النخبة، إننا لا نحارب للسيطرة على وطننا، وليس لاحتكار القوة. بل لاستعادة الكرامة، والحرية، والديموقراطية لكل أبناء الشعب. ومن الآن فصاعداً، لن يكون هناك «تدابير خاصة». لقد

أخذ لبنان ما يكفي من ذلك العدل. أخذنا عهداً على أنفسنا بأن نخلق دولة يتعايش فيها الدروز، والشيعة، والسنّة، والمسيحيون، معاً تعايشاً سلمياً».

الحرية والديموقراطية، والتعايش السلمي، سمعت هذه الكلمات تتردد مرات عديدة في أفواه السياسيين. ولكن لم توح عينا بشير بالخداع.

قام بشير من مقعده ومشى ذهاباً وإياباً. ثم توقف في وسط الغرفة يواجهني، قائلاً: «عندما التقينا اعتذرت من كوني تأخرت، ولكن في الحقيقة، أنتِ التي تأخرت، ولسنوات عديدة».

كنت أعلم أنه يعني بهذا الأميركيين، ولكنني شعرت وكأنه يخاطبني أنا شخصياً. وكان ينتظر جواباً مني.

«نحن هنا الآن»، قلت له.

لمعت عيناه. «الآن»، قال، «الآن بعد أن سقط مائة ألف، رجل وامرأة وطفل من شعب يتألف من ثلاثة ملايين نسمة ونصف. هل تعلمين ماذا يوازي هذا العدد في أميركا، حوالى ٦٥٠ ألفاً».

لم أستطع تصديق ذلك لقد تكلّم الإسرائيليون عن سقوط العديد من المدنيين في لبنان، ولكنهم لم يوضحوا عددهم. هل يمكن أن يموت كل هؤلاء الناس دون أن يعلم بهم أحد.

قرأ بشير الشك في عيني.

□ «لا علم لديك بهذا؟» قال.

ـ «كلا»، قلت بهدوء، «لم تذكر هذه الأعداد في صحافتنا».

□ «ولماذا»؟ قال بتحد. ثم جاوب نفسه قائلاً: «الأميركيون اختاروا ألا يعرفوا. بينما نحن نحارب الإرهاب العالمي. وبأي ثمن».

ثم أشار إلى بدلته السوداء قائلاً: «بعد هذه المقابلة سوف أذهب لحضور مراسم ذكرى أصدقائي الثلاثة الذين ماتوا في السيارة مع ابنتي.

وآجلاً، في هذا الأسبوع ستقام مراسم ذكرى مايا. لسنا الوحيدين، ما من عائلة في لبنان لم تخسر ابناً أو أباً، أو أخاً. وهذا ليس الأسوأ. هل تعلمين كم جنازة حضرت للنساء والأطفال».

ثم أتى وجلس بقربي ولمس يدي ليوقفني عن الكتابة «تستطيعين أخذ الحقيقة عن لبنان إلى وطنك، ولكن ربما الجمهور الأميركي ليس لديه أي استعداد لسماع الحقيقة».

- «قل ما تريد قوله»: قلت له. «قل ما هو حقيقي».

□ «الحقيقة أن رئيسك كارتر يشجع الإرهاب في لبنان».

- «وكيف ذلك؟»).

- قتلت منظمة التحرير السفير الأميركي السابق في لبنان، «فرنسيس ميلوي»، عام ١٩٧٦، وقذفت بجثته في النفايات. بعد ذلك أرسلت الجثة إلى الولايات المتحدة. وماذا فعل رئيسك كارتر؟» قال الجميل مزدرياً. «هل عاقب القتلى؟ هل، على الأقل، أدان منظمة التحرير؟ كلا، بل كتب مذكرة شكر للمنظمة موجهة إلى «الرئيس عرفات». وهل يظن كارتر أن عرفات رئيس لبنان»؟.

اندهشت لصراحته. السياسيون الذين عرفتهم كانوا يبدلون مواقفهم حسب نوعية الظهور التي كانت تعطيهم إياها الـ «٢٠/٢٠». ولكن الجميل كان يرد على أسئلتي بصراحة وصدق. لم أر لها مثيلاً من قبل. كان يبدو بلا حيلة، مصمماً على قول الحقيقة كما يراها دون الأخذ بعين الاعتبار، تأثيرها عليّ.

جاءت صولانج إلى الغرفة: «حان وقت الذهاب»، قالت لبشير. بدا وكأنه لم يسمعها، ثم دنا بوجهه من وجهي.

- «بشير» قالت صولانج. وقف وقال: «بعد مراسم الذكرى سنذهب لتناول طعام الغداء في بيت أختي، هل تأتين؟».

لاحظت أنه لم ينظر إلى زوجته قبل أن يقترح موضوع الغداء. ولكنها، مع ذلك نظرت إليه وقالت شيئاً ما بالفرنسية، فطلب منها أن

تتحدث بالإنكليزية.

«ستكون ماديس هناك» قالت متمتمة.

- «هذا سبب كاف» رد قائلاً دون أن ينزع عينيه عن وجهي.

قلت سأفعل.

اجتمعت العائلة لأخذ الكوكتيل في صالون جميل، ومتناسق، ومجهّز بسقيفة، في بيت «أبو حلقة». كان الخدّام يحومون حولنا بصمت وهم يحملون «صواني» القهوةوالمقبلات. وكما في بيت بشير الجميل، كان هناك أطباق مليئة بالسجائر الأميركية موضوعة بشكل دائم. ولكنها كانت هنا من الذهب والفضة. أما الأثاث فكان من الطراز القديم. كان جوزيف أبو حلقة رجل أعمال.

أتى بي بيار يزبك إلى منزل أبو حلقة في الوقت الذي كان بشير وزوجته صولانج يحضران مراسم الذكرى للرجال الذين ماتوا بدلاً من بشير. وكمعظم الطبقات الراقية اللبنانية، كانت العائلة تتكلم الفرنسية فيما بينها، وبالعربية، مع الخدام، وكانت لهجتهم العربية فريدة من نوعها، ممزوجة بكثير من الكلمات والجمل الفرنسية، وتسمى هذه اللغة باللبنانية.

كانت العائلة تبدو مرتبكة بوجودي. على الرغم أنهم لم يبدوا لي إلّا كل احترام.

قالت لي جاكلين أبو حلقة إنه لم يسبق لبشير أن دعا شخصاً غريباً إلى أي اجتماع عائلي «ولكن»، أضافت بسرعة خشية أن تكون قد جرحت مشاعري «نحن جد مسرورون بمجيئك».

لم أكن مستاءة. «غريبة» هي الكلمة الفاعلة في هذه الغرفة المشحونة بحميمية مولودة ليس فقط بحكم القرابة ولكن من معرفة مشتركة كنت بعيدة عنها.

كانت الغرفة تضج بالأحاديث ورنين الكريستال والفضة. كنت أتكلم إلى مضيفتي، عندما حل الصمت المفاجىء في الغرفة. فتوقف

الكلام، ووقف الجالسون. كان بشير الجميل قد دخل.

كل الانتباه قد تركز عليه. ودُهشت لرؤية عائلته، وكل من يكبره سناً، يذعنون له إذعانهم للملكية.

كان الرجال ينتظرون حتى يتكلم قبل الرد باحترام. أحضرت له النساء الطعام والشراب. وتذكرت ما قاله لي بيار يزبك تلك الليلة عن الأولية للابن البكر. وزاد تعجبي عندما أتى بشير مباشرة إليّ، وأخذ بذراعي، وقدمني إلى أخواته، وأصهرته، شارحاً لهم بأنني مخرجة تلفزيونية أميركية.

«لقد أخذت كل الوقت حتى تأتي إلى لبنان لترى بنفسها ماذا يحصل لنا». ثم دنا مني وقال: «كيف تشعرين، هل أخذت ما يكفي من دروس لهذا اليوم»؟.

«كلا، أنا بخير»، تمتمت، مرتبكة بهذه الحميمية المفاجئة.

كان في الغرفة امرأة واحدة لم تقف لبشير عند دخوله، والتي عندما صافحها، أشاحت بوجهها بعيداً عنه، وبخلاف النساء الأخريات اللواتي كن يرتدين الثياب الأنيقة، كانت هذه المرأة ترتدي ثوباً عادياً، راقبتها تشعل سيجارة تلو الأخرى، وهي تجلس وحيدة في زاوية الغرفة.

«أختي ماديس»، همس بشير في أذني. «مات ابنها في القتال، كان عمره ١٩ سنة، لم تتغلّب على حزنها للآن» قام وجلس بقربها واضعاً ذراعه حولها، إلاّ أنها لم تبال به.

ذهبنا لتناول الطعام، وجلست على يمين «جوزف أبو حلقة»، كان الجميل جالساً في الطرف الآخر على رأس الطاولة.

كانت المائدة مليئة بكل أنواع المأكولات اللبنانية التي وجدتها شهية، ولكن كان لديّ القليل من الوقت للطعام، وهذا لأن مُضيفي كان يمطرني بوابل من الأسئلة القسرية المتلاحقة، كان متوقعاً مني، كما هو متوقع من الأميركيين في الخارج، أن أتكلم، باسم بلادي.

□ «لماذا يقلق أمر إسرائيل الولايات المتحدة، ومع ذلك تتجاهل لبنان؟ لماذا يتكلم الأميركيون كثيراً عن الإرهاب ومع ذلك لا يرفعون إصبعاً لمساعدة هؤلاء الذين يحاربونه؟»، «أصبح لبنان مهد الإرهاب العالمي»، قال أبو حلقة «نحن اللبنانيين المسيحيين نقف وحيدين بين الغرب ووكر الأفاعي هذا. ماذا سيحصل لكم إذا فشلنا؟ هل تريدون ليبيا أخرى، أو إيران أخرى؟».

- «معظم الأميركيين»، قلت وأنا مرتبكة من الدور الذي اتخذته كشخص متكلم «يعتقدون أن مشاكل لبنان يجب أن يحلّها الشعب اللبناني، دون أي تدخل خارجي».

□ «كذبة قذرة» ردّ باشمئزاز، «الحقيقة هي أنكم لا تهتمون، أنتم الأميركيين ترضون بأن تجلسوا وتراقبوا بصمت بينما يموت عشرات الألوف منا».

أضاف: «نقاتل في معركة هي معركتكم كما هي معركتنا. لسنا سوى عرب، بالنسبة لكم».

- «كيف يكون هذا، عشرات الألوف؟ إذا كان هذا صحيحاً لماذا لم تتكلم عنها الصحف؟».

□ «الصحافة ترى ما تريد أن تراه وتتكلم عما تريد التكلم عنه».

- «هل تقول أن هناك مؤامرة ما ضد المسيحيين اللبنانيين؟».

□ «مؤامرة من الصمت، نعم، أقول هذا، تجاهل، ولن تكون هذه المرة الأولى في التاريخ»، قال أبو حلقة.

وتساءلت إذا كانوا يعلمون أنني يهودية.

«ما تقوله غير صحيح عن باربرا» قال بشير الجميل، ولم أكن أعلم أنه كان يستمع، «إنها لم تدر ظهرها»، قال، «لقد قطعت كل هذه المسافات لكي تعرف»، «.. إنها جالسة على مائدتنا».

كان في نبرته توجيه رقيق لأبو حلقة سرعان ما فهمه، فرجع إلى الوراء قليلاً ليكتسي وجهه برقة اجتماعية مفتعلة.

- ٤ -

هكذا بدأت العمل مع بشير

رأيت فيما يراه النائم أني كنت وحيدة في قارب في وسط بحيرة حمراء لا نهاية لها. كان القارب مليئاً بالثغرات في أسفله. وكنت أطرح الماء بكفيّ، وهذا لأنه لم يكن يوجد معي دلو، سمعت أصواتاً عديدة تنادي من حوالي: بار - با - را في لهجة إما عبرية أو عربية. بار - بار - را. إلاّ أنني لم أتوقف عن صرف الماء خشية أن يغرق القارب. وفجأة سمعت صياح ديك. مستحيل، فكّرت. لا بد أنني أحلم، استيقظت والديك ما زال يصيح في الظلام خارج الفندق.

حدّقت في ساعتي - الخامسة والنصف - الفجر لم يبزغ بعد. والقمر يشع داخل غرفتي، التي بدت على ضوء القمر أسوأ مما تبدو عليه في وضح النهار. فالجدران بدأ طلاؤها يتقشر، والأثاث الوحيد في الغرفة: كرسي مغطى بقماشة بالية، وسرير ومكتب مهشّم من تأثير الشظايا، وراديو، (صلة الوصل بيني وبين العالم) موضوع في كتلة خشبية كبيرة.

أغمضت عيني في محاولة للعودة إلى النوم، ولكن دون جدوى، فعقلي قد استيقظ وبدأ العمل، محاولاً التصوّر كيف سأنهي القصة خلال الوقت القصير المتبقي.

كنت أعلم بأنني أريد أن يقابل جيرالدو بشير الجميل، ولكن قبل أن أسمح لبشير الجميل باستخدام برنامجي، كنت بحاجة للتأكد

من أن ادعاءاته صحيحة. وإذا تبين لي عكس هذا فسأكون بحاجة لمساعدة جيرالدو. كان عليّ أن أتصل أيضاً بمنظمة التحرير الفلسطينية، وذلك لإعطائهم فرصة للرد على اتهامات الإسرائيليين واللبنانيين المسيحيين.

لقد أدركت نوايا منظمة التحرير بعد مقابلاتنا مع سجنائها في إسرائيل. وكنت مهتمة لأرى ما إذا كان كبار ضباط المنظمة سيعبرون عن الكراهية نفسها لكل الإسرائيليين. وكان عليّ بطريقة أو بأخرى، أن أجمع القصة في الوقت الذي سيصل فيه جيرالدو أي في غضون خمسة أيام. لم يكن لديّ أحد أستطيع طلب مساعدته لأن رئيس مكتب الـABC، جيري كينغ، كان خارج بيروت، وبالطبع لن أتصل بتولين.

ادعت الكتائب، أن مائة ألف من المدنيين المسلمين والمسيحيين، مع أربعة آلاف جندي مسيحي قتلوا حتى الآن، وهذا رقم كبير. وادعوا أيضاً أن بعض القرى المسيحية أفرغت بالقوة وهجرها البعض الآخر وذلك بعد أن دخلتها منظمة التحرير مع حلفائها المسلمين اليساريين، وقامت بتعذيب وقتل المدنيين، واغتصاب الفتيات في قرى الدامور والشياح والقاع ودير عشاش وشكا.

في بادىء الأمر استمعت إلى هذه الأخبار غير مصدّقة. وعلى الرغم من أنني كنت قد بدأت أدرك أن ما هو مرعب بالنسبة لنا كان عادياً للغاية في الشرق الأوسط، إلاّ أنني وجدت أن هذه القصص المريعة كانت غير معلنة.

ومهما كانت ايديولوجية الصحافي - وكلنا لدينا معتقدات وآراء خاصة - فإن مهمته الأولى هي البحث عن الحقيقة: كان عليّ أن أتساءل إن لم يكن الجميّل وشعبه يحاولون ارتكاب خدعة عظيمة، لأن البديل الوحيد هو أن الصحافة أدارت ظهرها للبنانيين المسيحيين. ولكن كل البراهين التي استطعت أن أحصل عليها، كانت تميل إلى

تأكيد صحة إحصاء الجميل أو حتى وجهة نظره.

قصصي كلها التي أعددتها كانت من خلال البحث المضني الذي كنت أقوم به عبر التفتيش الممل عن الحقائق، وأيضاً بمقارنة المعلومات الآتية من مصادر مختلفة ومتعارضة. وحين تصبح كل الحقائق متوافرة لدي، أواجه الشهود، وأهيّىء لكل واحد منهم فخاً، أدعهم يظنون أنني أعرف أكثر مما يتصورون. حتى أنني في بعض الأحيان، أستأسد عليهم. كنت أتشرّب كل قصة، آكل، وأشرب، وأعيش عملياً مع مصادري حتى أصبح باستطاعتي قراءة كل تعابيرهم بل حتى كيف تبدو أعينهم عندما يقترفون كذبة ما. كنت أعمل معهم حتى يصبح باستطاعتي كتابة نصوص معقولة في رأسي، نصوص قريبة جداً مما هو حاصل واقعياً.

إن إطلاق قصة وطنية لتصبح سبقاً صحافياً مثل قصة سيلكوود ونيومك، هي التجربة الأكثر إثارة في العالم، فالمرء يشعر وكأنه صليبي وجد أخيراً الكأس المقدسة، أو حتى أنه مستكشف يكتشف أرضاً عذراء. هل صحيح، يتساءل أحدهم، بأن ما من أحد قد جاء إلى هنا من قبل؟ - ولكني لم أشعر بأي ابتهاج في لبنان - بل شعرت بغضب شديد لأن ما رأيته بدا وكأنه تستر من جانب الصحافة.

ولكن هذه الأشياء من الطبيعي أن تحصل، وليست بأشياء نادرة. فقد سبق أن حصلت بين أواخر الثلاثينيات ومستهل الأربعينيات. عندما رفض الإعلام الغربي تصديق براهين فوتوغرافية وتقارير لشهود عيان بأن النازية كانت تقوم بإبادة اليهود والأقليات الأخرى. وحصل هذا أيضاً، في الستينيات مع «مايلاي»، عندما تجاهلت مؤسسة الصحافة التقارير المتواصلة التي تحدّثت عن الأعمال الوحشية التي يقترفها الأميركيون في فييتنام. أطلق سيمور هيرش قصة «مايلاي» لوكالة أنباء صغيرة بعد أن رفضتها وكالات إخبارية رئيسية. وقد راهن على نجاح عمله في القصة. وبعد أن ثبت أن المعلومات التي وردت في

قصة مايلاي صحيحة طلب إليّ العمل في «النيويورك تايمز» ثم بدأت مؤسسات الصحافة الأميركية تغيّر مواقفها من الحرب.

من السهل النسيان الآن بعد قصة سيلكوود. وتري مايل ايلاند أنه في الخمسينيات والستينيات كانت الطاقة النووية توصف بأنها منقذة للعالم والأصوات التي كانت تنادي في البراري، كانت مشككة والذين عوملوا الازدراء نفسه الذي عوجل به الأنبياء الحقيقيون.

على الرغم من أنني كنت لبقة، إلا أنني خفت من ردة فعل سين تولين عندما علم بأنني أريد مقابلة بشير الجميل مثلما ارتعب من اختياري للفندق.

كانت ردة فعله بمثابة تحذير واضح بأنني أخذت الجانب الخاطىء كان يقصد أن يساعدني ولكن كعادتي عندما ينصحني أحدهم بعدم النظر إلى بعض أوجه القصة، أصبح مهتمة بها للغاية.

قد يبدو هذا غروراً، ولكن في الحقيقة إن ما أعترف به الآن ليس إلا نوعاً من البلاهة. فالمخرجون الأذكياء يأخذون بعين الاعتبار النصيحة التي أسداها لي تولين. ولكني لست ذكية. أحب أن أفعل كل شيء على طريقتي. وإن كنت أذهب بعيداً في بعض الأحيان وأفضل الخسارة من دون تحفّظ على التسوية. وماذا كانت النتيجة؟ قصص ضخمة والشعور بالاكتفاء عندما علم بأنه لولا عملي ما كانت تلك القصص قدوجدت. استقلاليتي كلفتني غالياً. مع ذلك، كنت صريحة جداً فلم أبن اتصالاتي في العمل عبر علاقات اجتماعية مميزة.. كنت أختار أصدقائي من الخارج مع مصادر في أكثر الأحيان. لأن هؤلاء هم الناس الذين يستميلوني بحكم نشاطهم في العمل. كنت أعتبر مميزة فيه، ولكن أيضاً خارجة على جماعتي آخذة لنفسي مسلكاً مستقلاً، موهوبة ولكن لست لاعبة ضمن فريق.

كان من الممكن أن يتجاهل تولين وزملاؤه ما كان يحدث للمسيحيين في لبنان، وكان من الممكن أيضاً أن الجميل وجماعته كانوا

يكذبون، لن آخذ أي شيء بالإيمان. كنت أطلب وثيقة لكل ادعاء، كبيراً كان أم صغيراً.

في المساء وبعد الغداء في سقيفة أبو حلقة، اتصل بيار يزبك بي هاتفياً في الفندق.

□ «أنا في خدمتك»، وقال لي باشمئزاز، «شعبي هو شعبك، بار ـ با ـ را. استعمليهم كما يحلو لك، حتى بشير نفسه أمر بالتعاون الكامل».

ـ «جيد»، قلت له بشيء من الفظاظة. ثم أضفت قائلة: «أحتاج لتمضية بضع ساعات معك غداً، عليك أن تجلب لي صور المجازر والتفاصيل والتواريخ ونسخاً من تقارير بوليسية وعسكرية. أحتاج أن أتكلم مع شهود عيان، وإذا كان لديك أي فيلم عن الهجمات، أريده أيضاً. كما أنني بحاجة إلى مترجم وخلفية معلومات عن بشير،نسخ عن خطاباته، ومقابلاته مع الصحف المحلية والخارجية مترجمة إلى الإنكليزية طبعاً».

□ «متى تريدين كل هذا؟».

تصورت ردة فعله ولكن لهجته كانت مهذّبة عندما تكلم: «هذا فقط؟»،.

□ «هل من شيء آخر نستطيع فعله، لمساعدتك؟ عليك فقط أن تطلبي».

ـ «سأفعل» وعدته.

في اليوم التالي، مكثت في الفندق، ووجد شقاء لبنان كله طريقه إلى بابي. لقد جاءني أناس بسطاء يحملون علباً من الصور الفوتوغرافية وألبومات. وفكّرت بالألبوم العائلي الذي أملكه والمليء بالصور التذكارية لمناسبات جميلة.

كان لهؤلاء الناس ذكريات من نوع مختلف تماماً:رأيت جثثاً لرجال

ونساء وأطفال مقتولين رمياً بالرصاص في منازلهم، وصوراً لنساء مغتصبات كانت كلها صور مريعة ومخيفة.

كان حاملو صور أمواتهم هم القرويون الذين نجوا من المجازر التي حصلت في منتصف السبعينيات، في الدامور وجبال الشوف، وفي قرى شمال لبنان من بيت ملات ودير عشاش. ورأيت أفلاماً صورها المسيحيون تروي بالتفصيل المجازر التي حصلت في الدامور والقرى الأخرى. هناك صورة ما زالت تبعث في نفسي الرعب إلى الآن وهي لفتاة استعملت كهدف يتمرّن عليه جنود منظمة التحرير.

كان يبدو لي أنه من الخطأ المريع أن يجيء هؤلاء الناس أمام بابي وكأنهم يتوسلون، يعرضون موتاهم، ويجرّدون حياتهم أمام إنسانة غريبة. هناك امرأة أرتني صوراً لأولادها الثلاثة. كانت كأية أم تعرّف عن أبنائها، لكن في الحالة هذه كان الأولاد في تلك الصورة مجرد جثث. خبأت عيني، ولكن فكرت بعد ذلك أنه إذا كانت لديها الشجاعة على العيش بعد هذه الخسارة الفادحة، فأقل شيء أستطيع فعله هو النظر إلى تلك الصور.

زرت ياد فاشيم، المتحف التذكاري للمحرقة في القدس، واعتراني الآن الشعور نفسه الذي انتابني في تلك الزيارة. شعرت أنني محطمة من ضخامة المعاناة وانحراف القتلة. ومن الغريب أنني شعرت أيضاً بالخجل. حتى أنني نظرت فترة أثناء النهار إلى المرآة لأرى وجهي. إنهم بشر، فكرت، هؤلاء الذين اقترفوا هذه الأفعال البشعة، وأنا أيضاً بشر، هل عندي المقدرة على القيام بما فعلوه؟ وفكرت: «هناك أذهب فقط لأجل نعمة الرب». ولم أكن أعني الضحايا فقط، بل معذبيهم أيضاً.

لا يستطيع من لم يختبر رعب الفوضى السياسية، أن يقدّر قيمة النظام. كنت أعلم أن المسيحيين، والكتائب بشكل خاص، اتهموا أيضاً بالقيام بمجازر مماثلة. نشر ذلك الجانب من القصة بالكامل في

الصحافة الغربية. ولكن ما من كلمة وردت خارج لبنان عما حصل لهؤلاء الناس. ولم يقلّل من شفقتي لهؤلاء أن بعضهم فعل الشيء نفسه. فعندما لا يستطيع الشعب اللجوء إلى الحكومة للعدل والحماية، لا يبقى أمامهم سوى أن يختاروا بين العقوبة واليأس. من كل الأشياء التي لقنني إياها عملي لم أجد أصعب من الإدراك بأن الحضارة ليست سوى طبقة رقيقة هشة من الجلد، وفي ظل ظروف خاصة يصبح لدى كل إنسان المقدرة على طرح ذلك الجلد والعودة إلى الوحشية. وعندما يجمع الأناس المتحضرون، لا توجد أية حدود للوحشية التي تستخدمها الطبيعة الإنسانية. ونسمي تلك الوحشية عملاً لا إنسانياً أو بهيمياً، فقط لنخفي عن أنفسنا الحقيقة. فمن بين كل المخلوقات، على الأرض، نحن الوحيدون الذين لدينا القدرة على القيام بذلك. كلمات «دانتي» موجهة إلى واقع أعرفه جيداً: «أيها الإنسان، ولدت لتحلّق في الأعالي، فلم تقع أرضاً عند كل هبّة ريح صغيرة؟».

كانت الصور والقصص ووجوه الناجين من الموت كلها بمثابة ذكرى أليمة لأشياء علمت بها سابقاً. كانوا يتطلبون مني كإنسانة وكصحافية في آن معاً، وبشير الجميل كان يتطلّب أيضاً خاصة أنه كان يتوقع ويفترض أنني سأكون إلى جانبه، ولأنه ولسبب يصعب عليّ تفسيره يفترض أن أكون حليفته في الصراع الذي يخوضه شعبه، وهكذا تحدّاني جو أبو حلقة مدعياً أن الصحافة الغربية تعمّدت تجاهل المذابح التي اقترفت بحق المسيحيين اللبنانيين كما حصل مع اليهود الألمان.

وأعتقد أنه لا توجد خطيئة أسوأ من اللامبالاة وفتور المشاعر، ومن قول «دانتي» أيضاً «ان المكان الأكثر سعيراً في الجحيم محفوظ لهؤلاء الذين وقفوا مكتوفي الأيدي في المحنات والأزمات الأخلاقية».

نظرت إلى آلاف الصور واستمعت إلى كثير من القصص المرعبة إلّا أنني رفضت الإنصات إلى ذلك الصوت الخفي في داخلي والذي كان يهمس لي: «كفى، كفى الآن، هذه ليست حربك، وليست مشكلتك».

عندما خفّت حشود الناس طلبت من المترجم الخروج من الغرفة واستلقيت على السرير مستمتعة بالهدوء المفاجىء، كانت عيناي تحرقاني من التعب والجهد الذي قمت به وأنا أحبس دموعي طوال الوقت، وأنا أستمع إلى القصص المؤلمة.

ورن جرس الهاتف.

□ «آلو باربرا» قال لي صوت أجش وحميم، عرفته في الحال، فقد كنت أتوقع اتصالاً منه.

ـ «هاي بشير».

□ «كيف تشعرين؟«.

ـ «هل تعلم ما كنت أفعل اليوم؟».

□ «نعم».

ـ «إذن أظنك تعلم كيف أشعر».

□ «يجب أن تشاهدي غداً جزءاً آخر من الصورة». قال «ما هي مشاريعك؟ من سيأتي ليأخذك؟».

ـ «ماذا يا بشير؟» قلت مداعبة: «هل تريد أن تصبح مرشدي؟».

وأدركت على الفور كم هذا غير لائق، فقد تكلمت مع بشير وكأنه صديق قديم، أو حبيب، وليس قائد «القوات اللبنانية» ورجل لبنان القوي.

وردّ عليّ بشير بالنبرة نفسها: «بالتأكيد، ماذا تريدين أن تفعلي؟». ثم تابع يقول:

□ «أية ساعة أستطيع أن آخذك؟» قال ذلك وكأنه يطلب مني موعداً غرامياً يعلنه للعالم أجمع.

ـ «الساعة الواحدة إلّا عشر دقائق» ـ لا بد أنه لا يعني ما يقوله ـ فكّرت مطرقة. نعم أظنه يمازحني فرجل في مركزه لا يقوم بدور المرافق

لصحافية، بل لديه من المساعدين ما يكفي للقيام بهذه المهمة، ولكن ماذا إذا كان جدياً فيما يقول؟ إنني بالتأكيد لا أريد أن أضيّع هذه الفرصة.

ـ «أدرك أن لديك الكثير من المشاغل» قلت له بحذر.

□ «إن تعريف الغرب بلبنان هو أمر ضروري لقضيتنا» قال، «وهناك الكثير لتعرفينه في نهاية الأمر».

كنت جالسة في غرفة الطعام في الفندق في التاسعة من صباح اليوم التالي، أتناول طعام الفطور وأحضّر صفحات من الأسئلة، عندما تقدّم رجل شاب نحوي، وسيارته في الخارج بانتظارنا.

كان المركز الرئيسي للمجلس الحربي لـ «القوات اللبنانية» عبارة عن مستودع من ثلاثة طوابق في منطقة محمية معروفة بالكرنتينا، قرب مرفأ بيروت. كانت هناك عربات مدرّعة تبدو قديمة للغاية عند مدخل المركز وتعرّفت عليها كونها العربات المصفّحة نفسها التي رأيتها جاثمة على طول الطريق المؤدي إلى القدس لتظل ذكرى لحرب الاستقلال الإسرائيلية، وبعد حين، تأكدت أن هذه العربات هي بالفعل عربات إسرائيلية زوّدت إسرائيل المسيحيين بها في أواخر السبعينيات عندما بدأت تزوّدهم بالسلاح، ولاحظت للمرة الأولى أن البزّة العسكرية لـ «القوات اللبنانية» مماثلة لبدلات الجيش الإسرائيلي، باستثناء الشارة على البدلة والرمز، الأرزة والدائرة الحمراء المطبوعتين فوق جيب السترة.

وأشار سائقي إلى عمارة متاخمة لمركز القيادة العسكرية لـ «القوات اللبنانية»، كان هناك ثلاثة أعلام ترفرف في وسط الباحة: العلم اللبناني، وعلم «القوات اللبنانية» الذي كانت أرزته محاطة بدائرة حمراء، والعلم الكتائبي وهو مثلث كبير الحجم ينقسم إلى ثلاثة أجزاء على شكل شجرة، والذي كان يرمز إلى، الله والعائلة والوطن. وترتيب الأعلام الثلاثة كان يعني أنه مثلما صنّف حزب الكتائب تحت لواء الجبهة

المسيحية الموحدة لـ «القوات اللبنانية»، هكذا ستصنّف أيضاً «القوات اللبنانية» تحت راية لبنان السيّد والمستقل.

صدمت بالهدوء المبالغ فيه داخل المركز وبمنظر المقاتلين المتنافر والمؤثر في الوقت نفسه وهم يمشون على رؤوس أصابعهم كي لا يزعجوا الرجل العظيم، الذي صودف أنه يصغر معظمهم سناً.

تكلّم السائق بصوت خافت إلى سكرتيرة الجميل التي لم تنظر إليّ ولكن فتحت باباً ضخماً واختفت بداخله لنصف دقيقة، ثم ما لبثت أن ظهرت ثانية، ودعتني إلى الدخول.

كان مكتب الجميل غرفة مستطيلة واسعة تأخذ جناحاً كاملاً من العمارة، وكان أثاثه بسيطاً تماماً كمنزله، ومما أثار تعجبي أن المكان كان نظيفاً ومنظماً للغاية، منظر يبعث الدهشة وسط حرب أهلية وحالة فوضى عامة.

وقف الجميل ليصافحني.

ـ «إذاً»، قلت له، «أين سنذهب؟».

□ «أريد أن تري روح الشعب، سنذهب إلى جنازة أحد رجالي».

ـ عظيم، قلت في نفسي، جنازة هي فقط ما أحتاج إليه.

□ «ثم»، قال متابعاً، «سنذهب إلى مطعم يملكه صاحبي وهناك إسأليني ما تشائين».

ـ «جيد، لديّ بعض الأسئلة».

□ ابتسم الجميل وقال: «يشكو بيار من أنك تدفعين جماعته نحو الجنون، فما أن يحققوا لك طلباً من طلباتك الخيالية، حتى تتقدمي بطلب آخر».

ـ «وماذا قلت له؟».

□ «قلت: من الجيد أن تجد امرأة تعرف ما تريد».

كان الهاتف يرن باستمرار وفي كل مرة كان بشير يقوم إلى مكتبه ليرد على المكالمات، وحين كان يتكلم ـ برقة شديدة ـ بضع كلمات مختصرة ـ كان يلتقط قطعة خشبية، ينقلها من يد إلى يد. رأيت وجهه ينقبض إلّا أنه بقي يتكلم بهدوء، ولكن بدا لي أن في الأمر خطباً ما، ثم ما لبث أن قبض على القطعة الخشبية بيديه وكسرها إلى نصفين ورمى بها أرضاً وأنهى الحديث ورجع إلى مقعده.

في الفترة التي عرفته فيها، نادراً ما كنت أسمع بشير يرفع صوته ومع ذلك كان يحكم رجالاً أشداء بقبضة من حديد، وعلمت آجلاً، أن سكرتيرة بشير كان لديها كمية كبيرة من تلك القطع الخشبية.

غادرنا المكتب إلى الطابق السفلي، كانت سيارة بشير بانتظارنا، كان الجميل يبدّل سياراته أربع أو خمس مرات في اليوم لأسباب أمنية، كان يقود بنفسه كما قال لي، «لأن وجود الحرس الخاص، بشكل دائم يخنقني»، وأضاف: «إذا كان مقدّراً عليّ أن أقتل فأفضّل الموت بمفردي، فهؤلاء الثلاثة الذين كانوا مع مايا»، أضاف برقة، وهو ينظر إلى الطريق، «كانوا أصدقائي».

كان يقود بسرعة ومهارة، مراقباً المرآة الأمامية باستمرار، وفكّرت مطرقة، إنه رغم الهالة التي كان يتمتع بها من ممارسته للسلطة، فإن بشير الجميل كان ما زال غضاً بما فيه الكفاية لكي يستمتع بقيادة سيارة بشكل جيد وسريع.

وفي كل مرة كنا نتوقف عند إشارة مرور أو نمر بسيارة أخرى، كان السائقون يتعرفون على الجميل، فيتوقف بعضهم في وسط الطريق، والبعض الآخر يحدّق به ببلاهة، وآخرون يلوحون له.

لم يكن لدينا وقت طويل للتحدث فهاتف السيارة يرن كل بضع ثوانٍ، وعندما وصلنا إلى الكنيسة، أسرع أهل الجندي المتوفي لمصافحة الجميل، وأدى حرّاس الشرف لـ «القوات اللبنانية»، التحية للجميل عند مروره بهم، كان قد تجمّع مئات داخل الكنيسة، التي كانت تضج

بالندب والعويل المؤلم، وبعد حين وقف الجميل ليوجّه كلمة إلى المحزونين ثم جلس صديق له إلى جانبي وأخذ يترجم لي كلماته بصوت خافت:

ـ «إذا قتلوا عشرة آلاف»، قال لهم الجميل، «أو حتى خمسين ألفاً، أو مائة ألف، فإنهم لن يستطيعوا أبداً قتل قضيتنا، لأنها قضية عادلة وأهدافنا مشرّفة. ولن نفشل».

كان يتكلم بحماس وشغف، ضارباً يده في الهواء، لم يستعمل أية أوراق، كان فكّه صارماً وعيناه تبرقان.

«هذه بلادنا»، قال، «لسنا بدواً لكي نتسلّل حاملين خيمنا فوق ظهورنا، بل نحن الذين نحمل تقاليد ترجع إلى أربعة عشر قرناً. ما من قوة في العالم تستطيع أن تحرمنا كرامتنا أو تجعل منا متسولين في أرضنا، نحن شعب أبيّ، شعب قديم، ولنا جذور عميقة في لبنان، ولن يستطيع الدخلاء طردنا من وطننا، إنه لمن واجبنا المقدس أن نؤكد أن ما من قتيل سيذهب دمه سدى.

أقسم بأرواح رفاقنا الشهداء أنه ما دمت على قيد الحياة فلن تكون هناك أية مساومة مع مبدأ السيادة الذي قدّم شعبنا حياته فداها».

وبينما كان يتكلم رأيت التصميم والعزم يكسو وجوه الحاضرين، نهضت أم الفقيد في النهاية، لتصافح الجميّل. بعدها تسلّل بشير من بين الجموع متوجهاً إلى سيارته، فجلست بقربه وفي السيارة استرخى كلياً متابعاً حديثنا السابق وكأنه لم ينقطع أبداً بالرغم أن العاطفة التي انتابته خلال الجنازة كانت حقيقية لكنها الآن قد زالت!

وفكرت أن في هذا الرجل جانباً من شخصية الممثل (كنت ما أزال أحاول أن أكون محلّلة، وأن أقاوم تلك الإلفة الكامنة في ارتياحه اللاشعوري بوجودي) ولكن إذا كان ممثلاً، فبالتأكيد إنه يمثل حياته، وما كان يعطيه كان من جوهره. ربما لأن بشير كان يعتبر هذه الإلفة المميزة بيننا على أنها طبيعية وصحيحة، بينما وجدتها أنا مزعجة. أنا

صحافية، ولست صديقته، أو زميلته في العمل، ولست حبيبتـه، فلماذا أميل إليه كثيراً؟ ولكن لن أدع هذا يعرقل سير قصتي. سأبعد نفسي عن بشير حتى أتأكد من الحقائق.

ـ «مـاذا سيكلفك؟» سألته بلهجة عملية، «ذهابك إلى تلك الجنازات»؟؟. فقد علمت أنه يذهب إلى جميع الجنازات وكذلك إلى مراسم العمادة والزواج. وكان هذا السؤال من أكثر الأسئلة خصوصية من بين تلك التي وجهتها له.

فـرد ببرودة وذهـول «أنـا لا أسأل عن الثمن. إنها أشياء طبيعيـة وليس لدي الخيار».

رد الجميل كان المرادف المباشر لعبارة إسرائيلية سمعتها مراراً خلال مكوثي هناك حتى أصبحت في النهاية أستعملها. «لا خيار، لا خيار»، كانت التفسير المزعوم للحروب العديدة التي قام بها الإسرائيليـون، ولتأمين نصرهم في تلك الحروب، وجعل قواتهم الجوية ووكالاتهم الاستخبارية متفوقة، وكذلك لتحملهم أكبر نسبة ضريبة في العالم وشهرين من التدريب الاحتياطي كل سنة. «لا خيار» كما قـال لي دايفيد كيمحي، كان ذلك سر نجاح إسرائيل العسكري. فعلى إسرائيل أن تخسر الحرب حتى لا تقدم على أخرى. وعندما اجتمعت بأعدائهم ورأيت أعمالهم، فهمت ما كان يقصده. وأن التاريخ، تابع بشير، جعلنا ندرك بأن السقوط في أيدي الأعداء هو بمثابة دعوة إلى الاستشهاد الإلزامي وإن كنا لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا، فلا أحد يستطيع أن يقوم بذلك بدلاً منا.

نظرت مباشرة إلى بشير الجميل، كان شاباً، ولكنّ اثنين وثلاثين سنة في الشرق الأوسط ليست كإثنين وثلاثين سنة في الولايات المتحدة. كان يبدو قاسياً وبارداً على الرغم أنني لم أر ذلك التعبير من قبل، إلاّ أنه بدا مميزاً وموحياً وشعرت مرة أخرى أنه يتوقع أنـني سأتفهمه. ولكن أدركت للمرة الأولى أن هذا التوقع ناتج عن كوني يهودية.

كان المطعم الذي اختاره بشير بسيطاً، ومزدحماً بالزبائن. وما إن علموا بوجود الجميل حتى ساد الصمت. أخذ بشير ذراعي وقادني إلى طاولة في زاوية هادئة، وببطء عاد الزبائن إلى أحاديثهم. وبدا بشير وكأنه موافق على سكوتهم وكأنه أمر طبيعي.

طلب بشير كوكا كولا وطلبت بدوري الخمر الأبيض ثم فتحت دفتري وأدرت آلة التسجيل. وجاءنا النادل بالمازة اللبنانية الشهية وبدأ بشير يأكل بسرعة ويتكلم كثيراً حتى أنني لم أستطع التوقف عن الكتابة للأكل. ولاحظ أنني أنظر إلى الطعام الذي كان يختفي بسرعة وقال «هل أتوقف عن الكلام لتأكلي».

ـ «كلا، شكراً، أستطيع أن آكل فيما بعد، ولكن لا أعلم كم من الوقت أستطيع أن أقضيه معك، أنـت رجل مشغول». رمقني بنظرة قاطعة.

□ «لا تقلقي»، قال لي «سيكون لديك كل الوقت الذي تريدينه».

أظن أنني احمررت خجلاً، ورأيته يبتسم حين باشر بالأكل ثانية.

كـان ما يلمح له واضحـاً، وأحسست برغبـة قويـة هزّتني من الأعماق. ولكن كنت قد وصلت إلى مرحلة الأسئلة الصعبة، ولن تصرفني عنها تلك الأحاسيس الطارئة.

□ «أنت تشكو من صحافة غير عادلة»، قلت «ومن الواضح أنه يوجد فراغ في تغطيتنا لأحداث لبنان. ولكنك تقول، إن المسيحيين لا يلامون لما يحصل هنا؟»

أخذ وقتاً قبل أن يرد. وراقبتـه عن كثب. كانت عينـاه الداكنتـان توحيان بشكل لافت (وخاصة كسياسي عليه أن يبرع في فن التخفي) حتى أشعرني وكأنه يفكر بصوت عالٍ أخيراً، قال: «لا، لسنا كذلك، ولكن عليك أن تميزي بين القيادة المسيحية وبين الشعب، عليـك أن تدركي أنه في هذه الحرب الأهلية نحن نشن ثورة أيضاً.

لقد أطحنا بعبودية الطبقات الإقطاعية، التجارية، للشرقيين القدامى وبدأنا ببناء عقلية ديموقراطية وطنية. ما يفشل الغرب في استيعابه هو أن الصراع بين لبنان وجيرانه العرب هو صراع سياسي وليس دينياً. مصر وليبيا والعراق كلها دول اشتراكية، ومكاننا هو مع العالم الحر».

□ «بلاها، بشير»، قلت بنفاد صبر، وتفاجأت أنني لفظت اسمه الأول وكأنني أتناقش مع صديق، وقلت «سبق وقلت لي أنك ترد على الفوضى بالنظام، ولكن المسيحيين متهمون أيضاً ببعض المجازر الدامية في الحرب الأهلية».

ـ فامتقع وجهه وقال: «كل الجهات قامت بأشياء شنيعة، أنا لا أتغاضى عن ذلك،أنا أعمل كي أجعل من هذه الأفعال غير واردة عندنا. ولكن الاستفزاز كبير. ولبنان ليس أميركا، لا يحكم المرء هنا بالعناق والقبلات».

ثم دنا بوجهه مني، وثبّت عيناه بعيني. «هدفي، وقدري، كما أعتقد هو أن أوحّد كل مسيحيي لبنان تحت راية واحدة. ومن ثم أضم المسلمين والدروز ولن تكون هذه راية الكتائب، أو الموارنة أو حتى القوات اللبنانية، سيكون علم لبنان».

وقلت له: « عندما التقينا للمرة الأولى قلت لي أنك تؤمن بالرد على الفوضى بالقانون والنظام، إلّا أنني قرأت تقارير عن رجالك بأنهم قاموا بمذابح في شوارع تل الزعتر والمناطق الفلسطينية الأخرى».

ـ «فقدان القانون هو مرض لبنان»، قال الجميل «وللأسف ليس عندنا مناعة ضد هذا الفيروس، فيروس الرعب والفوضى أثّر أيضاً بصفوفنا، جنودنا يقتلون أحدهم الآخر بسبب النساء! النساء!»، ردد ذلك وكأنه يريد أن أشاركه اندهاشه وازدراءه.

«ولكن عليك أن تدركي هذا يا باربرا»، قال لي ووضع يده على يدي ليوقفني عن الكتابة. «إذا كان لديك طفلة، واقتحم غرباء منزلك

وأخذوا طفلك هذا ومزقوه أمام عينيك، عند ذلك ستشعرين بما نشعر. لبنان هو طفلتنا الحبيبة. ونحن أصبنا بالجنون من جراء ألمه وكربه».

فكرت بابنته مايا، وأيضاً بطَفلة شهادر هدر. ومع أني شعرت بالشفقة والتعاطف معه إلّا أني سألته متجاهلة: «بيار يزبك قال لي أنه عند اغتيال ابنتك، ذهبت إلى التلفزيون لمنع جماعتك من القيام بأية عملية انتقامية».

ـ «أجل فعلت هذا». تكلم ببطء وجهد. «ومع أن هذا يؤلمني للغاية إلا أنني فهمت أن مايا ليست سوى ضحية ضعفنا، شهيدة أخرى من شهداء القضية. وإذا كان يجب أن ننتقم لدماء شهدائنا فلن يكون هذا عبر إراقة الدماء، بل عن طريق حل حقيقي لمشاكلنا».

□ «ولكن هذا ليس كل ما فعلته، أليس كذلك يا بشير؟»

نظر إليّ، وتابعت: «ألم تعين إيلي حبيقة رئيس الأمن لديك بعد فترة وجيزة من موت مايا؟».

وتغيرت ملامح وجهه بشكل لافت، ومرة ثانية لمحت ذلك الفولاذ البارد تحت المظهر الصبياني الخارجي. لم يجب وقد قيل لي أن حبيقة قاتل لا يرحم.

«إيلي حبيقة» قرأت من مفكرتي «صبي لامع من عائلة فقيرة، غير متعلم ولكنه بارع وله تاريخ غير مشرّف. انضم إلى الكتائب في العام ١٩٧٥ مع انفجار الحرب الأهلية. ويوم حصول حادثة السبت الأسود، حين عُثر على خمسة من الكتائب مقتولين، قاد حبيقة مجموعة من المسلحين إلى الطريق العام في بيروت، وأقاموا هناك حاجزاً، وبدأوا بإخراج المسلمين من سياراتهم وذبحهم أمام عائلاتهم، حوالى المئة قتيل».

تجهم وجه بشير وقال: «فعل هذا بمفرده دون أي قرار، في الوقت الذي كان والدي خارج البلاد، الخمسة الذين قتلوا كانوا من أصدقائه وأصدقائي أيضاً».

□ «ولكن ليس هناك أي مبرر؟»

ورحت أقرأ: «بعد ذلك أعد مجموعة من خمسة وعشرين رجلاً كفريق مهاجم. ثم ولى هارباً إلى الجنوب مع هذه العصابة عند دخول السوريين بيروت الشرقية عام ١٩٧٦. وأحدثوا الرعب في القرى المسلمة الشيعية حتى طردهم الإسرائيليون ثم عاد إلى بيروت، حيث استمر كقائد لفرقة مهاجمة متحركة».

ـ «أيضاً من غير إقرار أو موافقة» قال بشير.

□ «وبعد أن قتلت مايا عينته كمسؤول عن الأمن؟»

ـ «ولكن جعلته تحت حكمي. وضعته على رسن».

□ «وكأنك أمسكت نمراً من ذيله».

ـ «أفضل من أن أتركه طليقاً؟»

وسألته المزيد عن حبيقة، لكنه لم يجب. نظرت إليه، فلاذ بالصمت.



صولانج الجميل مع ابنتها مايا

ـ ٥ ـ

حبيقة وحده شكك بي

كنت أقابل بشير كل ليلة ولوقت متأخر في بعض الأحيان، تأتي سيارة وتأخذني من أي مكان أكون فيه إلى مكتب بشير، كانت هناك صورة فوتوغرافية لابنته مايا تحتل موقعاً فوق طاولة صغيرة قرب مكتب بشير، محاطة بخزانتي كتب داخل الجدار، وأيضاً صورة لابن أخته ماديس الذي كان قد قتل في المعركة، هذه الصورة لفتت انتباهي بشكل خاص لأنها وضعت بشكل جميل داخل إطار فضي. وبينما أنا أراقب الصورة بإعجاب، أخذها بشير بعنف وقدّمها لي «خذيها» قال لي: «إنه ابن أختي».

وكانت تعلو وجهه مسحة حزن متلاشية كلما نظر إلى صورة مايا، وكنت أتعجّب في كل مرة من تعابيره الطفولية الصريحة والبريئة، وذكّرتني طفلته بطفلتي التي كانت تتوقع رجوعي إلى المنزل منذ أسبوع وكالعادة قد خيّبت أملها.

كنت أشعر بالذنب حيال ابنتي ذات الـ ١١ عاماً، التي كانت تعيش مع والدها الذي يهتم بشؤونها كثيراً كلما غبت عنها.

ولكن كنت أدرك أن ابنتي مستاءة، وهي تتوقع خيبات الأمل من والدتها، فما من مرة حدّقت في عينيها إلّا ورأيت ذلك السؤال غير المحكي: «متى ستتركيني هذه المرة؟».

لم يكن هناك أي حلّ جيد، كنت في بعض الأحيان أفكر بترك

مهنتي، لأفتش عن شيء آخر في حقل يتصل بالصحافة ويسمح لي بالعيش أكثر في الوطن، ولكن هذا كان يعني في الوقت ذاته، التخلي عن عمل أحبه وأتقنه جيداً. كنت أكره منذ طفولتي التخلي عن أي شيء، حتى دروس الباليه، التي كنت سيئة فيها. أن أحظى بـ «بيني»، وأن أحبها، قد أعطي حياتي بعداً لا يمكن لها أن تحصل عليه بطريقة أخرى، ولكن جزءاً من الثمن كان العيش مع تيار متواصل من الهم والقلق: أين هي؟ مع من هي؟ هل هي بخير؟ هل علاقتنا أنا وهي بخير؟

كان هناك لازمة لهمّي هذا، فإذا كنت أضحّي بجزء من سعادة ابنتي لأجل عملي فيجب على هذا العمل أن يستحق هذه التضحية، كان عليه أن يساوي تضحيتي وتضحيتها، وكنت أعلم أن هذه القصة عن الإرهاب كانت تتكلم عن كل هذا، ولهذا كنت مصرّة على متابعتها حتى النهاية، بل إنها أصبحت هاجساً عندي. فعندما لا أفكر بها، أجدني أخطّط لطريقة نشرها في دوائر الـ A.B.C. كنت أتوقع الرفض، لأن القصة التي كنت أجمعها عن لبنان قد سبّبت الإحراج للمؤسسات الإخبارية، بما فيها الـ A.B.C لأنها فشلت في نشر القصة سابقاً.

كنت آتي كل ليلة إلى مكتب بشير ساخطة ومتوترة، وغاضبة منه لأنه ألقى صراعه في حضني. وذات ليلة وقع نظري على صورة مايا، قلت له بحدة:

□ «ألا تشعر بالذنب لموت مايا؟».

نظر إلي وقال لي بهدوء ودون أدنى تردد «لا».

اللياقة كانت تتطلب مني أن أنهي الموضوع عند هذا الحد ولكني أصرّيت قائلة: «كيف تستطيع الإجابة بهذه السرعة؟».

ابتسم ابتسامة حزينة وقال: «لأنني فكرت بهذا الأمر عندما حصل، ولمرات عديدة منذ ذلك الوقت، كلا لا أشعر بالذنب».

لا توبيخ، كان شعوري يمكن أن يكون أفضل لو حصل أي شيء

منه، كنت أحارب دموعي وأصدّها، كان بشير قد توقف عن الكلام، وأنا أيضاً، كان يرشدني برفق شديد إلى آلام عالمه، وكنت قد بدأت اللحاق به بتردد.

كانت لقاءاتنا تدوم في بعض الأحيان لمدة ساعة فقط، وحتى الفجر في الأحيان الأخرى.

كنت أحتلّ أحياناً مقعداً في اجتماعات القيادة العليا لـ«القوات اللبنانية»، التي كانت تتم في أي وقت ما بين السابعة صباحاً والثالثة من صباح اليوم التالي، ليس فقط لأن بشير قد يعمل طوال أربعة وعشرين ساعة، بل لأنه كان ينتظر ذلك من كل من هو حوله.

كان بشير يصطحب معه مترجماً في هذه الاجتماعات، ولكني وجدت نفسي مفتونة به شكلاً ومضموناً. كان بشير يسيطر كلياً على هذه الاجتماعات، التي كانت تُدار بذوق متنافر في أمور الحياة والموت الملحّة وأطباع أعضاء المجلس المشاكسة، والذين كان معظمهم على خصومة حتى تاريخ ٧ تموز/ يوليو حين وحّد بشير صفوف المسيحيين.

وعندما كان بشير يطرح موضوعاً للنقاش، يسأل الحاضرين عمن يريد التكلم فيه، كان كل من يريد التكلم يرفع يده بينما يدوّن بشير أسماءهم على ورقة بيضاء صغيرة. كان يناديهم كل باسمه، كل واحد منهم يتكلم لخمس دقائق فقط، فيستمع إليهم بشير بصمت، وتبقى تعابير وجهه غير مقروءة، حتى يتكلم آخر عضو. ثم، وبرقة شديدة، يعلن عن قراره ويقفل الموضوع.

قلت له متعجبة ذات مرة «إنهم يتصرفون كفريق جامعي اجتمع لمناقشة موضوع ما، أكثر منهم أعضاء مجلس حرب». فردّ قائلاً: «أنا أجعلهم هكذا، ولكن لا تنخدعي، ما من أحد يجلس وراء مكتب، كلنا على الأرض، كلنا مقاتلون».

كنت في اجتماع مماثل حين وقع نظري للمرة الأولى على إيلي حبيقة، لقد كان أصغر رجل في المجلس ويبلغ من العمر ٢٤ عاما فقط في ذلك

الوقت، على الرغم أن الخطوط الخشنة في وجهه كانت تكذّب عمره الكرونولوجي. كانت نظرته متوعدة، فهو رجل ذو بنية متينة بشعره الأسود القصير على شكل خوذة، وهذه التسريحة كانت شارة رجال المخابرات في «القوات اللبنانية». كان متلبّد الحس باستثناء عينيه الحذرتين اللتين كانتا تتحركان دون توقف، ووجهه كان جامداً كلياً، لم يكن هناك أي شيء سهل في مظهره ولا حتى في مُزاحه المحسوب. تكلمنا بإيجاز بعد الاجتماع، أخذ معظم أعضاء المجلس المثل من بشير وتعاملوا معي بلباقة وصراحة، فقط حبيقة كان جافاً معي ومشككاً، كان يدهشني كرجل حذر، غير مندفع، وغير راغب في ترك أي شيء للصدفة.

معظم اجتماعاتي مع بشير التي تمتد حتى آخر الليل كانت تتم في مكتبه ولوحدنا، كان كل منا يدرك حميمية المكان. وأن أقول أنني كنت منجذبة إليه فهذا أمر باهت وغير متصل بالموضوع، بل كنت أشعر بأن ما سيحصل بيننا كان مؤكداً وكأنه قد حصل فعلاً ـ والذي كان قد حصل، إلى حد ما، لحظة لقائنا الأول. الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع التحكّم به هو التوقيت، وكان واضحاً لي، وليس لبشير، بأنني لن أسمح لمشاعري أن تشغلني عن عملي، فقط عند انتهاء القصة سيكون باستطاعتي التصرّف على نحو ما أشعر به الآن، بحرية.

كان مجيء جيرالدو بمثابة فرج لي، لقد ردّني إلى عالمي، كان لجيرالدو التقدير بين المذيعين، وهذا يعني أن عدداً كبيراً من مشاهدي التلفزة يعرفون من هو ويراقبون الشاشة فقط لمشاهدته، هذا الأمر يغيظ العديد من الصحافيين، بل إنهم يتهمون جيرالدو بأنه مخرج مسرحي أكثر منه صحافي، ولكن كنا قد عملنا معاً لسنوات عديدة وعرفته كرجل ذكي جداً، وككاتب ممتاز، لم يسبق له أن شعر بالذعر إزاء أوضاع ضيقة، وكنت أتكل عليه لنشر الأفضل في أية قصة.

كنت قد حجزت لكل منا في فندق «الكومودور» وفندق «ألكسندر»، لكي أقلّل من تنقلاتي في المدينة. وبما أن جيرالدو كان

متحمساً لإعداد اجتماعات مع منظمة التحرير، وكنا ما نزال نأمل في مقابلة رئيسها عرفات وبعض قادة المنظمة الآخرين، فقد خطّطنا للاجتماع في بار فندق «الكومودور»، كانت تلك المرة الأولى التي أزور فيها «الكومودور» والفوارق بين الفندقين كانت واضحة.

ففندق «ألكسندر» كان مكاناً كئيباً ومملاً، وهادئاً عند الظهيرة كما هو في منتصف الليل، ومعظم زبائنه كانوا من السياح الأوروبيين وزائرين لبنانيين للعاصمة. كان موقع «الكومودور» يلي شارع الحمراء مباشرة في بيروت الغربية المسلمة، كان كبيراً وعادياً جداً، وكان بار الفندق يمثل ملتقى كل الصحافيين في بيروت، وأناس من مختلف الجنسيات يحومون في أروقة الفندق، وأكثرهم كانوا وكلاء لبلاد ومصالح شتى ولكن لا أحد منهم كان يعرّف عن نفسه، فهنا الصحافة الخارجية والسلك الدبلوماسي، والجواسيس يأتون معاً لأخذ المعلومات من بعضهم البعض، وكان المكان محمياً بطريقة جيدة.

وكانت تسيطر على الفندق مصالح على صلة بمنظمة التحرير الفلسطينية، وعلى عكس فندق «ألكسندر»، فإن العاملين هنا كانوا متكيفين مع الصحافة، فما من خدمة إلّا ويسدونها: ممرات أمينة عبر مناطق خطرة، تقديم مساعدة إلى قادة منظمة التحرير، تقديم مساعدة تختص بأفكار القصة وإنجازها، خدمات تلكسية (مراقبة)، حشيشة، نساء أو فتيان. وإذا سمحت لهم، فإنهم يضبطون لك ساعات الاستيقاظ، حتى أنه لن يكون هناك أبداً وقت كاف للعبور الخطير إلى الجهة الثانية.

كنت جالسة في البار عندما مشى جيرالدو وطاقم الـ «٢٠/٢٠» إلى ردهة الفندق ومعهم جيري كينغ، رئيس مكتب الـ A.B.C في بيروت، الذي أتى بهم من المطار.

□ رآني جيرالدو وتقدّم نحوي قائلاً: «إذا، باسي، كيف هو البحر؟».

- «رائع»، ردّيت قائلة: «لقد اخترت لك عشرات من الفتيات الجميلات وكلهن من المضيفات».

□ «إنجاز جيد»، قال لي، «إذاً، ماذا في الأمر؟».

شرحت له مختصرة كل ما قمت به، ووجهة نظري عن القصة:

«القصة المسيحية غير قابلة للتصديق، الكل ينظر إليهم كفاشيست قساة، وهذا لأن ما من أحد أخذ الوقت لسماع روايتهم من القصة. يشعر المسيحيون أن بلادهم تُسلب منهم، رُمي الآلاف منهم خارج منازلهم بعد مجازر منظمة التحرير الفلسطينية في قراهم، لقد رأيت صوراً فوتوغرافية فظيعة أكثر مما تستطيع تصوره».

كان جيرالدو يصغي إليّ باهتمام، ثم سأل «من يتكلم معك باسمهم؟».

- «بشير الجميل»، قلت له ولم أضف شيئاً.

رفع جيرالدو حاجبيه.

- «احكم بنفسك». قلت له.

□ «أهذا كل شيء؟».

- «إنه مختلف، هذا كل ما سأقوله إلى أن تقابله».

□ «ومتى سيكون هذا؟» سألني.

- «الليلة عند العشاء، ولكن أين سنمكث؟ لا نستطيع عبور الخط الأخضر في الليل؟».

□ «ولم لا؟».

ورأيت ما هو حاصل. أنا وجيرالدو سنعبر الخط الأخضر، على الرغم من التحذيرات من كل الجهات.

اقترب منا مدير «الكومودور» وانحنى لي ببرودة ثم طلب التحدث مع جيرالدو على انفراد، وبعد بضع دقائق رأيت جيرالدو جالساً على

مقعد إلى جانب شقراء.

ثم ما لبث أن عاد ثانية إلينا.

- «إذاً» قلت له.

□ «أهدوني ملكة جمال هولندا» قال لي.

- «ملكة جمال هولندا لعام ١٩٠٣» عقّبت قائلة.

لاحظت أن مصوّرنا والطاقم يتشاورون، لقد قدمت لهم إدارة الفندق الحشيش، كالزهور والشمبانيا التي تمنحها مؤسسات أكثر تقليدية، أما أنا فلم أمنح أي شيء، وتساءلت إذا كان السبب كوني أمكث في الجهة المسيحية أو لأنني امرأة.

انضمّ إلينا جيري كينغ في البار، كان رجلاً طويلاً، ولطيفاً، وكان يبدو متحمساً للمساعدة، وتأسف لأنه كان خارج البلاد عند وصولي.

أخبره جيرالدو أن قصتنا عن الإرهاب، وبأننا كنا في إسرائيل وقمنا بتصوير سجناء منظمة التحرير هناك. وشرح له بأننا نريد مقابلة ياسر عرفات، حتى نحصل على الجانب الآخر من القصة. اختفى كينغ ثم عاد بعد بضع دقائق قائلاً: «إن عرفات خارج البلاد وعلينا أولاً أن نذهب إليه عن طريق محمود اللبدي السكرتير الصحفي لعرفات». وكان علينا أن نذهب في الحال.

نقلتنا سيارة جيري إلى مركز قيادة منظمة التحرير والذي كان موقعه في منطقة سكنية في بيروت. يهاجم الإسرائيليون دائماً تمسك منظمة التحرير في إقامة مراكزهم في الأحياء السكنية، ولكن لوقت طويل ثبت أنها خدعة نافعة، فالإسرائيليون، كما اكتشفوا بازدراء، يزعجهم ضرب المدنيين.

قابلنا اللبدي فور وصولنا.

□ «نحن على علم أين كنتم، نعلم أنكم قادمون من إسرائيل».

تجاهل جيرالدو عدائية اللبدي وقال:

- «هذا صحيح، ونحن هنا الآن لإعطائكم الفرصة لقول موقفكم من الموضوع. لقد آرانا الإسرائيليون نخبة مقاتليهم وسمحوا لنا بالتحدّث مع قادتهم. لقد استطعنا أيضاً مقابلة سجنائكم هناك، إننا نطلب المثل منكم».

□ «ستتعاون إلى هذا الحد» رد اللبدي على الفور «وسنأخذكم إلى المناطق التي قصفت فيها إسرائيل المدنيين، وستقومون بتصوير المستشفيات والضحايا، ستظهرون للعالم الوجه الحقيقي للصهيونية».

- «إذا كان هذا هو ردك على الإدعاءات الإسرائيلية ضدكم، فإننا سنضيفه، ولكن ليس كقصة كاملة. نريد أن تتاح لنا الفرصة لنرى تدريب منظمة التحرير، كما فعلنا مع إسرائيل، وأيضاً مقابلة قادتكم كما قابلنا قادتهم».

□ «لا نوافق» قال اللبدي.

- حاول جيري كينغ التدخل لصالحنا قائلاً للبدي إن وجودنا دليل كافٍ بأننا ننوي إجراء قصة متوازنة. وعدّد له أمثلة من الماضي عن إنصاف الـA.B.C . . .

كل هذا لم يجعل اللبدي يغيّر موقفه،كان رده الوحيد لجيرالدو هو أن يتقبل هذا العرض أو يرفضه.

«إنك تحاول مراقبتنا سيد لبدي» قال جيرالدو وهذا ما لم نسمح للإسرائيليين بفعله، ولن نسمح لكم عمله، إذا غيّرت رأيك فإننا نحب أن تقول لنا موقفكم من الموضوع.

تصافحنا ببرودة ورحلنا. كان لبدي رجلا صارماً وعنيداً. تجذب الثورات والقضايا عدداً لا بأس به من الأشخاص المضطربين عقلياً، أو المؤمنين الحقيقيين بها. وأنا أضع اللبدي في الفئة الأولى. وبعد بضع سنوات سيتهم اللبدي عرفات بالخيانة لأنه أصبح معتدلاً وينضم إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة. وهي واحدة من الفئات الأكثر تطرفاً في الجبهة الرافضة.

كان الليل قد أسدل ستائره عندما أوصلنا كينغ إلى الكومودور. ذهبنا إلى غرفنا، واستحمينا ثم عدنا إلى الردهة في الوقت المحدد. كل ملابسي كانت ما تزال في فندق ألكسندر. كلّفنا جهداً إيجاد سائق يعبر بنا من بيروت الغربية إلى بيروت الشرقية ومن ثم إلى بيروت الغربية. وعندما رأيت ردة فعل سائقي سيارات الأجرة المخيفة تساءلت كيف وافقت مع جيرالدو على هذا العمل المخيف.

«أنر المصابيح الداخلية» أمر جيرالدو السائق، «سيصبح الأمر أسهل إذا رأوا أننا غير مسلحين».

توقفنا عند حاجز سوري يقوم بحراسته ستة جنود في الخط الأخضر.

تقدم منا أحدهم وطلب منا جوازاتنا، واستطاعت جوازاتنا الأميركية أن تدعنا نمر بأمان.

اتصلت ببشير فور وصولنا إلى فندق ألكسندر. وبعث بدوره سيارة لتجلبنا إلى مكتبه.

كنت أتوق لهذا اللقاء الأول بين جيرالدو وبشير. كان جيرالدو من الأشخاص غير العاديين، يحب معالجة الحروب، ويحب أيضاً الرجال الأقوياء. وكان بشير البند الحقيقي، لم أستطع الانتظار لأرى تفاعلهما مع بعضهما البعض. وبعد المقدمات الموجزة، دخل جيرالدو في الموضوع:

□ «يفكر المجتمع العالمي بك كرجل خارج عن القانون، رجل يجعل السلام في الشرق الأوسط أكثر صعوبة»؟

- استمتع بشير بالسؤال وبصراحته. نظر إلى جيرالدو وقال: «ما نقوله هو بالتحديد ما لا يريد أحد أن يسمعه. نحن الدولاب الذي لا يستطيعون تزييته».

□ «وما هو الذي تقولونه ولا نريد الاستماع إليه؟»

- «إنك على علم به» قال بشير، «هناك أمة إضافية في هذا الجزء من العالم وهي الشعب الفلسطيني، يريد أصدقاؤنا في الغرب تسوية المشكلة الفلسطينية لكي يكسبوا دعم وبركات زعماء النفط. ولهذا قرروا أن يدفع الشعب اللبناني الثمن. إنهم يبيعون أحد أصدقائهم لإرضاء أعدائهم».

□ «هل أنت حاقد على الولايات المتحدة لأنها لم تدعمك أكثر؟»

سأل جيرالدو وبحدة وهو يتأمل بشير بشدة محيرة. كنت أعرف زميلي بما يكفي لإدراك هذا النوع من الكلام، وللحظة أحسست بالارتياح كوني لست وحدي.

- «بسبب الجبن ونقص القيادة المعنوية للغرب، ليس لدينا القيادة القوية التي نحتاجها لمواجهة الابتزاز التهديدي لمنظمة التحرير والمتطرفين اليساريين. والآن نحن ندفع، ولكن أنتم أيضاً تدفعون ثمناً مخيفاً، لأننا نحن النظام الوحيد المناصر للغرب من بين كل الدول العربية».

تنفس جيرالدو بحدة وأطلق ضحكة صغيرة، ثم نظر إليّ واستطعت أن أرى ما كان يفكر به. إنه من النادر لقائد سياسي، وخاصة لمن يحتاج الدعم والمساندة من الولايات المتحدة، أن يكون صريحاً هكذا. إنه أمر مثير للدهشة إنه آتٍ من هذا الصبي ذي الوجه الطفولي، البالغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً، وبرغم حداثة سنه فقد نجح في توحيد أعظم قوة محلية في لبنان. مشينا أنا وجيرالدو بصمت خارج مكتب بشير وتوجهنا نحن الثلاثة إلى العشاء.

- ٦ -

الولد الشقي.. نصف إله

التقينا وجيرالدو باكراً في صباح اليوم التالي لتناول طعام الفطور، أما بقية الفريق فقد بقي في بيروت الغربية ثم أتى لملاقاتنا في فندق «ألكسندر»، وكان هذا أول يوم للتصوير.

أما بيار يزبك فكان قد تحرّر من أداء دور المساعد لنا، (وهذا شيء أراحه كثيراً وإن لم يشأ أن يظهر هذا للآخرين)، ليحلّ محله فادي حايك وهو شخص مقرّب من بشير الجميل. حايك المحامي، كان متكلماً عادياً يجهده ويتعبه حتى القليل من الكلام. وعلى خلاف يزبك الذي كان يرتدي الملابس الأوروبية، فإن حايك كان يرتدي بدلة عسكرية رثة ومشقوقة وجزمة بالية. خلال أسبوعين فقط من التصوير، كان لدينا خطة ساخنة، وحايك كان يقود بنا في جيب كبير بأقصى سرعة. ولسذاجتي، كنت أظن أن الإسرائيليين فقط سائقون متهورون.

كان اليوم مشمساً ورائعاً، ولكنه قارس في جبال المتن، والمناظر حولنا مثيرة للغاية، فالشلالات تظهر في طريقنا عبر الجبال، وكأنها من لا مكان، وعند صعودنا إلى الأعلى توقفنا لرؤية وادٍ أخضر شاسع المساحة، وعلى خلاف غابات الصنوبر المتفرقة في إسرائيل، فإن هذه الغابات كانت سريعة الزوال، كانت الأرض مغطاة بسلسلة من النباتات تتراوح ألوانها من الذهبي إلى الزمردي وإلى لون الغابة

الأخضر الداكن، وكنا نمرّ بصليب على جانب الطريق كل بضعة أميال. نحن الآن في الأراضي المسيحية، وسنقابل لتونا المدافعين عنها، وهم مقاتلون غير محترفين، ولكن أغلبهم من المتطوعين كبشير وضعوا حياتهم للحالات الطارئة، وفي الحياة الواقعية، كما كانوا يحبون تسميتها، كانوا أطباء، ومحامين، وميكانيكيين، وفلاّحين ومحاسبين.

وعلى الرغم من أنني كنت قد علمت أن منطقة جبال المتن هي معقل أمين الجميل، إلاّ أنني رأيت عند دخولنا مقر قيادة الجبل ملصقاً كبيراً لبشير وهو يرتدي البدلة العسكرية.

وبينما كنت أتمشى حول المخيم وبرفقتي مترجم، وأتحدث مع رجال اخترتهم عشوائياً، أدهشني أن بشير لم يكن يكبر سناً معظم هؤلاء المقاتلين، ومع ذلك، في كل مرة كانوا يتحدثون عنه بخوف، وقد رأيت من قبل كيف يسود الصمت الدراماتيكي المجموعة عند دخول بشير، إلاّ أنني ما أزال أتعجّب عند رؤيتي هؤلاء الرجال وعيونهم تطالعك بحزن صامت خجول عند تحدثهم عنه.

□ «لم تعاملون بشير هكذا؟» سألت أحد الجنود، «إنه يماثلكم في العمر، ولكن تتصرفون وكأنه إله، هل السبب لأنه من آل الجميل؟».

- فما كان من الجندي إلاّ أن ضحك وقال: «أمين أيضاً من آل الجميل»، قالها وكأنه وجد جواباً لسؤال لا جواب له.

□ «ماذا إذاً؟».

- «بشير شهيدنا».

سرت في جسدي رجفة، كان قد تكلّم بوضوح، إلاّ أنني ظننت أن واحداً منا قد أساء الفهم.

□ «ماذا تعني؟».

هزّ كتفيه بقلق، وجاءني الأمل.

□ «هل تعلم ماذا يعني شهيداً؟».

- «طبعاً»، قال.

إذاً، إنه يعلم ماذا تعني كلمة شهيد.

□ «هل تظن أن بشير سيموت؟». سألت وأنا أحدّق في عينيه، وفكرت بالفجوات التي أحدثها الرصاص في شرفة منزل بشير والسيارتين المفخختين اللتين نجا منها، الأولى في العام ١٩٧٩، والأخرى راحت ضحيتها ابنته مايا.

- «سنموت كلنا لأجل القضية إذا كان علينا أن نموت»، قال الجندي بحدة ونظر بعيداً وانتهى الحديث.

كنا نريد تصوير رجال بشير وهم يواجهون السوريين عبر الوادي الضيق، ولكن ما أن هيّأنا الكاميرات حتى انطلق الجنود مع بعضهم البعض وبنادقهم في أيديهم، آخذين وضعية جدية للغاية وكأنها من القرن التاسع عشر.

□ «دعكم من هذا؟» أمرتهم.

وأعدنا الكرّة مرة ثانية، وثالثة. وفي كل مرة تدور الكاميرا، كانوا يعودون إلى وضعيتهم الأولى.

أخيراً لم أعد أحتمل الأمر.

«اقطع التصوير». صرخت ثم توجهت نحو الجنود ونزعت منهم بنادقهم ورحت أضربهم على ظهورهم بعنف لإجبارهم على الاسترخاء. بدوا لي محرجين أن يجدوا أنفسهم يخضعون لضربات عجوز مشاكسة طولها خمسة أقدام، ولكن محاولتي لم تنجح، جيرالدو أيضاً الذي كان يصرخ ضاحكاً لم ينفعني بشيء.

- «كوني حذرة يا بابسي»، كان يصيح عالياً، «عامليهم كما تعاملي الطاقم، قد يطلقون عليك الرصاص».

تابعنا رحلتنا إلى قرية مسيحية هوجمت مراراً وأصبحت أخيراً تحت حماية «القوات اللبنانية».

والجنود لم يوفروا للقرية الحماية فحسب، إنما كل مظاهر النظام والأمن. في السنوات الماضية وعندما كان الوضع خطيراً، هرب أساتذة مدرسة القرية. والآن حلّ محلهم الجنود، راقبناهم وهم يدرّسون الأطفال، كانت تجربة غريبة ولكن مؤثرة أن نرى هؤلاء الرجال الصارمين وهم يعاملون الأطفال بهذه الرقة، ولكنهم، مع ذلك، كانوا يجدون هذا الأمر امتداداً طبيعياً لواجباتهم.

أحد الجنود ـ الأساتذة، قال لي «نحن نعيد البناء لأجل هؤلاء الأطفال، منّا سيتعلمون ما نحارب لأجله، ولماذا لا يجب أن نقبل بأية تسوية مذلّة لوحدتنا الوطنية».

ذكّرني هذا مرة ثانية بالإسرائيليين الذين كانوا يستخدمون جنودهم كأساتذة في المناطق الخطرة والجانبية، وكان لديهم أيضاً محطة راديو يمتلكها الجيش، ومستشفيات ومستوصفات. بدا لي أن بشير كان يتخذ قوات الدفاع الإسرائيلية كنموذج لـ «القوات اللبنانية».

حذفنا ساعتين من البرنامج المقرر وسارعنا إلى موعد غداء مع بعض قادة أقاليم «القوات اللبنانية» ولاحظت أثناء الغداء أن قادة بشير كانوا لبقين للغاية، ويتكلمون برقة، ويأكلون ببطء، وكأن أمامهم الوقت كله.

الاستثناء الوحيد كان فادي حايك، فقد كان يتململ بعصبية، وينظر إلى ساعته بين الفينة والفينة، ويتمتم، كان من الواضح أنه محبط من عدم قدرته على فعل ما يريد وهو أن يرمينا داخل الجيب ويقودنا إلى بيروت، كان من المقرر أن نصوّر بشير وهو يخطب في اجتماع أسبوعي لحزب الكتائب في بيروت.

إلّا أن حايك سمح لنفسه أن يثور ولو لمرة واحدة وكان هذا في طريق عودتنا عندما شكونا من سرعته الجنونية في القيادة.

«إن بشير ينتظرنا». صاح بنا برعب. كان الاجتماع قد انتهى عندما انطلقنا داخل الحاجز خارج مركز قيادة الكتائب في منطقة

الأشرفية في بيروت الشرقية، حيث عمل بشير كرئيس للفرع منذ أوائل السبعينات.

قد يظن المرء أنه بعد مرور وقت طويل كهذا، يعتاد الناس على بشير ولكن رأيته واقفاً في الخارج وحوله حشد كبير من المعجبين.

رآنا على الفور وتوجه نحوي، اعتذرت له عن عدم قدرتي حضور الاجتماع، هزّ كتفيه لامبالياً وقال: «كنت أعلم أنه لن يكون لديك الوقت الكافي».

كان هناك علامة حمراء على الكتف الأيسر لسترتي، لمسها بيده، وشدّني إليه: «ما هذا؟ ليس دماً؟».

□ «أحمر شفاه»، قلت له مرتبكة من قربه.

ـ «هل أنت تعبة؟» سألني برقة.

□ «أنا بخير».

ثم جاء الآخرون لأخذي إلى العشاء مع فادي حايك، وجيرالدو والطاقم، تحدثنا حول عمل النهار وخطّطنا لليوم التالي.

بدأ الهاتف يرن لحظة دخولي إلى غرفتي في الفندق، وكان صوت بشير: «هل تقبلين دعوتي إلى العشاء؟»، كنت متأكدة أنه يعرف بأنني تناولت طعام العشاء، إنه يتعقّب كل تحركاتنا.

«طبعاً» قلت له، ولأول مرة منذ وصولي إلى بيروت، اهتممت أكثر بمظهري وارتديت الثوب المفضل لدي.

كان المركز الرئيسي لبشير مهجوراً، باستثناء السكرتيرة وبعض الجنود.

ـ «أشكرك على المجيء» قال بشير «هل عندك أي مانع إذا أكلنا في المكتب؟».

ـ «أبداً» قلت له.

أعدّت لنا ايزيس مائدة الطعام، كان بشير على الهاتف وبعد لحظات غادر الجميع المكان وجلسنا لتناول الطعام.

- «أنت تعبة دون شك» قال بشير. وكأنه أمضى يومه على شاطىء البحر. وأضاف: «كم تبدين رائعة؟».

□ «لأنني كنت أتشوق إلى رؤيتك».

عيناه كانتا تضحكان. اقترب نحوي، فقلت: «بشير، حصل شيء ما اليوم».

- «ماذا حصل؟» قال بصوت منزعج.

«هذا أمر جدي».. أصرّيت. «لقد ناداك أحد الجنود اليوم بالشهيد. ماذا كان يقصد؟ سألته إذا كان يظن أنك ستقتل؟ ولكنه لم يرد. ما هو مقدار الخطر الذي أنت فيه؟».

- هز كتفيه بدون مبالاة وقال: «لا أفكر بما سيحصل، في الوقت الحاضر أفعل ما عليّ أن أفعله».

لم أحب «في الوقت الحاضر» فقلت: «من الغرابة أن أسمعك تؤمن بالقضاء والقدر وقد راقبتك وأنت تشتغل. أنت تجعل الأشياء تحصل. قال كيمحي إنك الوحيد القادر على توحيد المسيحيين، ومما رأيته منك، أستطيع القول إنه على صواب».

- «لأن هذا هو قدري، ولكن لا أستطيع التحكّم بالنهاية؟».

□ «أنت تؤمن بالقدر؟» سألته.

- «كذلك أنت» قال. «أعرف هذا لأنكِ وجدتِ قدرك».

□ «وما هو؟» سألته.

- «أن تقولي الحقيقة عن لبنان». ابتسم بشقاوة. «وماذا تظنين أنني قصدت؟».

حدّقنا ببعضنا البعض حتى شعرت أنني إذا تماديت أكثر سيصبح الموقف خطراً.

ثم قال: «في عام ١٩٧٠، كان عمري آنذاك، ثلاثة وعشرين عاماً، التقيت بجمال عبد الناصر، كان ابنه صديقي، ودعاني إلى القاهرة كان ناصر يؤيد كل الأمور التي كنت أرفضها، القومية الموحّدة، واستبداد الأكثرية المسلمة. كنت أكره سياسته ولكن كنت أحترم الرجل كوطني عظيم. أخذني صديقي إلى مكتبه وقدّمني إلى والده. صافحني ناصر وحدّق في عيني وكأنه يقرأ روحي. ولوقت طويل لم ينبس بشيء، ولم يترك يدي، وبدأت أتساءل إذا اقترفت خطأ ما. «أرى في عينيك أنه مقدّر لك أن تقود لبنان إلى الحرية!». وكان هذا كل ما قاله لي.

□ «وصدّقته؟».

- «صدّقت هذا لأني أعلم أنه صحيح. فقط أنني لا أعرف كم من الوقت لديّ».

□ «تقصد أنك لا تعلم كم ستعيش؟» قلت مستوضحة.

- حنى رأسه وقال: «ومن منّا يعرف؟ هذا أحد أسباب اندفاعي بهذا الشكل».

□ «وما هي الأسباب الأخرى؟».

- «مايا» تمتم قائلاً. «هناك شيئان يؤثران بي يا باربرا. حادثة مايا (لا يستطيع أبداً قول مقتلها) وخطفي. هذه الأشياء حددت القوة بداخلي، وركّزت انتباهي وحوّلتني من صبي لبنان الشقي إلى قائد».

□ «خطفك؟» سمعت نفسي تقول.

- «أجل. حصل هذا في تل الزعتر عام ١٩٦٩. كنت أول لبناني تخطفه منظمة التحرير الفلسطينية. وأي شرف، أليس كذلك ياباربرا؟»

لم يثرني هذا. قلت باهتمام، «ماذا حصل؟».

- «أوقفوا سيارتي وأخذتني مجموعة من منظمة التحرير إلى بيت في تل الزعتر. ضربوني قليلاً. لا شيء مخيفاً. ولكن بعد ذلك جاء إلى الداخل رجل لم أره من قبل يحمل فأساً». وصمت بشير.

كان وجهه صارماً باستثناء ارتعاشة غير ملحوظة في فمه.

□ «وماذا فعلت؟».

- «لا شيء» قال برقة. وأضاف: «نظر الرجل إليّ ونظرت إليه. ورأيت أنه كان ينوي قتلي. جلب الفأس إلى رأسي ببطء، وأجرى قياس المسافة، ثم لوّح بها إلى الوراء. وفجأة اقتحم الغرفة رجل آخر، وانتزع منه الفأس ورمى بها إلى الأرض».

استرخيت قليلاً في مقعدي. وبعد لحظة تابع بشير.

- «كانوا قد اكتشفوا من أنا وكانوا خائفين، لم يكن لمنظمة التحرير القوة في تلك الأيام كالتي تتمتع بها الآن، والفضل لإهمالنا. وقد هرول حوالى عشرة أشخاص إلى الغرفة حيث كنت مسجوناً. «سوف تلحق بنا». قالوا لي: سنضع يديك داخل جيوبك وتمشي بلا اهتمام، وكأنك واحد منا، لن تُحدث أي إزعاج.

حسناً، قلت لهم، ومشيت معهم إلى سيارة قادوني أولاً إلى مكتب للمنظمة في شارع الحمراء ثم إلى نقطة تبعد أميالاً عديدة عن منزلي في الأشرفية حيث تركوني. وسرت إلى المنزل.

وعندما وصلت إلى شارعنا، رأيت جمعاً أمام المنزل، كانوا يلوحون بالأسلحة، ويبكون ويهتفون باسمي. وما إن رأوني حتى هرعوا إليّ وبدأوا بفحص أصابعي، وأنفي وأذناي ليتأكدوا أنها ما زالت في أماكنها».

□«وماذا حصل بعد هذا؟» سألته.

- «اتصلت بوالدي، كان وزيراً في الحكومة آنذاك. كان مكتبه مضطرباً. قالوا لي أنه في اجتماع طارىء في القصر الرئاسي. اتصلت بالقصر وطلبت التكلم مع الشيخ بيار الجميل.

صاح الرجل الذي ردّ علي: لا أستطيع الاتصال به الآن، ألا تعلم ما حصل؟ وأقفل الخط. اتصلت ثانية وقلت: أنا بشير. هل

أستطيع التحدّث مع والدي؟.

سادت لحظة من صمت ثم صاح الرجل. حقاً؟.

- حقاً؟ أين أنت؟

□ في المنزل.

- حقاً في المنزل؟ وسمعته يقول: لقد عاد! لقد عاد!. جاء والدي إلى الخط، كان صوته متوتراً.

من هذا؟ سأل.

أبي، أنا بشير.

هل تأذيت؟.

أنا بخير، قلت له. والتقط أنفاسه».

نظر بشير إليّ، كنت أدوّن ما كان يقوله. ثم توقفت. «ولكني لم أكن بخير، كنت مصدوماً، كنت مذلولاً».

□ «وهذا ما تكرهه أكثر من أي شيء آخر» قلت له.

- «نعم. ولكن هذا الذل لم يكن لي وحدي، ولكن لشعبي. أن نكون نحن شعب هذا البلد معرضين لاعتقالات اعتباطية من قبل الغرباء. وعاجلاً بعد تحريري، انطويت على نفسي في المنزل، رافضاً الخروج لمدة أسبوع. لم أر أحداً ولم أكلّم أحداً، كنت بحاجة لوقت للتفكير. كان من الضروري أن أفهم ما حصل لي».

□ «وهل فهمت؟» سألته.

أومأ رأسه بالإيجاب، ولم تفارق عيناه عيناي. «ما حصل لي هو بالتحديد ما هو حاصل لبلدي. من قبل، كل ما كنت أفعله كان مبنياً على النظريات، ومطعماً بحاجة طفولية لأن أكون في المعركة. الآن أصبح الأمر وكأن أفكاري استقرت في جلدي، جلدي الذي شعر بسوط الاحتلال. فقدت السيادة على جسدي» قال وهو يراقبني

ليرى إذا كنت أفهم ما يقوله: «نوع من الاغتصاب».

كان طعامي قد برد، ولكن لم أكن أشعر بالجوع على أي حال.

□ «قلت لي إن هذا علّمك، كيف؟ هل جعلك تكره الفلسطينيين؟».

هزّ بشير رأسه بنفاذ صبر. «لقد علّمني أن أنظر إلى جذور المشكلة، لقد أظهر لي أن لا الفلسطينيين ولا السوريين هم الخطر الحقيقي للبنان، ولكن نحن، لأننا غير موحّدين. كنت قد اكتشفت أن بنيتنا الاجتماعية والسياسية، ونظام البقشيش، ومكافآت الحكومة الباهظة الثمن، والرتب العسكرية التي تمنح على أساس اسم العائلة والدين بدلاً من الاستحقاق عزّز انقسامنا الداخلي. ولكني أدرك الآن، أنني كنت على اقتناع كلي، أنه لن نسترجع سيادتنا ما لم نتوحّد؟»

□ «فخططت لتوحيد المسيحيين؟» قلت له.

فرد بجدية: «ليس فقط المسيحيين، بل كذلك المسلمين والدروز».

□ «بهذه البساطة؟» قلت ضاحكة.

ـ «كنت الرجل الذي رأى ما يجب عمله» شرح لي ببساطة وعفوية.

«إنه شهيدنا» قال الجندي. وبشير قد قال، «لا أعرف كم عندي من الوقت». استحضرت هاتين الجملتين معاً في تخيّل المستقبل وهذا ما جعلني أصرخ في هلع. انحنى بشير نحوي وضمّ وجهي بيديه. ورن الهاتف.

تمتم بشير وذهب على الفور ليرد على الهاتف، تكلّم بضيق، وهو يراقبني كل الوقت.

تطفل رنين الهاتف أعادني إلى الواقع. لا أستطيع أن أفعل هذا. لم أهتم، في تلك اللحظة إنه متزوج، لا دخل لهذا الشيء الذي كان

يحول بيننا بهذا.. إنه يخص مهنتي. لم أستطع، لم أستطع تسوية هذه القصة لأي شيء، إلّا أنني كنت ما أزال أشعر بدفء يديه على خدودي، وأنفاسه في وجهي.

وما إن أقفل الخط حتى قلت له إنني لم أعد أستطيع فتح عيني وبأني أريد العودة إلى الفندق.

ـ «سأقودك إلى هناك» قال على الفور.

□ «كلا» قلت له بحزم.

وظهر أحد حرّاسه بعد دقائق قليلة. مشى معي بشير إلى السيارة وعندما قبلته على خدّيه، ترك أحمر الشفاه أثراً واضحاً على وجهه. لم أقل شيئاً. كنت أريد ترك علامة مني على وجهه. وعندما دخلت الردهة في فندق ألكسندر سمعت هدير سيارة داخلة إلى الممر الداخلي. استدرت إلى الوراء لأرى بشير في السيارة. لقد لحق بي. فهرولت إلى المصعد وأقفلت الباب ورائي.



- ٧ -

بشير . . . وداعاً!

أمضينا آخر يوم لنا في بيروت ونحن نصوّر مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، لم يغيّر محمود اللبدي من موقفه السابق واستطاع جيرالدو أن يعمل من وراء ظهره. دفع مئات الدولارات لقائد إحدى مجموعات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين المعارضة، لتأمين الحماية والقيام بجولة في مخيم للاّجئين، وكانت هذه الفئة من منظمة التحرير ترفض أي تفاوض مع «الوجود الصهيوني» أي إسرائيل.

وجاء مرشدنا محمّلاً ببعض الأسلحة الخفيفة التي زوّده بها العاملون في فندق «الكومودور» وقادنا مع صديق له إلى مخيم اللاجئين في منطقة برج البراجنة، كانا شديدي العصبية ودائماً على أهبة الاستعداد لمواجهة أي مشكلة، وأخذا يضغطان علينا أثناء التصوير كي لا ينكشف أمرنا.

والمخيم كان واحداً من سلسلة المخيمات الموجودة في بيروت الغربية ويحيط بمنطقة المطار. كان مكاناً يضج بالنشاط والحركة، الأطفال يركضون هنا وهناك بتصميم على أداء مهماتهم الخفية. والنساء تروح وتجيء محملة بالخضار من السوق. أما جنود المنظمة فكانوا يركبون في شاحنات، وعلى الرغم من أنني لم ألاحظ أي اختلاف في الزي أو الشارة، ولكن الذين كانوا معي عرفوا منذ اللمحة الأولى إلى أية زمرة تنتمي كل مجموعة. كان يسود المخيم جو من الفوضى شعرنا

معها أنه علينا أن نسرع في الدخول والخروج لأنه في مكان كهذا قد نختفي دون أن نترك أي أثر. كان السلام يعمّ المخيم لكنه سلام مهزوز، فكما كان الحال مع المسيحيين قبل أن يوحدهم بشير، كذلك فإن الفلسطينيين كانوا منقسمين. ففي الوقت الذي كان فيه ياسر عرفات قائداً لمنظمة فتح، كان أيضاً رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ككل، ومع ذلك، كانت منظمة التحرير تشتمل على فئات كثيرة، تتكفّل بعضاً منها سوريا، والعراق، وليبيا، وهذه الفئات كانت تناضل ضد إسرائيل أكثر من فتح. ودورياً، تحولت التوترات بين هذه الفئات إلى اشتباكات . . . إلى معارك دامية، بأمر من قيادات هذه الفئات، التي كان يلائمها أن يتعاركوا بالوكالة. في ظل الأوضاع الضاغطة في المخيمات كان يبدو للمرء أن هذه الانفجارات كانت أشبه بالحمم التي يقذفها البركان المتفجر.

وبالفعل ففي الوقت الذي أكتب فيه هذا الكتاب هناك معارك تدور بين جنود فتح وبين فتح ـ الانتفاضة التي تدعمها سوريا، في مخيم برج البراجنة.

عبرنا الخط الأخضر عند العصر لحضور عشاء وداعي مع بشير وبيار يزبك وفادي حايك. كان بشير قد اختار مطعماً يقع في كهف تحت الأرض، يعج بالناس. بيار وفادي كانا هناك عندما وصلنا، ولكن بشير، كما قالا لنا سيأتي لاحقاً. كان جيرالدو والطاقم مبتهجين لأننا كنا نعرف أننا قمنا بعمل قصة جيدة. ولكني لم أستطع الانضمام إلى الاحتفال وأبتهج كالجميع. كان التصوير قد انتهى، وعلى الرغم من كل المشاكل التي اعترضتنا، كل شيء سار على ما يرام.

سأترك بيروت غداً. سأطير إلى المنزل، إلى «بيني»، كان عليّ أن أكون مبتهجة، وكل ما كان بوسعي أن أفكر به هو أنني سأستيقظ في صباح اليوم التالي، وفي الصباح الذي يليه وأنا على علم أنني لن أرى بشير بعد ذلك اليوم.

حاولت أن أبعده عن تفكيري. ولكن معرفتي بأن القصة، والتي لم تكن قد أعدّت للنشر بعد، قد انتهت أساساً، واستحضرت الحواجز الأخرى - زوجته، طفلته، طفلتي، والجو الخطير الذي كان يقلقه دائماً - ولكن ما من شيء كان يكفي لصدّ هذا التيار. واقتحمت أفكاري صور أخرى، عيناه وصراحته معي، لمسة يده التي كانت تقول لي، لا تكتبي، هذه ليست قصة: إنها حياتك.

وكلما طال انتظارنا كلما زاد شوقي لرؤيته، لم أكن قلقة أو متوترة، كنت أعلم أن بشير لن يتركني أذهب دون أن يودعني.

كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحاً عندما جاء بشير، كنا قد بدأنا لتونا بالطعام، أعدّ لبشير مكان على الطاولة بقربي. وبدأ يتصرف كأننا لوحدنا، جلس قريباً جداً مني وأخذت يده بيدي تحت الطاولة، في حين راح حايك يحدث الآخرين بصوت عال.

□ «ستتركيننا غداً» تمتم بشير.

- «غداً سأترك بيروت»، صحّحت له.

□ «سأفتقدك» قال ذلك دون أن يبتسم.

- نظرت إلى عينيه وعندها لم أستطع تمالك نفسي، دنوت بفمي من أذنه وهمست: «حذّرني بيار يزبك من الوقوع في حبك».

□ «لا تستمعي إلى ما يقوله» قال بشير.

- «لم أفعل» قلت.

فاجأت نفسي أكثر مما فاجأت بشير. حمقاء، قلت في نفسي، حمقاء، أين أنت ذاهبة؟ لم أشعر بالأسف. لقد قلت ما كان يجب أن يُقال. تنهّد بشير وضغط على يدي بقوة. سأراك عاجلاً. خلال أشهر قليلة سأكون في الولايات المتحدة.

أخذني بين ذراعيه خارج المطعم وقبّلني، ثم أخذ جيرالدو بذراعي. تركنا بشير وعدنا إلى الفندق.

كان المطار يعج بالجنود السوريين وجنود منظمة التحرير. كان علينا أن نحمل الأفلام التي كانت بحوزتنا بدلاً من أن نرسلها. إنها ليست نسخاً. فإذا أتلفت تلك الأشرطة أو صودرت، فسيكون كل ما قمنا به بلا جدوى. هذا عدا عن العقاب الذي سينزل بحاملها.

قرّر جيرالدو أن أحملها أنا. ولم أناقشه أو أسأله لماذا، فكان من الواضح لي ولهم أن المرأة في هذا المكان، لديها مجال أكثر للهرب من التدقيق والتفتيش.

فكّرت أنه القرار الصائب، وأن يأتي من صديقي فإنه بلا شك قرار عاصف ولم أزل أعتقد هذا على الرغم مما حصل بعد ذلك.

كان الصباح بارداً وصافياً وقد أعدّ بيار يزبك الترتيبات الضرورية فيما يخص التفتيش الخاص لصندوق الأفلام بعيداً عن المطار عن طريق موظف في الجمارك والذي كان واحداً منهم. جاء بيار ليأخذني باكراً وقادني إلى مبنى حكومي. وصعدت إلى مكتب موظف الجمارك وأنا أحمل حوالى ثلاثين كاسيتاً حجم ٣/٤ إنش وبعض الملصقات لبشير. طلب الرجل مني فتح الصندوق وأخذ ملصقاً لبشير، «كلا»، قال وهو يهزّ رأسه: «كلا، كلا».

شعرت بوخزة باردة في داخلي «ولم لا؟» سألته، «هذا آخر تفتيش، أليس كذلك؟».

«نأمل هذا يا سيدتي»، قالها الموظف متنهداً وكأنه على علم بشيء أجهله. أقفل الصندوق وختمه بالشمع الأحمر، ثم أعطاني وثيقة مطبوعة باللغة العربية والتي تصرّح أن الصندوق قد فُتش في الجمارك وليس بحاجة أن يفتح في المطار.

«حظاً سعيداً»، قال لي، وكلماته تحمل معنى واضحاً بأنني فعلاً بحاجة للحظ. وأنا أنزل درجات السلم شعرت أن ساقيّ تحولتا إلى مطاط، مجرد تعب، قلت في نفسي. وكان هناك سيارة جيب في انتظاري في الخارج.

ما إن دخلت السيارة حتى أحاطني أربعة جنود لبنانيين يخبىء كل واحد منهم بندقية في حضنه. أضاء السائق ضوءاً أحمر في أعلى السقف. وانطلقنا عبر الشوارع، ونحن نكاد نصطدم بعشرات السيارات. كان المشوار إلى المطار مروعاً، وقصيراً، لحسن الحظ. وبدلاً من أن يتوقف السائق عند قاعة المغادرة، انحرف فوق الإسفلت وتوقف على بعد حوالي ثلاثمائة قدم من النفاثة التي حزرت أنها طائرتي.

□ «انتظروا دقيقة يا رجال»، قلت، «يجب أن أسجّل اسمي أولاً». لا جواب، حاولت التكّلم بالفرنسية.

عندئذ استدار نحوي الجندي الذي كان يَجلس قرب السائق، لم أره من قبل، بل إنني لم أر هؤلاء الأربعة بتاتاً وقال «أعطني جوازك».

□ «لماذا؟».

ـ «وبطاقتك».

ناولته جوازي وبطاقة سفري وأنا مترددة. غادر الجيب وعاد بعد خمس عشرة دقيقة ومعه سندويشات. عرض عليّ واحدة منها ولكن لم يكن باستطاعتي أكل أي شيء.

□ «إذاً»، قلت محاولة النظر إلى ساعتي بلا مبالاة. «أظن أن الوقت قد حان».

أخذ الجنود الأربعة يمضغون طعامهم بصمت وهم ينظرون خارج النوافذ إلى خليط المسافرين الذي أجفلني يوم وصولي إلى بيروت. وما كنت استغربه هو أنني لم أر هؤلاء الأربعة من قبل. جلسنا على الإسفلت. حاولت التكلّم ولكن بعد فترة تبين لي أن الكلام لا يجدي. فسكتت. انقضت ربع ساعة، مرت بنا الأوتوبيسات وعلى متنها الركاب، المسافرون في طريقهم إلى الطائرة. ومرت نصف ساعة أخرى رأيت جيرالدو والطاقم يركبون الطائرة من الأوتوبيس الآخر.

□ «تأخرنا» قلت للسائق للمرة الثانية عشرة. وأنا أشير إلى ساعتي. «تأخرنا» قلت مرة ثانية بالفرنسية. فهزّ رأسه.

ـ إذاً هذا ما في الأمر، رحت أفكر. وشعرت بالتوتر. وتذكرت «بيني» وبشير والأفلام، وجيرالدو في الطائرة، كان هذا محزناً ولكنه أفضل من التفكير بالمحرر سليم اللوزي.

وفجأة أسرع جندي نحو الجيب وأعطى أوامره صارخاً إلى المرافقين الذين كانوا معي (أو الحراس) أو لا أدري من هم بالضبط، فانطلق السائق بسرعة رهيبة نحو الطائرة. وظهر جيرالدو فجأة على باب الطائرة. تجمّد للحظة وهو يحدق في الجيب. خرج المرافقون ثم فتح لي أحدهم الباب بشكل رسمي فخرجت من السيارة وأنا ممسكة بصندوق الأفلام الغالي. ناولني الجندي الذي كان يجلس قرب السائق جوازي وبطاقة السفر.

ـ «رحلة سعيدة» قال لي.

نزل جيرالدو بسرعة إليّ. لم نقل شيئاً. فقط نظرنا إلى بعضنا البعض، التقط صندوق الأفلام ووضعه على رأسه ثم عاد أدراجه إلى الطائرة.

ونزل كابتن الطائرة لملاقاتنا وكان إنكليزياً وقال إنه لا يستطيع الإقلاع حتى يتم فتح الصندوق ويفتش. وجاء الجنود الأربعة الذين كانوا يرافقونني وأظهروا للكابتن قرار الجمارك وتناقشوا معه وبنادقهم فوق أكتافهم، على أن أي تفتيش إضافي هو أمر غير ضروري. نظر الكابتن إليهم ثم نظر إليّ وأخيراً زمجر قائلاً: «اصعدوا».

جلست إلى جانب جيرالدو في مقصورة الدرجة الأولى، خرج الطاقم مساعدو الكابتن كلّ بمفرده ليحدقوا بنا بفضول، إلّا أنني تحاشيت النظر إليهم. ولم نتكلم. وطاقم الـ (ABC) الذي كان يجلس معنا في المقصورة لم ينظر حتى ناحيتي. لا أحد منا كان يريد أن يحدث أي شيء ونحن ما نزال على الأرض.

استدار جيرالدو نحوي بعد أن وصلنا إلى الارتفاع المطلوب وهمس: «ماذا حصل لك؟ كنت سأغادر الطائرة».

أخيراً أدرت رأسي لأنظر إليه. كان يبدو غريباً. شفتاه شاحبتان، لم أر جيرالدو مذعوراً من قبل.

□ «ظننت أنك خطفت» قال لي.

ـ «وأنا أيضاً» أجبته. بدا لي صوته غريباً عليّ ليس من ناحية النبرة أو الرنّة ولكن حتى سماعه. لم أصدق أن هذه اللحظة ستأتي وأنا جالسة في ذلك الجيب. والوقت يمر ببطء والآن وقد حانت هذه اللحظة بدت لي غير حقيقية.

□ «جعلتهم يوقفون الطائرة» قال لي. وكنت سأغادرها.

لم أقل شيئاً. فقط أومأت برأسي. لم أكن أشعر برغبة في الكلام، كنت بحاجة للوقت لأزيل الضغط عن نفسي، لأبدأ عمليةْ النسيان الطويلة بالتذكر. أسندت رأسي إلى الشباك وأغمضت عيني..

□ «لم أكن لأتركِك وحيدة هناك» قال جيرالدو ذلك ووضع السماعات على أذنيه، وطرنا باقي المسافة دون أن نتكلم.

انطلق بي جيرالدو في سيارة ركاب مترفة تخصه إلى مانهاتن. قال لي: «كان التصوير رائعاً، بيبي. الكل سيغار منك عندما تعودين. فكم واحد منهم يستطيع عمل قصة كهذه؟»

ـ لم أكن أفكر بأحد في الـ (ABC). كنت ما أزال في بيروت، وكنت أريد لهذا الشعور أن يدوم.

واتصلت بـ (بيني)، وخلدت إلى النوم.

كان جسدي ما يزال يتبع التوقيت الشرق أوسطي، وهناك فارق حوالى سبع ساعات بينه وبين التوقيت المحلي في نيويورك. استيقظت في منتصف الليل ولم أستطع العودة إلى النوم. وعند الفجر ارتديت ملابسي وذهبت للركض في «السنترال بارك».

إنه لمؤلم، فقبل ذهابي إلى إسرائيل، كنت أركض مسافة أربعة أميال في اليوم، ولكن لمدة شهرين لم أركض. على الرغم من الساعة المبكرة مررت بكثير من الراكضين وقد ذكرتني التعابير الجليلة المرتسمة على وجوههم بجنود بشير عندما استعدوا للتصوير.

كانت مكاتب الـ «٢٠/٢٠» تقع في عمارة على زاوية شارع Sixty Six & Columbus Avenue. إلى جانب جيرالدو، كان يوجد مراسلان للعرض على الهواء كل مع فريق عمله وجناح من المكاتب خاص به.

كان المخرجون الآخرون الذين يعملون للعرض يتناوبون في العمل بين المراسلين وضيف البرنامج، هيو داونس. وعلى الرغم من أن هذه الأعمال لم تكن الأكثر اعتباراً، إلاّ أنها كانت تدوم فترة أطول.

حضر جيرالدو باكراً في الصباح، مرتدياً ملابس العمل.

□ «قلت لآف لدينا قصة عظيمة هنا». قال على الفور عندما رآني. «سيعطوننا ساعة كاملة. سنراه لاحقاً هذا الصباح. هل تستطيعين عمل موجز الآن؟»

كان آف ويستين نائب رئيس الـ (ABC) والمسؤول عن الـ «٢٠/٢٠»، رجلاً بارعاً في الجدل، موهوباً وطموحاً. طرده رئيس الـ ABC NEWS روون أرلدج، لأن لديه عادة كتابة المذكرات التي ينتقد فيها رؤساءه. وبعد أن جال لمدة في الصحراء، عاد وبعد سنوات قليلة حصل الشيء ذاته.

وصل ويستين إلى مكتب جيرالدو في الموعد المحدد. «ما لديكم» سألنا.

كان من الممكن أن يزيد عشرين كلمة أو أقل، لكنه لم يكن بحاجة لذلك. في العادة كان باستطاعتي أداء هذه الحيلة الضرورية دون أية صعوبة. لكنني وجدت نفسي في حيرة هذه المرة. فكيف ألخص في جملة واحدة تجربة غيّرت حياتي إلى الأبد؟.

لم يكن لجيرالدو أية مشكلة في ذلك، وضع ساقاً فوق ساق وقال موجزاً القصة «إنها من نوع جيرالدو- يذهب إلى الحرب» غمزه ويستين. وبعد لحظة أعاد السؤال عليّ.

«وثائق من الموساد» قلت. «صور، خرائط، عمليات ضد منظمة التحرير الفلسطينية. تدريب الكوماندوس، سجناء منظمة التحرير، مقابلة مع مناحيم بيغن، وضع المسيحيين اللبنانيين».

أعاد ويستين قراءة القائمة كلمة كلمة وابتسم، كمن ظفر بشيء أنتظره طويلاً. وضعنا جدولاً لتحرير القصة وأخذت المكوك معي إلى بيتي في واشنطن. كنت متلهفة لرؤية ابنتي على الرغم من الخوف الذي ينتابني في العادة كلما توقعت لقاءها.

كنت كلما أقترب من «بيني» أشعر أكثر بغضبها. عندما كانت أصغر سناً، كانت تتصل بي عندما أكون مسافرة وتقول «أمي، ألا تحبينني؟» فأطمئنها وأكتم ألمي. في الآونة الأخيرة استغنت عن قول هذا الأمر لكنها، كما كنت أشك، لم تستغن عن الشعور به.

منذ طلاقي من أبيها وكان عمرها ست سنوات، اتفقنا على الرعاية المشتركة لابنتنا، واعتبرنا في ذلك الوقت أن هذا الاتفاق متطور جداً وفكرة جديدة. توزعت أيام بين منزل والدها ومنزلي ولكن الذي بدا لنا متطوراً وعادلاً كان صعباً على ابنة الست سنوات. فكانت غير قادرة على أن تتذكر من يوم ليوم أي موقف أوتوبيس عليها أن تأخذه لكي تصل إلى المنزل المناسب. بالرغم من أنني كنت أتوق لرؤية ابنتي، طرت إلى المنزل ولديّ إحساس بالحزن العميق واليأس أن أترك بشير وكل شيء بيننا بدون حل (رغبة متبادلة تكلمنا عنها ولكن لم نتصرف على أساسها). كان هذا من أقسى الأشياء التي فعلتها. ولكن كوني قاسية وصلبة لم يجعل الأمر صحيحاً مع ذلك: أن أتحكم بحياتي إلى الحد الذي جعلني أفقد السيطرة على رغباتي.

كرّست كل طاقتي لعملي ومهنياً كوفئت على ذلك. ولكن الثمن هو

أنني أتلفت مشاعري: تركت الرجل الذي أريد وأذيت الإنسانة التي أحببتها أكثر من أي شيء.

استقليت «تاكسي» من مطار Dulles متوجهة إلى منزلي الذي كان في منطقة الطبقة المتوسطة في واشنطن وهي منطقة مليئة بالأطفال. كانت المنازل في هذا الحي مريحة ومتواضعة وإن كانت الجيرة مملّة بعض الشيء. فهذا كان يلائمني.

عندما سمعتني «بيني» أدخل إلى المنزل، هرولت نحوي فرفعتها وحضنتها بقوة «آه بيني» قلت «اشتقت إليك».

سمعتها تتمتم شيئاً لم أفهمه، أنزلتها عن ذراعي ونظرت إليها «أميرتي الجميلة، ماذا قلت يا بيني؟» سألتها وأنا أداعب شعرها. «متى ستغادرينني هذه المرة؟» سألتني ابنتي.



باربرا نيومان مع بيار يزبك

- ٨ -

على خطى اسبارطة

رنّ جرس الهاتف، فرفعت «بيني» السماعة.

□ «نعم، من؟ انتظر لحظة؟»

- «لكِ» قالت مجدداً، وناولتني السماعة وهي ترمقني بنظرة مؤنّبة.

□ «آلو، باربرا» بدا صوت بشير قريباً جداً، وتمنيت ذلك.

- «بشير، من أين تتصل؟».

□ «بيروت. أردت فقط الاطمئنان عنك إذا وصلت بأمان وكل شيء على ما يرام».

- «كل شيء جيد. يسعدني أن أسمع صوتك». كنت أريد أن أقول له المزيد لكن «بيني» كانت تنظر إليّ بجحود وهي مكتوفة اليدين. ترددت، ثم رحت أكلّمه باختصار عن الخطة التي وضعناها لإخراج القصة. سألني بشير مقاطعاً: «متى أراك ثانية؟».

□ «أمي، ماذا سنفعل اليوم؟» قالت «بيني» بصوت عالٍ. «هل ستبقين في المنزل وتعملين كالعادة؟»

- «اشش» وضعت إصبعي على شفتي.

□ «باربرا، هل تسمعينني؟»، نادى بشير.

- «فقط ككل الأوقات» قالت بيني متذمّرة. «تقولين أنك سعيدة لرؤيتي، وكم تحبينني وتعطيني الهدايا، ثم تتكلمين طوال الوقت على

الهاتف، وكل ما تفعلينه هو العمل».

□ «متى سأراك يا باربرا؟»

- «دعني هذاالأسبوع يا بشير، سنتكلم عن ذلك فيما بعد».

□ «سأرسل لك شخصاً ليساعدك. إذا احتجت إليّ فباستطاعة ألفرد ماضي أن يتصل بي مباشرة سيجلب لك أي شيء تحتاجينه منا».

كان ماضي مدير مركز المعلومات والأبحاث اللبنانية، وهو بمثابة مجلس القوات اللبنانية، وبهذا كان ماضي ممثل بشير في الولايات المتحدة.. وهو مدعوم من المجلس، والإدارة، والبنتاغون والإعلام والـ C.I.A التي كانت تقوم بتدريب عملاء بشير ومنهم إيلي حبيقة في السنوات الماضية. ومن بين المهمات التي يقوم بها ماضي أيضاً، تطوير العلاقات بين أفراد الجالية اللبنانية ـ الأمريكية والمحافظة عليها.

ومنذ أن تسلّمت القوات اللبنانية معظم أعمال الحكومة المركزية اللبنانية المشلولة كان ماضي يؤدي مهام السفير لكن دون امتلاك اللقب.

أقفلت السماعة ولحقت بـ «بيني» إلى غرفة المطالعة حيث كانت جالسة تشاهد التلفزيون. فجلست بقربها وقلت لها:

□ «هذا بشير الجميل، إنه رجل مهم لكثير من الناس».

- «ليس مهماً لي» قالت ابنتي، «كما لست مهمة بالنسبة إليك».

لم أغضب. كنت أعلم كم يؤلمها انشغالي عنها حتى عندما أكون في المنزل. لقد عانيت من هذا الأمر أنا أيضاً عندما كنت طفلة حيث كان أبي ينكب على العمل طوال الوقت دون أن يهتم بي أو بأختي.

كنت قد وعدت «بيني» بأن استراحة هذا الأسبوع ستكون لنا نحن الاثنتان، لكن كان من المتعذر تحقيق هذا الوعد. والطريقة الوحيدة للمحافظة عليه هو قطع خط الهاتف. وقد فعلت «بيني» هذا عدة مرات دون أن تقول لي. لم يكن بوسعي الاعتراض، وفي الوقت ذاته

كنت أشعر بمسؤولية كبيرة تجاه القصة التي أجريت تحقيقاً عنها وهي قصة لبنان والإرهاب.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة من بعد الظهر، ومنتصف الليل حسب ساعتي الداخلية. لم آخذ حصتي من الراحة في كل من إسرائيل أو لبنان. والرحلة بكاملها كانت مروعة. استمرت الاستعدادات والترتيبات مع الـ A.B.C وكنت على وشك الانهيار. لكن طفلة الـ ١١ سنة والتي غابت عنها أمها لمدة ستة أسابيع تشعر برفض الأمر الواقع وليس بوسعها أن تتفهم ما يجري. أرغمت نفسي على الجلوس بقرب «بيني» وهي تشاهد التلفزيون لكن غلبني النعاس. قالت لي أخيراً: «اذهبي إلى النوم. أماه لا عليك. اعتدت على ذلك».

ذهبت إلى الفراش لأستيقظ عند الساعة الثالثة صباحاً واستعد لبدء يوم طويل من العمل. فالبيت تنقصه لوازم كثيرة، فذهبت لشراء الحاجيات عندما فتحت المحال التجارية أبوابها وهذا ما أعادني إلى الواقع، أم إلى الوهم! فمنذ أربعة أيام خلت كنت أختار لقطات لمجازر، وها أنا اليوم أنتقي الفاكهة من سلة في استهلاكية في واشنطن.

كنت أمر بفترة افتقاد حسّ المكان والزمان. (وهي تمر بكل صحافي عادة). فبعد أن أنتهي من قصة أشعر بالإكتئاب لعدة شهور. كنت أتوقع هذه الفترة، وتعلّمت كيفية التعامل معها. لكن مشاعري بعد أن غادرت لبنان وبشير كانت من نوع آخر، كنت أنظر إلى الأشياء برؤية مزدوجة وكل شيء كان يذكرني بلبنان، وكل ليلة كنت أحلم أنني هناك. ومهما كان الحلم مفزعاً كنت أستيقظ لأجد نفسي بأمان في فراشي، وفي منزلي. ظهر ألفرد ماضي على بابي بعد ظهر ذلك اليوم. ومظهره يختلف تماماً عن مظهر بشير الذي تريحه وتلائمه الثياب البسيطة والعملية. كان ألفرد يرتدي بدلة حريرية سوداء وقميصاً حريرياً لونه أبيض وربطة عنق حريرية حمراء وجوارب حريرية سوداء. لم أستطع أن أثبت هذا ولكن من طريقة حركته راهنت أن ملابسه الداخلية أيضاً

كانت من الحرير. ووجدت صعوبة في تخيُّله مع بشير.

جلسنا في غرفة الجلوس. ناديت بيني وقدمتها له.

«هللو» تمتمت واختفت في الحال.

□ «سمعت الكثير عنك» قال ألفرد، وهو ينظر إليّ بفضول. «تأثر بشير كثيراً بك. إنه يتكلم عنك بكثرة» كان يعني مجاملتي. ولكني لم أكن بحاجة أن أسمع منه كيف يشعر بشير نحوي، ضايقتني وقاحته بعض الشيء.

تابع قائلاً: «لدينا خط مباشر بين بيروت وواشنطن وعندما يتصل بشير سأوصله بك، وكل ما تحتاجينه للقصة، اطلبيه مني وسألبي لك طلباتك على الفور».

وبعد أن غادر بفترة قصيرة اتصل بشير.

□ «ماذا عن هذا الرجل ألفرد؟ . . . يبدو كالغندور!».

- «مثل ماذا؟»

□ «إنه يرتدي الحرير من رأسه حتى أخمص قدميه».

ضحك بشير «هذا لا يهم، باربرا، إنه رجل جيد للغاية. سيساعدك في أي شيء تحتاجينه. قلت له أن يهتم بك».

□ «أن يهتم بي؟ ماذا تعني؟»

-«أن يتأكد من أنك بخير. لست موجوداً لأقوم بذلك».

□ «بشير، لا أريد من أحد أن يهتم بي، وإذا أردت فألفرد هو آخر شخص أختاره. هل أنت قلق من حصول شيء ما بسبب القصة؟».

- «أعلم أنه سيحصل شيء ما،أريد فقط التأكد من أنه لن يحصل لك. أنت تعنين لي الكثير» قال بشير.

بعد أسبوع عدت إلى نيويورك. كنا بدأنا مرحلة تحرير القصة

وكنت أكتب المسوّدة ويحررها جيرالدو ومن ثم نسجلها بصيغتها الأولية. وبعد ذلك نعيد تسجيل النص في الاستديو. وبدأت العمل في القسم الأخير من العرض الذي يتحدث عنه بشير. في تلك الغرفة الضيقة المحكمة الإغلاق والتي تسمى غرفة التحرير، شعرت وكأنني أنفذ إلى داخله، إلى روحه. من الصعب خداع كاميرا التلفزيون وخصوصاً في لحظات التعب والإرهاق.

كان بشير رجلاً عصرياً ولد في عالم قديم لم يتغيّر منذ عهد الامبراطورية العثمانية. كان عالم الإقطاعية والامتيازات حيث أن تقدّم المرء لا يعتمد على جهوده الشخصية إنما على ظروف ولادته. وحيث تستعمل القوة لتكبير حاملها، وحيث الولاء الإقطاعي الأعمى هو من حق السيد وليس من حق القائد الوطني. كان بشير يتصرف ضد المصالح المباشرة للعائلات اللبنانية ومن ضمنها عائلته. لأنه كان يطلب أن يحاكم الأشخاص بحسب ما يستحقون، ويعمل على استبدال الولاء لشيخ العائلة بالولاء للأمة. لم يكن بشير مجرد ظاهرة فكّرت، لقد كان قوة خلقتها احتياجات المنطقة وديناميكية شخصيته.

وبالطبع إن كلتا القوتين لم تجعلا منه رجلاً مسالماً. كان لبنان مسرحاً للعنف وللوحشية اليومية سببتها الأزمات التي مرت بالمنطقة. كان بشير محبوباً من طائفته بشكل غير طبيعي في لبنان، ومهاباً في الوقت نفسه.

ومنذ طفولته ـ كما عرفت من أخواته ـ لديه اندفاع جامح وخطير. وكان يكن الكراهية للسلطة. وكطفل، كان يسبب المتاعب دائماً بسبب مشاكسته التي ما كانت تسمح له بالجلوس هادئاً في الصف.

وفي منتصف السبعينات وبينما كان السوريون يرمون القذائف على المناطق المسيحية في بيروت، طلب بشير من إذاعة صوت لبنان أن تذيع بياناً يدين السوريين لقتلهم المدنيين. ولمّا لم يذع البيان أرسل مجموعة من جنوده لتطويق المحطة. عندها نزل مدير المحطة جوزف الهاشم ليرى ما

يجري، والهاشم كان صديقاً لبيار الجميل وكان يعرف بشير منذ ولادته.

مشى بشير نحوه وصرخ في وجهه قائلاً: «طلبت منك أن تقول الحقيقة عن السوريين، انظر ماذا فعلوا بشعبك!». ثم وأمام حشد كبير من الناس صفع الهاشم بقوة. فاتصل الهاشم ببيار الجميل الذي هرع إلى المحطة وأمسك ببشير وأمره أن يعتذر علناً. وعندما اقترب الهاشم، دفع الشيخ بيار بشير إلى الأمام وطلب منه أن يصافحه ويقبّله.

ـ «حسناً» قال بشير. «سأصافحه، لكني لن أقبله».

يقال إن القوة تسبّب الفساد، ومما رأيته أقول إن هذه النظرية صحيحة ٩٩٪. لكن القوة لم تفسد بشير، بل جعلته أفضل، فبشير الشاب صفع وأذل رجلاً يكبره سناً في لحظة غضب. لكن بشير الذي أعرفه الآن لم يرفع صوته يوماً، أو ضرب أحداً أو حتى فقد أعصابه. كصبي كان يستحيل عليه أن يجلس ولو لنصف ساعة بهدوء على المقعد الدراسي. وكرجل أمضى معظم أيامه في اجتماعات طويلة دون أن يبدي أي تذمر. فإنه يضبط نفسه لهذه الدرجة وفي ظل أوضاع قاسية إنها لمهمة شاقة. لكن بشير قام بذلك على ما أعتقد، فقد رأى أنه لن يستطيع حكم الآخرين إلاّ إذا تعلّم كيف يتحكم بنفسه. وفي سن الثانية والثلاثين، استطاع بشير أن يحقق السيطرة على العالم من حوله.

إن تطور «القوات اللبنانية» كان يعكس امتداد سيطرة بشير. فقبل «القوات اللبنانية» كانت الفئات المسيحية المختلفة تدافع عن نفسها بنفسها. لم يكن هناك أي جيش وطني فعال، ومنذ بدء الحرب الأهلية عام ١٩٧٥، أيضاً، لم تكن توجد أي قيادة مسيحية موحدة لمساندة المجموعات المحاصرة. بدأت «القوات اللبنانية» كقوة عسكرية مؤلفة من خمسين رجلاً تم اختيارهم بدقة وكانوا أوفياء لبشير، ويعملون خارج اشراف القيادة الكتائبية. كان بشير يرسل رجاله إلى أي مكان يهاجم فيه المسيحيون، وعلى الرغم أن عدد المقاتلين كان ضئيلاً إلاّ أنهم نجحوا في الدفاع. وخلال سنوات قليلة أصبحت «القوات

اللبنانية» الساعد العسكري للكتائب أولاً، وثمّ وبعد عملية ٧ تموز، للمسيحيين ككل.

ولكي ينمّي حسّ الجماعة، أنشأ بشير محطة تلفزيون، وإذاعتين، وإذاعة ثالثة للموسيقى الكلاسيكية، حتى ينسى الناس قليلاً أجواء الحرب.

وكان بشير يتحكّم بأسعار السلع ويعلنها عبر الراديو صباح كل يوم، والتجار الذين يخالفون التسعيرة يُرسلون إلى السجن. وبشير لم يكن يعرف الكلل أو التعب، كان يناضل لبلوغ أهدافه. وعند الضرورة، كان بلا رحمة.

«لا نستطيع توحيد لبنان بالقبلات والعناق»، غالباً ما كان يردد هذه العبارة. وكإبن منطقته الحقيقي استعمل بشير الأسلحة التي كانت في متناول يديه. رأيته لأول مرة بعد أن وحّد المسيحيين وذلك عبر هجومه المفاجىء على «النمور» في ٧ تموز، وهي ميليشيا كان يرئسها داني شمعون نجل الرئيس كميل شمعون بعد عملية دامية ووحشية راح فيها عدد كبير من الضحايا كما سقط العديد من الجرحى. لكن بشير كما قال لي، يعتبر أن هذه العملية هي من أهم الأشياء التي قام بها.

ـ «كنا أشبه بحديقة حيوانات» قال لي. «لكل حزب مقاتلوه، أرعبت الميليشيات القرى بالمعارك المستمرة، وانقسمت العائلات، الأخ يدفن أخاه تحت راية مختلفة، وبعد إحدى المعارك، نزلت صور داني شمعون في الصفحات الأولى من صحف بيروت، وهو يشرب نخب موتانا، لم يسمحوا لنا حتى بدفنهم كما يجب، كان هذا الأمر يمتد كالغرغرينا ويهاجم الجسد السياسي، وكنت أنا الجراح الذي كان عليه أن يبترها».

□ «لكن رجالك اقترفوا أشياء مريعة، سمعت أنهم كانوا يرمون الرجال من النوافذ ومن فوق الأبراج».

ـ «لم أرد ذلك، وقد أظهر ذلك لي كم هو مهم أن نعود إلى جذور المشاكل في لبنان وهي افتقادنا للوحدة. ولكن ماذا تتوقعين؟ إن هؤلاء الرجال قد رأوا آباءهم وإخوتهم يقتلون على يد الفئة نفسها التي كانوا يحاربون من أجلها؟ أنتم في الغرب لا تستوعبون. يصبح الرجال حيوانات في ظل ظروف كهذه، وهذا بالضبط ما نحاول أن نقضي عليه لنغيّر هذه العقلية، يوجد ثمن علينا أن ندفعه للحضارة، ونحن على أتم الاستعداد لدفعه».

مع أن عملية ٧ تموز كانت قاسية، لكن ما يميزها أنها كانت تستهدف العسكر، وهذه الهجمة كانت ضرورية لعملية التوحيد. قال لي بعض الإسرائيليين العارفين أن إسرائيل تحاول منذ سنوات أن تقنع القادة المسيحيين الذين تتصل بهم أنهم لن ينتصروا على الفلسطينيين أو السوريين ما لم يتوحدوا. وعندما عمل بشير ضد والده ووحّد المسيحيين بالقوة عندها فقط قرّر الإسرائيليون مساندته.

رأيت لبنان بأم عيني. رأيت ضحايا الإرهاب، والمدن المدمرة بالقنابل، ورأيت وحشية المقاتلين الذين كان بشير يعاملهم بصرامة. حتى غاندي لا يستطيع أن يوحد لبنان بدون القوة. لست مسالمة، ولن أدين عملية عسكرية رسمت لإنهاء حالة فوضى.

بعد موت مايا عينّ بشير إيلي حبيقة كرئيس لجهاز الأمن وهو يعرف تماماً من هو هذا الرجل وماذا فعل. تساءلت وأنا أراقبه عبر الجهاز كيف هو الجانب الخفي والمظلم من نفسية بشير، وما زلت أتساءل ولكنني مقتنعة أنني حين التقيت به كان قد سيطر على الغضب الذي دفعه للإنتقام وخفّف من ذلك الحماس وشغّل طاقاته في أغراض بنّاءة. لم يكن بشير مُرسلاً من الربّ لإنقاذ لبنان، لقد كان رجلاً ذا بصيرة وطاقة لا تنضب، رجلاً ولد وتربى في أرض يسودها العنف، رجلاً كان يريد أن يتفوق على ذاته وقد نجح في ذلك. ولو قدّر له أن يعيش أكثر لاستطاع أن يقود لبنان إلى قومية حقيقية وليس فقط بالإسم.

والآن تتوضح مسألة تفكك لبنان بعد موته. ولكن الإمكانية في أن يصبح لبنان وحدة متكاملة كانت موجودة وقد تصادفت مع صعود بشير الجميل الوجيز إلى السلطة في ذلك الوقت.

عُرضت القصة بتاريخ ٣ نيسان/ أبريل عام ١٩٨١، وشاهدت البرنامج مع أبي وأمي، صامتين طوال ساعة العرض، حتى خلال فترات الإعلان كانا ينتظران دون حراك. وعند انتهاء العرض قام والدي ومشى نحوي وقبّلني على خدي وقال: «أنا فخور بأنك ابنتي».

صُدمت. كان هذا أجمل شيء قاله لي على الإطلاق. ومع ذلك شعرت بوهن وحزن. فعبء العمل قد زال عني ليبقى عبء القلق والاهتمام، وما أستطيع أن أدعوه «هاجسي ببشير».

ذهبت إلى الفراش دون انتظار أخبار الحادية عشرة وهكذا لم أسمع أخبار لبنان إلّا في اليوم التالي. وفي اليوم نفسه الذي أذيعت فيه قصتنا، تحارب رجال بشير مع السوريين في المدينة المسيحية زحلة، وهي مدينة قريبة من الحدود السورية. كانت زحلة عاصمة الجزء الشرقي من لبنان ـ وادي البقاع ـ وكان السوريون يسيطرون عليها كلياً. وبسبب موقعها الاستراتيجي، كانت ثالث أكبر مدينة في لبنان وعدد سكانها يبلغ حوالى ٢٠٠ ألف نسمة. تحوّل الصراع حول زحلة إلى لعبة شطرنج معقّدة بين ثلاثة لاعبين: الكتائب والسوريون والإسرائيليون. وكان بشير يحاول أن يجعل من الإسرائيليين مناصرين لمسيحيي لبنان. وبالطبع كان بشير يعرف تمام المعرفة أن قوّته غير كافية لإخراج السوريين من وادي البقاع، إلّا إذا أقنع أو أغرى الإسرائيليين بالتورّط. ففي كثير من الاجتماعات السابقة، مع رئيس الوزراء مناحيم بيغين، نجح بشير في إثارة وعد عاطفي وإن كان عملياً غير واضح وهو: «لن نسمح للسوريين بارتكاب عملية إبادة في لبنان». وباشر بشير بسلسلة من المناورات تمهد الطريق لتحقيق الوعد الإسرائيلي. ولكي ينجح بالسيطرة على زحلة، سرّب حوالى تسعين مقاتلاً من

الكتائب إلى داخل المدينة عبر جبل صنين. وقد حفر الخنادق في الطريق لكي يربط زحلة مباشرة ببيروت الشرقية المسيحية. وبما أن السوريين لم يردوا في الحال على هذا العمل الدفاعي، باشرت قوات بشير برمي القذائف على الجنود السوريين الذين كانوا يقومون بحراسة جسر على طريق بيروت ـ دمشق الدولي.

كان رد السوريين سريعاً. فقد حاصر الكوماندوس السوري المدينة واستخدمت الطائرات المروحية لاختراق منطقة جبل صنين، وقُطعت الطرقات التي كانت تربط زحلة بالمنطقة الخلفية المسيحية ـ وتساقطت قذائف المدفعية على المدينة.

لقد نجح بشير نجاحاً عظيماً ولم يتوقع السوريون أي تدخل إسرائيلي. ولقطع الطريق على أي تدخل حفر الجيش السوري مواقع تُركت فارغة لصواريخ SAM-6 التي كانت ما تزال حتى ذلك الوقت خارج لبنان.

اجتمعت الوزارة الإسرائيلية لمناقشة القتال في زحلة. ودار نقاش حاد بين الوزراء الإسرائيليين ورئيس الوزراء مناحيم بيغين ووزير الدفاع أرييل شارون الذي كان يريد التدخل فيما رأى الآخرون أن هدف بشير من وراء كل هذا هو جرّ إسرائيل إلى صراع مع سوريا. والنتيجة هي التورّط السياسي. واستمر الحصار. وصمدت الكتائب أمام القصف المدفعي المتلاحق على زحلة وجبل صنين. وفي منتصف نيسان/ أبريل سافر بشير إلى إسرائيل برفقة الرئيس اللبناني السابق كميل شمعون ليجتمعا ببيغين، وحذّراه من النتائج الوخيمة التي قد تحصل للمسيحيين إذا سقطت زحلة وجبل صنين.

«لن يحصل هذا»، وعدهما بيغين.

شعرت سوريا بالإحباط لعدم قدرتها على تخليص زحلة من بضعة مقاتلين كتائبيين.. كما أن عدم رد إسرائيل شجعها فزادت من ضغطها وهاجمت المنطقة بالقذائف من الطائرات المروحية.

وفي ٢٨ نيسان/ أبريل اجتمعت الحكومة الإسرائيلية في جلسة استثنائية، كان محورها الوحيد الهجوم السوري على المسيحيين. وانقسمت الوزارة كما حصل سابقاً ولكن هذه المرة بدا الوضع المسيحي أكثر خطورة. وبعد نقاش حاد، قررت الحكومة أن تقوم بضربة جوية محدودة. كان أرييل شارون ورئيسه في غاية الحماس لدرجة أن الضربة الجوية قد نفذت قبل فضّ الاجتماع.

ضرب الإسرائيليون ما كانوا يظنون أنها طائرة هليكوبتر ولكن تبين أنها ناقلة جند. وكرد على هذا الهجوم نفذت سوريا تهديدها ونصبت صواريخ أرض - جو في وادي البقاع. وبهذا كانت كل من سوريا وإسرائيل قد اتخذتا خطوة كبيرة نحو الحرب.. وكان بشير الرابح الوحيد، فبكل بساطة وعبر تقوية عشرات من جنوده استطاع وبضربة واحدة أن يورط الإسرائيليين ويحرج السوريين، ويُظهر نفسه كبطل لبنان من غير منازع.

صعدت أسهم بشير لدى الطبقة السياسية في الولايات المتحدة. وقصتنا عن الإرهاب في الـ«٢٠/ ٢٠» ركزت بشدة على صورة بشير المتطورة، والبرنامج قد لاقى ردات فعل عديدة. بالرغم من الآراء الجيدة التي قيلت فيه، لكن كما تنبأت لآف ويستين، ثار غضب كثير من مخرجي ومديري الـABC الذين كانوا يشعرون أن لهم حصة في تقرير قد أعدوه سابقاً عن مشكلة لبنان. وبينما كان بشير منهمكاً في معاركه كنت أنا أحارب في معركتي. أدركت ونحن ما نزال في إسرائيل أن هذه القصة لن تكون محبوبة. فصورة الإرهاب بغيضة ومخيفة لأنها تصل إلى جزعنا البدائي من العشوائية والشر.

من الصعب أن نثير الشفقة على الفلسطينيين الذين لا وطن لهم، بذلك النوع من الأحاسيس التي تثيرها الرؤية القريبة لتكتيكات منظمة التحرير الإرهابية. كان الإعلام ككل، والكثير من الزملاء بشكل خاص يتعاطفون بعمق مع القضية الفلسطينية. وإسرائيل كانت مركز

هذا التعاطف عندما كان ينظر إليها ككيان هش معرض للخطر. ولكن منذ أن هزمت إسرائيل عام ١٩٦٧ أربعة جيوش عربية خلال سبعة أيام فقط، عندها أصبحت في نظر الإعلام الغربي دولة قوية و«إمبريالية» تستولي على الأراضي والحقوق الفلسطينية.

معظم الذين لم تستهوهم قصتي من مخرجي الـABC لم يذهبوا من قبل إلى الشرق الأوسط وكانت اتصالاتهم الوحيدة مع منظمة التحرير عبر دعاتها في أميركا الذين يعطون الإعلام ما يريد سماعه. والإرهاب بالنسبة لهؤلاء الزملاء كان كالطفح الجلدي ومن اللائق أن لا ينظر المرء إليه.

العيش في واشنطن عزلني عن السياسة المشتركة. وأدهشني بعض الشيء عدم حصولي على الأخبار من هؤلاء الزملاء الذين كنت أتوقع أن يكونوا مستائين أشد الاستياء من «الحرب غير المقدسة». والإشارة الأولى بأن لدي مشكلة برزت عندما اتصلت سكرتيرة آف ويستين من نيويورك لتدعوني إلى اجتماع حول القصة. ماذا عن القصة؟ سألتها. قالت بأنه توجد رسائل. طبعاً هناك رسائل وصلت، قلت لها. ماذا كانوا يتوقعون؟ وسألت من سيأتي إلى الاجتماع؟

ممثلو المنظمات العربية - الأميركية، قالوا لي. وأيضاً بعض مخرجي الـ«٢٠ / ٢٠» الذين كانت لديهم بعض التحفظات حول القصة.

إنه أمر غير عادي ولكن من المعروف عن المخرجين أنهم قد يجتمعون بمشاهدين ساخطين خصوصاً إذا كانوا يمثلون فئات قوية لهم مصالح معها. ولكن حسب معرفتي لم يسبق أن انضم مخرجون آخرون. وهناك اجتماعات أخرى للمحترفين كي يعبّروا عن آرائهم بشأن أعمال كل منهم وكان أفضل هذه الاجتماعات تلك التي تتم وجهاً لوجه. ولكن لم يكن ذلك خيار زملائي.

تمّ الاجتماع في غرفة المشاورة في مركز شركة الأخبار الـABC. قدّمني آف ويستين إلى ستة من ممثلي المنظمات العربية - الأميركية الذين

تذمروا من القصة. وجلس بينهم أربعة أو خمسة من زملائي المخرجين في الـ «٢٠/٢٠»، وهم الأشخاص الذين حيّرني صمتهم. هناك شخص كان غيابه واضحاً: جيرالدو. فاجأني غيابه بعض الشيء ولكن ما كان عليّ أن أتفاجأ فهكذا هي طريقة العمل، المخرج يتلقى السهام لحماية الموهبة. وعلى أي حال لم يكن لدي أية مشكلة للدفاع عن القصة، مع أو بدون جيرالدو.

ترأس الاجتماع آف ويستين واستلم الحديث. كان أساس الشكاوى هو أن التقرير كان غير منصف لمنظمة التحرير وذلك لأن القصة عرضت استخدامهم للإرهاب بمعزل عن 'مسبباته'، وبدون وضعه في سياق الاضطهاد الإسرائيلي ضد الشعب الفلسطيني، وسلب الأراضي الفلسطينية.

ودافع ويستين عن القصة مشيراً إلى أن موضوعها كان الإرهاب، وليس سياسة الشرق الأوسط هذا الأمر قد ذُكر بوضوح منذ البداية. واشتكى الممثلون أيضاً، من أن الـ ABCتعرض سلسلة اسمها (ماسادا) والجزء الأول من هذه السلسلة يذاع في الأسبوع نفسه الذي تذاع فيه قصتنا في الـ «٢٠/٢٠» وهذا إثبات واضح أن شبكة الـ ABC لها ميول صهيونية. وأخيراً نوديت لأقول كلمتي. وبثقة كاملة وبهدوء دافعت عن القصة. ولاحقاً شكرني آف ويستين على المجيء وشكرته على المساندة. وافترقنا بمودة وكلّ منا يعرف بأن أيامي في الـ ABC صارت معدودة.

لم يعارض كل الأمريكيين من أصل عربي قصتي. وبعد عدة أسابيع من إذاعة «الحرب غير المقدسة» علمت أن الرابطة الأميركية - اللبنانية ستمنحني جائزتها للصحافة.

□ «تشرفت» قلت للموظف الذي اتصل بي ليخبرني. «ولكن لم أسمع بهذه الجائزة من قبل لمن منحت قبلي؟»

- «العام الماضي» قال الرجل متردداً: «استلمها سليم اللوزي».

□ «سليم اللوزي بذاته؟»

- «كان ما يزال على قيد الحياة عندها».

□ «شكراً جزيلاً» قلت ببرودة.

- أقيم الاحتفال في صالة الطعام في «مدينة كريستال» في فرجينيا. جلسنا أنا و«بيني» معاً على الطاولة الأقرب إلى المنصة. شعرت وكأني غريبة. الشخص الوحيد الذي كنت أعرفه هناك هو ألفرد ماضي. وارتباطي الحقيقي بلبنان هو بشير فقط. وقبل أن أمنح الجائزة ألقى شارل مالك خطاباً، مدح فيه بشير، وهو وزير خارجية لبناني سابق ثم جاء دوري.

لا أحبذ كثيراً إلقاء الخطب. صعدت إلى المنصة ونظرت إلى بحر غريب من الوجوه وقعت عيني على «بيني» كانت تبتسم لي مشجعة. كانت تبدو فخورة.

وتكلمت عن بشير. حاولت أن أكون حذرة. لم أرد أن أقول الكثير ولكن شعرت وكأن أحاسيسي مكتوبة على وجهي. قلت إني أظن أن بشير هو ذلك البطل القديم الطراز، وأن لديه الشجاعة ليسير حسب معتقداته ويتحمل النتائج. تكلمت لدقائق قليلة وختمت كلامي بقول لـ «امرسون» وهو: «إذا تمسك المرء بمكانه وبقي صامداً هناك، متحدياً كل النزاعات، عندها سيأتي العالم كله إليه».

وكلماتي هذه أثارت الحضور، فوقف يصفق باستحسان - ليس لي، فكّرت، بل لبشير. هرع إليّ ألفرد وقال إنه سيبرق عبارة «امرسون» لبشير.

انتهت القصة وعدت إلى العمل في الـ ABC كالعادة. وكنت قد بدأت بقصة عن معمر القذافي وكيف يستخدم جيشه ودعم السوفيات ليحارب الجيش الثائر في تشاد. وقائد الثورة في تشاد كان مدعوماً من الـ C.I.A والسودان، والمخابرات الإسرائيلية. كانت القصة مثلاً حياً

لي لتبيان كيف أن القوى العظمى تحارب الآخرين بالوكالة مستخدمة من ينوب عنها في ذلك. ولكن لسبب أو لآخر لم أستطع أن أعطي كل تركيزي واهتمامي للقصة. لم يسبق أن عملت في قصة على أنها «مجرد» قصة. فكل القصص التي كنت أقوم بها كانت تستحوذ عليّ كلياً.

علمتني الضرورة أن أتخلى عن كل شيء عند انتهائي من قصة ما، وأعود مجدداً إلى نفسي. وهذه المرة فقط لم أستطع القيام بذلك فقد كبلني لبنان بقيوده، ومشاعري نحو المسيحيين فيه كانت إحدى هذه القيود. وهم الذين ـ حسب ما أعتقد ـ كانوا ضحايا ـ كبش المحرقة ـ لكل المشاكل في منطقة قلقة. لم يكونوا ليثيروا شفقتي لو أنهم كانوا ضحايا سلبيين، لكنهم وتحت وصاية بشير كانوا يحاربون للمحافظة على بلادهم. كان لبنان الدراما التي أسرتني أكثر من غيرها.

والقيد الآخر كان بشير.

انتهت القصة وكنت بحاجة لمتابعة حياتي. ولكن في كل مرة كان يتصل بشير بي.

وكان هذا كل يوم تقريباً، كنت أتلاشى أمام صوته وكأنني مراهقة أو بطلة قصة كنت لأزدريها. لقد انطلقت بحرية تلك المشاعر التي كنت أدرسها بالتفصيل، وأداريها. ولكن قوتها الجامحة كانت تخيفني. ولم أخف من أي شيء في حياتي كخوفي من هذا الرجل.

لم يقترب مني أي شيء باستثناء بيني ـ وكان كل منهما يشد بي من جهة ـ وكان هذا يخيفني، كنت على شفير التورط برجل مهما أحبني فلن يكون لي أبداً. كنا نعوّض بعدنا عن بعضنا البعض بكلام حميمي طويل على الهاتف واقتربنا أكثر من بعضنا البعض. كان بشير مهتماً بزوجته وكانت تعبده بالمقابل، لكنه لم يشعر بأنه يستطيع التكلّم بحرية مع صولانج كما كان حاله معي.

كان على بشير أن يظهر قوياً وواثقاً من نفسه وعازماً على الدوام

أمام زوجته وشعبه وكان يشعر أنه يدين لها بذلك.

ـ «لا أريد أن أكون بشعاً مع صولانج. إنها لا تستحق هذا» قال لي.

ولم أكن أريد إيذاء صولانج، ولكن تلك النقطة الصغيرة من الاهتمام الأخوي ضاعت مع ذلك الدفق المضطرب لمشاعري نحو بشير.

كنت أفكر به باستمرار. وأقارن كل شخص تقريباً به لأجده دون المستوى المطلوب. وفي اليوم الذي اتصل بي بشير ليعلن مبتهجاً قدومه إلى واشنطن، خططت للسفر إلى الخارج.



بشير الجميل في احدى جولاته العسكرية

- ٩ -

بشير يختلس الحب.. في أميركا

إن هذا منتهى الجبن، كنت مذعورة.

كانت القصة بمثابة حاجز بيننا. وبدونها ما من شيء يحميني من بشير أو من ذلك الجزء غير المعروف في نفسي، الذي يناديه. هناك شيء لا أستطيع السيطرة عليه في انجذابي لبشير، وكنت أرى بوضوح مدى جنون طريقي. كان بشير قائداً عسكرياً، وحياته، لا تستطيع حتى أية شركة تأمين أن تؤمن عليها، وكان أيضاً زوجاً وأباً ومارونياً.

حياتي وابنتي، وعملي كانوا كلهم هنا، وإذ يوجد رجل يعتبره العقل التقليدي غير مناسب لي فإن هذا الرجل هو بشير، وكنت قد وقعت في حبه، لم أحبذ هذا الشعور وبالتأكيد لم أكن أثق به أيضاً، ومن النادر أن تتوافق آراء ونظرة أهلي إلى الحياة، ولكن أصواتهم في داخلي كانت تتحد في تحذيري: «لا تدعي المشاعر تتدخل في حياتك أبداً» همس أبي. وتقول لي أمي موافقة: «ما الأمر، ألم تعاني بما فيه الكفاية؟».

إذاً، طرت إلى باريس لكي أجمع معلومات لقصتي عن الحرب بالوكالة في السودان، قابلت ولخمسة أيام مصادر من ليبيا وتشاد - عملاء للمخابرات، وصحافيين وأكاديميين - أمضوا ساعات معي لوضع خطة فاعلة للسيناريو، والمواضيع، واللاعبين في تلك الحرب، وخلال تلك الأيام من العمل الشاق تذكرت من أكون، ثم، مستعيدة

قوتي وعزمي، رجعت إلى واشنطن وبشير.

بعد ساعة من رجوعي، اتصل بي ألفرد ماضي:

«بشير هنا»، قال بحماس، «يريد أن يراك، متى يستطيع المجيء؟».

واتفقنا على أن يأتي بشير في وقت متأخر من بعد الظهر، استحميت وارتديت بدلة رمادية كنت قد اشتريتها من باريس للمناسبة، لقد عرفني بشير تحت أوضاع حربية، رآني قذرة، كريهة الرائحة، وموسخة، وباردة، ومشعثة الشعر، كنت أتوق لرؤية عينيه عندما يرى وجهي الآخر. جلست في مكتبي محاولة العمل ولكن لم يكن لدي الصبر. فرحت أراقب الساعة وأتساءل كيف سيجد بشير منزلي، لا شك أن ألفرد سيعطيه معلومات، وفي الساعة المحددة تماماً، سمعت ضجة في شارعي الهادىء نظرت خارج النافذة لأرى موكباً من خمس سيارات يتوقف أمام بابي. وعندما وصلت إلى الباب كان الرصيف قد امتلأ برجال يرتدون نظارات سوداء ويحملون أجهزة لاسلكية. ثم رأيت بشير. كان يتكلم مع أحد رجال المخابرات.

فتحت الباب بقوة وصرخت: «بشير». نظر إليّ وعلت وجهه ابتسامة عريضة. مشى مسرعاً إلى الباب، وأمسك بي وقبّلني، ومن فوق كتفه رأيت وجوه مرافقيه الجفلة والعيون الفضولية لأحد الجيران.

لحق ألفرد ماضي ببشير إلى داخل المنزل كالظل. كنت مسرورة جداً برؤية بشير حتى أنني أهملت إلقاء السلام على الفرد، وضحك هذا الأخير باستياء قائلاً: «إنها لا ترى سواك يا بشير..» ثم دخل إلى المطبخ وبدأ إجراء اتصالات هاتفية.

كانت عينا بشير دافئتين وعابثتين، قبّلني مجدداً. قلت له «ماذا يفعل كل هؤلاء الرجال هنا؟ توقعت أن تأتي بمفردك، وليس مع نصف رجال المخابرات في أميركا».

ضحك بشير: «أصروا على المجيء معي. ولكن لم أدعهم

يدخلون، قلت لهم إنها زيارة خاصة».

□ «ولكن أليست الرحلة كلها زيارة خاصة؟».

ـ بدا مستغرباً لقلة معرفتي. «حكومتك وجهت لي الدعوة» قال، «إنها زيارة رسمية». ثم ضحك «في العام الماضي عندما أتينا إلى الولايات المتحدة ذهبنا إلى مركز الحكومة، لم يرد أحد أن يكلمنا، فغادرنا وذهبنا لشراء البوظة، هذه المرة، أرسلوا لي غواصات نووية».

أدخلته إلى غرفة المطالعة. جلس بشير بقربي وأمسك بيدي. متوترة، بدأت بطرح وابل من الأسئلة السياسية عليه، وكان بشير يجيب على أسئلتي بكلمة واحدة وعيونه تضحك، ثم نهض وقال: «لنذهب إلى الطابق الأعلى».

ـ «أريني بقية أنحاء المنزل».

□ «ولكن ماذا عن رجال المخابرات؟».

ـ «سوف ينتظرون»، قال.

ذهبنا إلى الطابق الأعلى.

كانت هذه اللحظة تنشأ تدريجياً بيننا منذ اليوم الذي التقينا فيه، وعندما حانت أخيراً، تفجرت تلك القوة المكبوتة. بدا من الجيد والصحيح أن جسدينا كانا يفعلان ما فعلته روحانا منذ زمن طويل.

عندما نزلنا وجدنا ألفرد في المطبخ يأكل الفاكهة، متمنية أن يكون ألفرد في القمر. همست إلى بشير:

□ «هل نستطيع أن نمضي هذه الليلة معاً؟».

ـ «نعم» قال. ثم قال شيئاً باللهجة اللبنانية إلى ألفرد.

«كلا» قال ألفرد، ثم انتقل إلى اللهجة اللبنانية وتكلّم بحماس لعدة دقائق.

هز بشير كتفيه مستسلماً.

ـ «ألفرد يخشى أن هذا سيبدو سيئاً للأميركيين، تعالي إلى الفندق

غداً عند الساعة الثانية بعد الظهر. هناك نستطيع أن نمضي بعض الوقت معاً».

كان اليوم التالي جميلاً ودافئاً.

ارتديت ملابسي وذهبت إلى فندق Four Seasons كان بشير قد انتقل من فندق ماديسون بعد أن استلم تهديدات على حياته. وهو الآن يشارك ألفرد جناحاً يضم غرفتين. أما غرف رجال المخابرات فكانت في الجانب الآخر من الصالة. كنت متعبة للغاية من ليلة أرق طويلة وبدلاً من أن أجلس على المقعد الكبير في غرفة بشير استلقيت فوقه. هرع ألفرد إليّ.

ـ «اجلسي، اجلسي»، همس وهو ينظر إلى وراءه إلى الباب المفتوح على الرواق. جلست وفي دقائق قليلة خرج بشير من الغرفة ووضع ذراعيه حولي وبدأ بتقبيلي، كان الباب ما زال مفتوحاً وكنت أشعر بتوتر ألفرد. ولكن سرعان ما نسيت أمره.

لاحظت دبوساً فضياً على صدر سترة بشير، كانت مزخرفة بشجرة أرْز، وتحت الشجرة حفرت كلمة «كتائب»، «إنه دبوس جميل»، قلت، وخلع بشير سترته وناولني إياها ثم أراني اسمه المحفور بالعربية على الدبوس. «احتفظي به»، قال وهو يغلق يدي حولها. عانقته ووضعت رأسي على كتفه.

تثاءب ألفرد بصوت عال وأعلن أنه ذاهب ليأخذ قيلولة، فذهب إلى غرفته وأغلق الباب. سألني بشير متى سأستطيع المجيء إلى بيروت ثانية.

«عاجلاً»، قلت له. «قريباً جداً».

«هناك سيكون أفضل لنا. لا رجال مخابرات ولا ألفرد. في الوطن أستطيع الذهاب والمجيء كما يحلو لي، سيكون لدينا الكثير من الوقت، ستمكثين في منزل ألفرد خارج بيروت وسأمكث معك».

لم أتكلم، رجعت إلى الأفكار التي حالت بيني وبين النوم ليلة أمس. فهمت وقبلت أن بشير كان متزوجاً، وبأنه في وضعه وفي عالمه لن يحصل على الطلاق أبداً، لا يستطيع الماروني الطلاق. كان بشير يقول هذا مراراً لجنوده الشبان لئلا يتسرعوا في الزواج. وحتى لو كان أعزب فلن أستطيع ترك ابنتي، كما أنني لا أستطيع أن آتي بها لتعيش في بيروت. كنت أعلم أن النهاية ستكون حزينة. ولكن يبدو صعباً أن تكون البداية كذلك، أيضاً.

كان من الأجدى بنا أن نذهب لقضاء نهاية الأسبوع وحدنا في مكان جميل. ولكن فجأة أصبح بشير رجلاً مهماً في واشنطن، مع ترتيب لم يترك أي وقت للحب الذي اختلسناه اختلاساً، لاحظ بشير أنني لا أتكلم.

ـ «ستأتين أليس كذلك؟»، قالها بحياء وهو يلمس وجهي. «إنني بحاجة إليك. تعلمين أنني لا أستطيع التكلم بحرية مع معظم الناس الآخرين، الأمر مختلف معك. أنت لست كالنساء الأخريات. أنت مهمة جداً بالنسبة لي».

□ «لا شيء يستطيع إبعادي عنك» قلت له. ووضعت يدي على يده.

بعدها تحوّل الحديث، كالعادة، إلى السياسة. كان بشير مسروراً جداً باستقباله في الولايات المتحدة «فجأة أصبح الأميركيون مهتمين بنا»، قال، «بدأوا يفهمون المنطقة بشكل أفضل، ويدركون أنهم لن يصلوا لأي شيء إذا نفذوا خطط العرب».

□ «ماذا تعني؟».

وبدأ يتكلم بسرعة وبشدة: «اتفق بعض العرب مع الأميركيين بأنهم سيضغطون على عرفات ليكون أكثر اعتدالاً، إذا ضغط الأميركيون بدورهم على الإسرائيليين بعدم مساعدتنا ومعاداة منظمة التحرير، وظن الأميركيون أن هذا سينجح، بما أن السعوديين متمسكون بحبال

محفظة منظمة التحرير، وكذلك الأميركيون بالنسبة للإسرائيليين. لم يدركوا أن الخطة خاسرة منذ البداية، لأن لا عرفات ولا العرب يحافظون على كلمتهم. يتنفس عرفات ستين مرة في الدقيقة، ويكذب مئة وعشرين مرة. وأي اتفاق معه لا يعني شيئاً. إن الأميركيين سذج، ولقد حفروا مقبرتهم في الشرق الأوسط، لقد طلب الإسرائيليون دعماً مالياً من الأميركيين والأميركيون سيقدمونه».

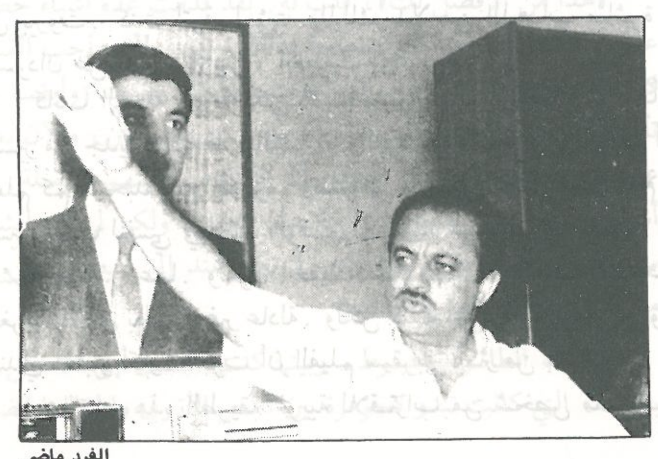
بحكم الغريزة مددت يدي لأتناول دفتري الصغير، ولكن طبعاً لم يكن موجوداً.

ـ «الأمور تتغير بسرعة» قال بشير. «وإسرائيل ستقدم على عمل حازم ضد منظمة التحرير، وتغيّر التوازن في المنطقة».

□ «ولكن بشير»، قلت، «هل تظن بالفعل أن الإسرائيليين سيدخلون جيشهم إلى لبنان؟».

وبابتسامة كبيرة في عينيه، قال «راقبي فقط، باربرا سيحصل هذا قريباً».

لم أصدقه. ظننت أنه يعبّر عن آماله وليس عن وقائع. ولكن لم أجرؤ على قول هذا له.



الفرد ماضي

- ١٠ -

إلى بيروت من جديد

مع حلول شهر أيلول/ سبتمبر وصلت قصتي عن الحرب بالوكالة في تشاد إلى مرحلة الاستعداد للذهاب إلى السودان لتصوير حسين حبري. حبري الآن رئيس تشاد، لكنه في ذلك الوقت كان يقود قوات المعارضة التي كانت تحارب نظام البلاد المدعوم من ليبيا. كان على الأرض مستشارون ورجال مخابرات من الـ C.I.A والسوفيات، كان الجيش الليبي في مواجهة مع تشاد، ومعارضة حبري كانت مدعومة من الـ C.I.A، وإسرائيل، والسودان، مما سمح لحبري أن يمركز قواته في الأراضي السودانية القريبة من الحدود التشادية. كانت قواته المؤلفة من عشرات المقاتلين بمثابة شوكة في خاصرة ليبيا. طلب مني بشير المجيء إلى بيروت. كنت أتوق لرؤيته ولذلك بدلاً من الذهاب مباشرة إلى السودان عن طريق باريس، انعطفت إلى بيروت.

كانت الرحلة مريحة لكني كنت متوترة. ليس فقط لأنني سأرى بشير من جديد. كنا قد تناقشنا أنا وألفرد عن مشروع الزيارة ولم أكن أعلم كم سيحبذ بشير الفكرة. وتتلخص بأن أقوم بعمل فيلم أقدّم فيه بشير. قلت لنفسي في ذلك الوقت، إن هذا سيساعد في القضية التي جئت أستفسر عنها. ولقول الحقيقة عن رجل سبّبت له الصحافة الغربية الأذى بطريقة غير عادلة. ولكن كنت أعلم في قلبي، أنه يوجد عندي اعتبار أكبر، فكرت أن الفيلم سيقرّبني أكثر من بشير.

ربما تبدو هذه الطريقة غريبة للاقتراب من شخص ما، تقويم

حياته عبر عدسات الكاميرا، ومقابلة أصدقائه وعائلته، وطريقة بشير في المعاملات والاقتراحات. ولكن بالنسبة لي كانت هذه الطريقة الأكثر طبيعية: استغلال المهنة التي كنت متفوقة فيها وهي الفرصة الأفضل لي ولبشير كي نكون معاً.

والفيلم سيتيح لي الفرصة لأقوم بعمل لطالما تمنيته وهو الاتصال بالأشخاص المقرّبين منه، الأناس الذين عرفوه قبل أن يصبح ذا سلطة - أمه وأبوه وأخوه وأصدقاء الطفولة - وفي هذا التوق أكثر من رغبة المحبين العادية في التكلم عن أحبائهم.

على الرغم من كل هذا الحب لبشير، لم أكن أفهمه بالكامل، فمع كل صراحته معي، كان بشير رجلاً متحفظاً، ولم أكن أعلم إذا كان سيحتمل هذه الدرجة من الظهور.

كان ألفرد ماضي قد سبقني قبل أسبوع إلى لبنان. واتفقنا أن يعرض الاقتراح على بشير لإعطاء هذا الأخير وقتاً كافياً للتفكير قبل وصولي. لم أقدّم طلباً للحصول على تأشيرة دخول، لأنني لم أشأ أن يظهر اسمي في أية لائحة رسمية. وأكد لي ألفرد أن هذا لا يهم، لأنه سيأخذني من المطار بطريقة خفية.

«هذا من الأفضل لك»، قلت له. لقد قدمت عدة أشياء خطرة في عملي، وكنت أقوم بها لأنني بحاجة لذلك، وليس لأنني أحب القيام بها كنت متوترة في المرة الأولى التي طرت فيها إلى بيروت (وأيضاً بدون تأشيرة!)، ولكن وقتها كنت غير معروفة لدى السوريين، والآن بعد أن عرضت قصتنا، ليس من الممكن أن أكون صحافيتهم المفضلة. كنت أشعر بأن بشير لن يسمح لأي كان بأن يؤذيني، ولكن لم يكن لبشير أية سيطرة على السوريين، و«مملكته» لم تكن تمتد إلى المطار الذي كان موقعه في بيروت الغربية المسلمة.

بدأت الطائرة بالهبوط، وبينما كنت أحدق إلى الأسفل، إلى بيروت، التي كانت تبدو كجوهرة بين البحر الأزرق والجبال الخضراء،

زاد عندي ذلك الشعور، شعوري بالقدوم إلى الوطن. وهبطت الطائرة. نظرت خارج نافذة الدرجة الأولى التي كانت مواجهة لمبنى المطار، لم يكن هناك أي أثر لألفرد ولكن كان هناك ما يقارب الثلاثين جندياً يحملون شيئاً تهيّأ لي أنه صورة فوتوغرافية، وكانوا يدققون النظر بالركاب المترجلين من الطائرة.

وعلى الرغم أنني لم أتعرف على شاراتهم العسكرية، كنت أعلم أن السوريين والفلسطينيين كانوا يسيطرون على المطار وقد استغربت وجود هذا العدد الكبير منهم لاستقبال شخص ما، وقد دار في خلدي أنهم هناك لاعتقال أحد ما، إلى الآن لا أثر لألفرد، لكنه وعدني بأنه سيكون هنا. اكتشفت أنه وبرغم مظهره المتبجح فإن ألفرد كان شخصاً يُعتمد عليه. مكثت في مقعدي حتى نزل كل الركاب. الجنود كانوا ما يزالون في مكانهم، ينتظرون، وقد بدأوا يتكلمون بلهجة حادة فيما بينهم. خرج كابتن الطائرة من الكابين. أتت نحوي المضيفة وسألتني:

□ «هل أنت على ما يرام يا آنسة؟».

قلت لها بأنني بخير ومشيت إلى باب الدرجة الأولى. والجنود ما يزالون محتشدين حول مخرج الدرجة السياحية. هبطت السلم وبدون أن أنظر إلى الجنود مررت بهم محاولة عدم إثارة الاهتمام قدر الإمكان، متوجهة نحو قاعة الوصول. ماذا سأفعل دون تأشيرة عندما أصل إلى هناك، لم يكن عندي أدنى فكرة. لم أنجح، ضبطني جندي وصرخ عالياً ثم راح يركض نحوي ملوحاً بصورة. ناولني إياها. «هل هذه أنت؟».

كانت الصورة لي. وقد أخذت في آخر مرة كنت فيها في بيروت. قبل أن أغير من تسريحة شعري وأجعله قصيراً، ترددت، لم تكن الصورة مشابهة لي تماماً. كنت أبدو مختلفة الآن حتى أنني أستطيع أن أنكر أنها صورتي. ولكن ماذا سينفعني هذا؟ والصورة أخذها لي أحد أصدقاء بشير. كيف حصل السوريون والفلسطينيون عليها؟ تقدم

نحوي عدد كبير من الجنود. نظروا إلى الصورة ثم إليّ.

□ «نعم» قلت أخيراً.

وعلى الفور أمسك الجندي بذراعي وأخذ يشدني بعيداً عن قاعة الوصول. فقاومته. لكنه عاد يشدني بقوة: «هيا»، قال يائساً.

□ «إلى أين؟».

- «تأخرت طائرتك»، قال، «كنت آخر من نزل من الطائرة. الشيخ ينتظرك».

□ لم أتحرك. «إلى أي جيش تنتمي؟» سألته بلباقة. (حتى كتابة هذه السطور، لم أتوقف أبداً عن التفكير بغرابة عن دلالة ذلك السؤال).

- «نحن الجيش اللبناني»، قال.

وهذا لم يعنِ لي شيئاً. فالجيش منقسم تماماً كالبلاد، فهناك فرقة شيعية، وفرقة سنية، وفرقة درزية، وفرقة مسيحية، وكل واحدة منها تقدم الولاء إلى حزبها. وقفنا نحدق ببعضنا البعض للحظات قليلة. ثم مدّ يده داخل قميصه وأخرج سلسلة خفيفة عليها صليب وميدالية.

تساءلت إذا كان هناك أي يهودي قد فرح لرؤية صليب. كنت على وشك أن أهم بتقبيله، لكنه لن يفهم. سألني جندي آخر عن قسيمة الحقائب. ناولته إياها. ركبت مع الثلاثين جندياً في ستة جيبات وانطلقنا.

بعد وقفة قصيرة في قاعدتهم، ساروا بي في طريق مرتفع نحو الجبال المطلة على بيروت. مكثت في هذه الرحلة في فندق «البستان»، أحد أشهر فنادق لبنان. كان فندقاً أنيقاً، وغرفتي كانت باردة. خرجت إلى الحديقة وحدّقت في ليل بيروت المضيء الذي بدا متجانساً مع السماء المتلألئة بالنجوم.

ثم دخلت واستحميت. وبعد دقائق قليلة دقّ الباب.

كان بشير مع ألفرد. «أيها الفتيان» قلت لهما فرحة. «فتيان؟» ردّد بشير متسائلاً. دخل ألفرد أولاً وهو يضحك ثم قبّلني على خدي. بينما جلس بشير فوق السرير.

- «وافق بشير» قال ألفرد.

□ «لحظة» قلت. «أين كنت بحق السماء يا ألفرد؟».

- «تعلمين أنني لا أستطيع الذهاب إلى المطار. إن هذا خطر جداً».

□ «قلت لي أنك ستكون هناك».

- هزّ كتفيه وقال: «أرسلنا لك جنوداً، خرجت بسلام».

□ «شكراً لك».

- «لا تهتمي يا باربرا. فالأهم من هذا أن كل شيء أعدّ للفيلم. وبما أنك هنا تستطيعين التكلم مع من تريدين، حتى الشيخ بيار، ووالدة بشير، وطبعاً، زوجته صولانج».

كان شيئاً مضحكاً. فالأسابيع التي أمضيتها وأنا أفكر وأخطط للفيلم. لم يطرأ في بالي ولو مرة واحدة بأنه سيكون عليّ مقابلة صولانج، وطبعاً كان من الصعب تفادي هذا الأمر فقلت لبشير: «هذا يعني أنه عليّ العودة ثانية».

- «أخشى ذلك» ردّ قائلاً وضحك.

غادر ألفرد بعد نصف ساعة. استدار بشير نحوي وتعانقنا.

بعد بضع ساعات طلبنا العشاء وتناولناه في الحديقة. كنت أشعر بارتياح وسعادة كبيرين، وباسترخاء وبشير كذلك، وكنت أفكر بالفيلم.

□ «كيف تظن شكلك؟» سألته دون انتباه وكأنني أسأل زميلاً لي.

- «هذا ما عليك اكتشافه» أجاب بنبرة حماس.

□ «ولكن أنتَ ما رأيك؟».

توقف عن الكلام لوقت بدا طويلاً وقال: «أحب والدي، ولكن كان عليّ معارضته كل حياتي.. وأن أتحمّل وطأة معارضته لي أيضاً. علّمني ضبط النفس والاحتفاظ برباطة الجأش. لكنه أيضاً كان يعارض كل ما كنت أتمنى أن أكون».

□ «وماذا عن أخيك؟ أود مقابلته، على فكرة».

- «لا أعلم إذا كان سيستقبلك؟».

□ ابتسمت قائلة: «أتريد المراهنة؟».

برد الطقس. وبعد العشاء دخلنا إلى الغرفة، جلس بشير على المقعد وواصل حديثه، فسألته لماذا وافق على الفيلم.

- «أخطأت في عدم اهتمامي بصورتنا»، قال، «في البداية لم يكن هناك أي وقت للقلق. كان علينا المحاربة من أجل البقاء، والآن قد تجاوزنا تلك النقطة، أرى أن رأي الناس فينا مهم».

نظر إليّ وعلى الرغم من الستة أقدام التي كانت بيننا، شعرت وكأننا نلمس بعضنا البعض. ابتسم بشير وقال: «أتعلمين يا باربرا عندما جئت إلى هنا في المرة الأولى لم أستطع أن أحزر سبب اهتمامك بنا، لم أكن أعلم إذا كان السبب هو أنك رأيت الظلم بعينيك وتأثرت به، أو أن الإسرائيليين طلبوا منك ذلك».

□ «ظننت أنني كنت أعمل معهم؟».

- «ورد هذا في خاطري، ولكن لم يكن مهماً مهما كانت الأسباب، فأنت وفريقك أول من أعطانا الفرصة لقول رأينا».

□ لم أحاول حتى أن أبعد نبرة الاستياء عن صوتي: «كيف تظن أنني أسمح لأحد أن يقول لي ماذا أفعل أو ماذا أعتقد؟ ألا تعرفني؟».

- أجل، أعرفك الآن، ولكن في البدء كان من الصعب عليّ أن

أفهم سبب اهتمامك.

بقيت مستاءة حتى تذكرت، عندما التقيت بشير لأول مرة ماذا ظننت عندما حدّثني ديفيد كيمحي عنه. لقد راودني شك أن بشير في جيب إسرائيل. أضحك لهذا الآن. فكرت أن أقول ذلك لبشير، لكني لم أفعل.

في صباح اليوم التالي اتصلت بأمين شقيق بشير في مكتبه ببيروت.

بالإضافة إلى أنه عضو في البرلمان وقائد لحزب الكتائب، كان أمين رجل أعمال ومتزوجاً من سيدة من أغنى العائلات في لبنان.

على الهاتف، قلت لأمين أنني مراسلة أميركية، وأرغب بإجراء مقابلة معه. وافق بخفة ودعاني للمجيء إلى مكتبه في وقت لاحق من ذلك الصباح.

جاء أحد حراس بشير عند الساعة التاسعة ليأخذني من الفندق إلى مكتب أمين الواقع في عمارة حديثة البناء جلست في حجرة الانتظار حيث كان يجلس بعض الزوار. كان مكتب أمين مريحاً ومتناسقاً ومترفاً جداً على عكس مكتب بشير المتواضع. قال لي أمين بشيء من الفخر. إن العمارة نفسها كانت مركز مؤتمرات عالمية لذلك يأمل أن تجذب الكثير من الأعمال. ففكرت أن المجانين فقط يقيمون مؤتمراً في بيروت.

كانا متشابهين للغاية، الأخوان الجميل، باستثناء بعض الفوارق، كان وجه بشير حيوياً، وأمين كان متحفظاً وحذراً ولم يجب على أي سؤال دون أن يتوقف لحظة للتفكير، وكانت إجاباته تبدو وكأنها معدّة للإرضاء. كان أمين أطول وأنحف من بشير وشعره الأسود الكثيف مسرّح على طريقة تسريحة ترافولتا. وعلى الرغم من أنه يكبر بشير بخمس سنوات، كان يبدو أنه ينتمي إلى جيل أكبر.

قال أمين إن آماله كبيرة بأن تصل أحزاب لبنان السياسية إلى اتفاقية ترضي كل الفئات، هكذا تكلّم، وكأن ما كان يجري خارج

مكتبه المكيّف كان مجرد مفاوضات شاقة وليست نزاعات دامية. كان يبدو ضجراً، وكأنه لا يصدق ما يقوله.

□ قلت له: أسمع بأنك قلّما تتفق مع أخيك.

ـ «هذا ليس صحيحاً». قال أمين بسرعة. «نحن صديقان جيدان. الأسبوع الماضي خرجنا مع زوجتينا».

كلمني بشير عن هذا الاجتماع وهو الأول منذ شهور على الرغم من وجود الزوجتين. لم يكن هذا الجمع اجتماعياً، بقدر ما كان رسمياً.

عندما مشى أمين معي إلى خارج المكتب، رأى سائق بشير جالساً في حجرة الانتظار، بدلاً من الانتظار في السيارة كما قلت له.

تعرّف أمين على الرجل على الفور، ورمقني بنظرة خاطفة ثم ألقى عليّ سلاماً موجزاً.

في يوم مشمس وجميل قادني ألفرد ماضي إلى جبال المتن المسيحية والمنطقة التي كان يمثلها أمين في البرلمان.

بعد ساعة قيادة (في السيارة) من شمال شرق بيروت وصلنا إلى بكفيا، جوهرة صغيرة في منطقة المتن حيث كان لعائلة الجميل منزلهم الصيفي وهو مبني من حوالى ٣٠٠ سنة، بكفيا قريبة من المناطق التي يسيطر عليها السوريون، والجيوش السورية كانت متمركزة فوق جبل البلدة الصغيرة الجميلة المعروفة، بـ «مدينة الزهور»، كان هناك محال صغيرة مرتبة على طول الطريق العام، وكانت الشوارع نظيفة للغاية. وجو مميز من الهدوء والرومنطيقية يسود القرية وإحساس بأن الوقت لا يجري بالسرعة المعتادة، وعلى الرغم من ضجيج عربات السوريين، كانت الحرب تبدو بعيدة عن هذه القرية. وصلنا إلى البوابات الحديدية خارج منزل الجميل ولوّح حراس الكتائب لألفرد وسمحوا لنا بالدخول.

كان هناك الكثير من الحراس حول المنزل، رأيت حوالى دزينة

منهم. كان المنزل يحتوي على خمس عشرة غرفة كبيرة وكان مبنياً من الحجارة الرمادية الكبيرة التي تحفظ البرودة داخل المنزل.

كنت فضولية جداً بشأن بيار الجميل، قال لي بشير إن والده كان له النفوذ الذي شكّله أكثر من أي شيء في حياته. وصدقته، ولكني كنت أعلم أنه يوجد شيء أكثر من هذه العلاقة من احترام الأبناء للآباء.

مرّ عام واحد فقط منذ أن وحّد بشير المسيحيين، وبذلك أصبح دور كل كبار المجتمع المسيحي، بمن فيهم والده دوراً ثانوياً. . عارض بيار بمرارة الهجوم على ميليشيا داني شمعون، الذي مهّد الطريق إلى الوحدة. لم يعط بشير أباه أي تحذير عن العملية، التي نفذت عمليا بينما كان بيار الجميل يتناول طعام الغداء مع والد داني، كميل شمعون.

كنت قد سمعت أيضاً عن اجتماع بين بعض رجال الكونغرس الأميركي والشيخ بيار والذي حصل في نيسان/ أبريل الماضي، بعد أن تحاربت قوات بشير مع السوريين في زحلة في وقت قصير جداً. والد بشير لا يجيد الإنكليزية، لذلك عرض بشير عليه أن يكون مترجمه. عندئذ أخذ بشير يترجم بالضبط ما كان يريد أن يسمعه لرجال الكونغرس. وعندما أشار أحد الأميركيين الذي كان يفهم الفرنسية، بأن ترجمة بشير غير مطابقة لكلمات الشيخ بيار، ردّ بشير ببرودة: «اسمح لي سيدي، أنا أعرف ما يريد أبي قوله».

من كان يعرف بشير وأبيه كان يقول إنه حتى بعد أن حلّ بشير محل والده كان يلتمس نصيحته وموافقته في العمل لكنه كان يعمل على طريقته عندما يتعارض مع أبيه في الرأي.

ومنذ عدة سنوات سجن رجال مخابرات بشير أربعة أشخاص من وادي البقاع بتهمة محاولة بيع ثلاثة كيلوغرامات من الهيروين في بيروت الشرقية. كان أحد السجناء الأربعة، صديقاً وسنداً سياسياً للشيخ بيار.

دعا الشيخ بيار أحد رجال مخابرات بشير «بول عريس» وطلب منه

إخلاء سبيل المسجون، فردّ عريس قائلاً: «شيخ بيار، لو كان حشيشاً لما كنت اهتميت، لكنه هيروين إنه يقتل الناس. وكانوا يتاجرون بكمية كبيرة».

□ كانوا يصادرون الكمية. رد الشيخ بيار.

- هذه ليست مشكلتنا. وقال عريس إنه سيسأل بشير، مما أغضب بيار الجميل. فصرخ: «ليس عليك الاستفسار من بشير، أنا أقول لك أن تخرجه»!.

اتصل عريس ببشير الذي أوعز إليه بالاحتفاظ بالنصابين الأربعة في السجن. .ويتجاهل أباه.

استقبلنا بيار في حديقة خارجية. دهشت من طوله وفخامته ومظهره المتقشف والصارم وتصرفه المهيب الذي جعلني أشعر بعدم الارتياح. وبينما كان الخادم يقدم لنا القهوة والحلوى بدأت إجراء المقابلة وأخذ ألفرد يترجم.

موضوع المقابلة كان بشير الجميل، وكل سؤال سألته كان عن بشير، ومع ذلك كل جواب كان عن بيار الجميل.

سألت متى بدأت العائلة تدرك أن لبشير مؤهلات قيادية، فتحدث الشيخ بيار عن صراعاته لتحرير لبنان من السيطرة الفرنسية. وسألته كيف يشعر إزاء ما يقال في دوائر كثيرة بأن بشير سيكون رئيس لبنان المقبل، رد الشيخ ملخصاً كيف أسس حزب الكتائب، سألته إذا كان يظن أنه باستطاعة بشير توحيد لبنان كما وحد المسيحيين، فراح بيار يتكلم عن توحيده للمسيحيين في ظل الحكم الفرنسي. نظرت إلى ألفرد باندهاش، الذي كان وجهه خالياً من أي تعبير فقد كان مترجماً لا أكثر.

المرة الوحيدة التي ذكر فيها الشيخ بيار ابنه الأصغر كانت عندما سألته كيف كان بشير وهو طفل.

توقّف الرجل العجوز لبرهة، ثم قال: «كان ولداً سيّء السلوك».

□ هل كنتما قريبين سألته بسرعة.

«كان يتعقبني حيث أذهب، كان تحت رجليّ، كان مشاغباً. كنت أتلقى التقارير، ويرن الهاتف حتى في الليل، قال بيار وعلت وجهه العارم مسحة حيوية، اتصلوا بي مرات في ليلة واحدة. وكلها شكاوى عن بشير، في أماكن مختلفة، وبعيدة عن بعضها البعض. عندما جاء بشير إلى المنزل دعوته للمثول أمامي».

□ هل فعلت هذا، سألته. نعم، قال وهذا، نعم. وهذا، نعم، نعم، نعم.

تنهد الشيخ بيار قائلاً: «ولد سيّىء السلوك».

كانت والدة بشير جنفياف الجميل، ابنة عم زوجها، كانت خارج البيت عندما وصلنا ولكنها وصلت بعدنا بساعتين. جلسنا في غرفة الجلوس التي كانت مزينة بأثاث خشبي من خزف وقماش ثقيل. وجنفياف الجميل امرأة قصيرة القامة وممتلئة الجسم، كانت متشحة بالأسود وشعرها الرمادي معقود إلى الوراء على شكل كعكة. وكانت تملك عينين ضاحكتين كابنها وطريقة كلامها كانت مثله أيضاً، ونظرته المتفحصة وعلى خلاف بيار، كانت تحب ولدها الأصغر بشغف.

كان بشير قريباً من أمه وما يزال يدعوها «ماما» ويتكلم معها كل يوم.

قال لي بأن أمه هي صديقته المفضلة في العائلة. بعد أن قابلت أخاه وأباه رأيت كم هو بحاجة لصديق. سألت جنفياف كيف كان بشير عندما كان ولداً صغيراً.

ـ وحيداً، قالت. كان يفتقد أباه، ذات مرة، عندما كان مريضاً، جلست إلى جانب سريره أقرأ له. وفجأة انفجر قائلاً: «أود لو أن أبي ساعي بريد».

□ لماذا يا بشير؟ سألته

ـ على الأقل سيتواجد في البيت أكثر. قال لي.

□ زوجك قال لي إنه كان يسبب المتاعب. قلت. وترجم ألفرد ما قلته. ضحكت، ولمعت عيناها بومضة حب.

ـ كان رهيباً، كان لدي صديقة لم يكن يتحملها، فيختبىء تحت مقعدها ويوخزها بصنارة الحبك التي كانت لدي. ومرة أخرى كان غاضباً بالفعل، فأخذ ينزع الأسلاك الكهربائية من الجدران.

كان يملك طاقة كبيرة، قالت أمه، وإلى أن دخل سنوات المراهقة لم يكن باستطاعته السيطرة على نفسه. وبدورها كانت تفهّمه وتساعده، وكانت تقول له دائماً إنه مقدّر له أن يقوم بأعمال مهمة.

□ أيؤمن بشير بالقدر، سألتها.

ـ طبعاً، ثم دنت نحوي. عندما وُلد بشير نظر إليه الطبيب في بيروت وقال، هذا الطفل سيكون مميزاً جداً، إنه مكتوب منذ الولادة.

كان هذا مجرد كلام لطيف لزوجة سياسي قوي فكّرت. لا شيء مكتوب. ولكن لأنها اختارت تصديقه أقنعت بشير بهذا الاعتقاد أيضاً.

□ علمت أنه لم يكن لبشير الكثير من الأصدقاء المقربين.

ـ لماذا كان يحتاج للأصدقاء؟ سألتني مندهشة «كان لديه أنا»!!



بيار وابنه بشير الجميل

- ١١ -

مع غريمتي . . صولانج

كان عليّ مقابلة صولانج ، كنت مذعورة من هذا اللقاء . بشير لم يقل ذلك، لكنه خيّل إليّ أنها على علم بعلاقتنا أنا وبشير، هذا لأن معظم الناس كانوا على علم بها، حتى سكرتيرة بشير، إيزيس، التي كانت صديقة صولانج .

كانت صولانج تمكث مع ابنتها الرضيعة، يمنى، في منزل صغير على الشاطىء، اتفقنا على أن نلتقي مع مجموعة كبيرة للعشاء في مطعم قريب، بشير وصولانج ، وألفرد ماضي، وأنا وكثيرون من أصدقاء ومستشارين لبشير كنت بحاجة لمقابلتهم أيضاً .

ذهبت باكراً لإجراء حديث خاص مع صولانج جلسنا نواجه بعضنا البعض على مقعد كبير في غرفة الجلوس في المنزل البحري ، كانت هناك صورة فوتوغرافية كبيرة لبشير على طاولة القهوة، وعندما قلت إنها ستكون صورة جيدة لمخرجي لوس أنجلوس ناولتني إياها صولانج قائلة : «هيا خذيها» .

لم أستطع أخذها، كنت أشعر أنني بدأت بالمقدمة الكاذبة . وبدأت المقابلة بخطوات بطيئة، كان ذلك اليوم حاراً والباب كان مفتوحاً للسماح بدخول الهواء البحري ، إلّا أن الغرفة ظلّت غير مريحة ، أو على الأقل أنا كنت كذلك ، وهكذا كانت صولانج أيضاً ، فعلى الرغم من أنها كانت تبدو هادئة ، إلّا أنها لم تستطع إخفاء انفعالها .

بدأت أنهال عليها بسلسلة من الأسئلة ، محاولة التصرف وكأن هذه المقابلة لا تختلف عن غيرها من المقابلات .

□ سألت صولانج إذا كانت تلعب دوراً فعالاً في عمل بشير.

- «لا يكلمني عن العمل كثيراً» . قالت، «يريدني بشير أن أكون في المنزل دائماً، كي أكون قادرة على تحضير الغداء لأصدقائه في أي وقت يريد، يتصل بي ليقول أن هناك عشرة أشخاص قادمون خلال ساعة لتناول الطعام ، وعليّ أن أكون جاهزة دائماً» .

كانت دائمة القلق والخوف عليه من أن يحصل له مكروه .

وبما أملك من رفق جعلتها تتكلم عن مايا، اضطرب هدوؤها لم تستطع التكلم مباشرة عن موت الطفلة . «بعدها»، قالت لي بصوت خافت «كان بشير يعاملني معاملة جيدة، كان يبقى معي كل لحظة، وقال لي إننا نستطيع إنجاب ما شئنا من الأطفال» .

نظرت إلى الأسفل، لم أستطع الكتابة، لم يخطر في بالي أي سؤال، عندها قالت لي صولانج بصوتها الطفولي الناعم : «هل يجب أن تقضي كل هذا الوقت مع بشير؟» .

رفعت رأسي، انتظرت إجابتي، كانت حرارة الغرفة قد بدأت توترني، تلعثمت قائلة «نعم، لعمل الفيلم، عليّ أن أقضي الكثير من الوقت معه» .

أخيراً، رن جرس الباب وركضت صولانج لفتحه ، دخل بشير، وملأ سكون البيت، تكلمت معه بهمس . وبعد دقائق قليلة جاءت ممرضة تحمل الطفلة ووضعتها بين ذراعي بشير، داعب بشير ابنته لبضع دقائق ثم أخذتها الممرضة .

إذا كان بشير يشعر بالغربة إزاء هذه المقابلة فهو لم يظهر شعوره، أحسست وكأنني دخيلة ومنافقة، شعور لم أكن معتادة عليه أو أحبذه حتى . .

كنت أتوق للذهاب إلى المطعم.

كنت أعلم أن بشير متزوج وزواجه نهائي، كانت صولانج حبّه الأول وأم أولاده، لقد عانت كثيراً من أجله، لن يتخلى عنها أبداً، فهمنا هذا منذ البداية، لم تكن هذه غلطة أحد، لكنها غلطتي إذا تأذيت، ولكن صولانج كانت أمراً مختلفاً.

كانت تبدو لي امرأة شرقية ترعرعت لتكون بالضبط ما هي عليه، كانت تهتم بالملابس وبمظهرها، وبأولادها وبزوجها الذي كانت تعبده ولم تكن تنظر إلى نفسها على أنها تساويه، كانت تظن أن هذا هو ما يريده منها أن تكون، وربما كان هذا صحيحاً.

بعد قليل ذهبنا إلى العشاء في مطعم على شاطىء البحر، جلس بشير مع ألفرد ماضي وصولانج، وبعض الأصدقاء في الحديقة، ذهبت إلى الداخل مع أربعة أو خمسة من مستشاري بشير.

في الأشهر القليلة التي غبت فيها عن بشير، كبرت مكانته السياسية في لبنان، كما كبرت في الولايات المتحدة، وبناء على ذلك وبعد سنوات من الإفلاس المزمن، امتلأت خزينة بشير.

كانت «القوات اللبنانية» تجمع الضرائب من مرفأ بيروت الذي كانت تسيطر عليه ومن سكان بيروت الشرقية، وبدأ رجال الأعمال يقدمون مساهمات طوعية لقضية بشير، قال لي بشير إنه يعلم بأنه سينجح عندما يبدأ رجال الأعمال بالتودد إليه. «هؤلاء الناس»، قال: «هم الناجون»، ويفعلون ذلك بالرهان على الفائز قبل فوزه بسنوات وقبل أن تعرف الحكومات ذلك، فهم يراهنون ومنذ الآن بأننا سنأتي بالاستقرار الذي يحتاجونه لكسب المال.

وقد أصبح الدخل الذي تجنيه «القوات اللبنانية» يسمح لها بأن تقدم خدمات توفرها الدولة عادة: كالخدمات المدنية، والدفاع، وحتى وزارة الخارجية، فقد حلّت المكاتب الخارجية لـ «القوات اللبنانية» محل

وزارة الخارجية اللبنانية في عدة أمور، حتى أنه توجد لها مكاتب في عواصم الولايات المتحدة وبلدان أوروبا وأميركا اللاتينية.

وبوجود الملايين من الدولارات في خزنته اضطر بشير إلى اللجوء إلى مستشاري عمل يساعدونه في إدارة الصندوق.

كان مساعد بشير المالي أحد أصحابي على العشاء فسألته:

□ «كيف تجد العمل مع بشير؟».

مد الرجل يديه، ورفع كفيه: «يقول لنا بشير ما علينا إنجازه، نقول له مستحيل، فيقول لنا كفى، انتهى الأمر، لا أريد سماع متاعبكم، أريد النتائج فقط، وبطريقة ما يحصل دائماً على ما يريد».

«إنه يقتلنا»، قال رجل الأعمال «لكننا نعلم أنه أملنا الوحيد للمستقبل».

فور انتهاء العشاء، خرجنا من المطعم نظر إليّ بشير مبتسماً، كانت صولانج بجانبه كانت تراقبنا عن كثب دون أن تظهر ذلك.

- «هل استمتعت بعشائك يا باربرا؟» سأل بشير.

□ «نعم» قلت بلباقة وأنا أصافحه. «أشكرك على دعوتي، شيخ بشير».

- «أشكرك على دعوتي، شيخ بشير!» قال لي متعجباً في اليوم التالي، عندما أصبحنا لوحدنا.

□ «إذاً، ماذا كان عليّ أن أفعل، أقبلك قبلة المساء؟».

ضحك بشير، وتساءلت ماذا قالت له زوجته عن المقابلة، لكن لم أفعل، كنا في مكتب صغير في الطابق السفلي لمكتبه في مركز «القوات اللبنانية».

- «سمعت أنك قمت بمكالمة مهمة باكراً»، قال بشير.

□ «لا يوجد شيء لا تعرفه، أليس كذلك؟» مازحته.

- «كلا»، قال بجدية.

بينما كنت أنتظر وصوله طلبت من أحد مساعديه أن يفتح لي خطاً إلى الولايات المتحدة، طلب رقماً وناولني السماعة، وبكل جرأة طلبت الرقم الخاص لملحق الصحافة الإسرائيلية في واشنطن، وهو صديق لي وكان يدعى ناشمان تشاي Nachman Shai.

□ «شالوم، ناشمان»، قلت «هذه باربرا، أظنك لا تحزر من أين أتصل».

هرع المساعد إلى الخارج وكأن ما سمعه كان مقززاً للنفس.

□ «علمت أن ذلك الرجل سيركض إليك» قلت لبشير، كنت أمزح فقط، فهل ارتكبت ذنباً عظيماً؟».

ـ «كلا» أجاب، وبدا مرتبكاً قليلاً «فقط نحن لدينا السبل للاتصال بالإسرائيليين، فإذا كنت ترغبين استعمالها في أي وقت، تستطيعين ذلك».

كان بشير، فكرت، يقترب أكثر فأكثر من الإسرائيليين. كنت أعلم بأنهم كانوا يزوّدون رجاله بالبدلات العسكرية، والأسلحة، والتدريب، وسيأتي اليوم الذي يُطلب فيه من بشير دفع الثمن، وتساءلت ماذا سيحصل عندها.

استقر بشير في ركن المكتب وبدت على وجهه علامات الخوف.

ـ «لم تسنح لنا الفرصة للتكلم عن هذا يوم أمس»، قال، «ماذا قال لك أبي».

أعطيته خلاصة الحديث لكنه لم يكتف حتى سمع كل كلمة قالها الشيخ بيار، كان من الواضح لي أنه على الرغم من تفوّق بشير السياسي على والده، كان ما زال تواقاً بشكل صبياني إلى موافقة واستحسان والده. أشار إلى صورة أبيه المعلقة على الحائط وقال: «بدون ذلك الرجل ما كنت لأحقق ما أنا عليه اليوم، فقد علمني كل شيء».

كان من المقرر أن يزور بشير مخيماً لتدريب «القوات اللبنانية»

خارج بيروت، توجهنا إلى هناك معاً، وكان بشير هو الذي يقود، وبينما كنت أراقب وجهه فكرت أن الوقت قد حان لمناقشة طالما أجّلتها.

قبل عدة أسابيع من رحلتي الثانية إلى لبنان، زارني في واشنطن مسؤول إسرائيلي رفيع له صلات وثيقة ببشير، كان قد شاهد قصتنا الـ «٢٠/٢٠» ومدحها كثيراً وأضاف: «لكن هناك أشياء كثيرة لا تعرفينها عن بشير الجميل».

□ «مثل ماذا؟».

ـ «طوني فرنجية»، قال.

تذكرت الاسم، كان طوني فرنجية ابن سليمان فرنجية وهو رئيس سابق للبنان وزعيم آل فرنجية، ذوي النفوذ، وكان طوني قائد ميليشيا العائلة، اغتيل صيف ١٩٧٨، مع زوجته وابنته وعدد من الحراس. ولأن القتل حصل في الوقت نفسه تقريباً عندما بدأ السوريون قصف بيروت الشرقية، سرت أخبار مقتل طوني بسرعة، بواسطة الإعلام الأميركي.

□ «وماذا عن فرنجية؟» قلت.

ـ «لقد قتله بشير» قال الإسرائيلي، «أرسل رجاله إلى بيت فرنجية الصيفي، حيث ذبحوا كل من كان يتحرك بمن فيهم الخادمة، والسائق، وكلب العائلة».

□ «لم يكن بشير ليفعل ذلك»، قلت بهدوء. «إن هذا ضد كل ما يؤمن به».

ـ «كل ما يؤمن به الآن»، صحّح لي.

بقيت كلماته عالقة في ذهني طويلاً، حاولت الهروب منها لكن لم أستطع، لماذا يقول لي كل هذا، هذا الإسرائيلي، تساءلت، لو لم يكن صحيحاً؟ فأي سبب لديه؟ ورغماً عني ربطت الأحداث بين إزالة نمور داني شمعون في ٧ تموز/ يوليو، وبين ترقية إيلي حبيقة، واغتيال فرنجية.

والصورة التي انبثقت كانت لقائد حربي مسيحي شاب يقتل دون شفقة كل من كان يقف في طريقه.

ولكن لم يكن هذا هو بشير الذي كنتِ أعرفه، وكنت على ما أعتقد أعرفه جيداً، والآن، ونحن معاً عبر الجبال رددت على مسامع بشير ما قاله لي الإسرائيلي. استمع بشير صامتاً، كان وجهه منقبضاً ومتجهماً، وعندما انتهيت قال بشدة:

ـ «لم آمر بموت طوني، ولا بموت عائلته، كان عليك معرفة ذلك؟».

□ «من فعل هذا؟»، سألت.

صمت فترة طويلة وبدأت أظن بأنه لن يجيبني.

ـ «ما سمعته صحيح جزئياً» قال أخيراً، وأضاف: «لقد هدّد طوني فرنجية حياتي، وكان يقتل رجالي، كان متورطاً أيضاً بتجارة المخدرات، وتعلمين ما شعوري نحو هذا».

. . «وحذرته مراراً من أن مصيرنا سيكون العيش في حديقة الحيوانات هذه إلى الأبد إلاّ إذا تفوقنا على الإقطاعية، جرّبنا كل السبل التقليدية للتأثير عليه، وحاول البطريرك الماروني مصالحتنا، وكانت القشة الأخيرة عندما قتلوا قائداً كتائبياً، وحجزوا جثته رافضين أن يسمحوا له بدفن كنائسي».

□ «إذاً أرسلت من يقتله؟».

ـ «كلا، أفادتنا المخابرات أن قتلة رجالنا التجأوا إلى بيت طوني فرنجية، وبأن طوني وعائلته كانوا خارج البيت، فأرسلت قواتنا إلى بيت العائلة الصيفي كمظهر قوة ولاعتقال القتلة».

□ قلت «ولكن وجدوا فرنجية هناك، لماذا قاموا بقتله ولم يكن لديهم أمر منك بفعل هذا؟ ولماذا قتلوا زوجته، وطفلته ذات الثلاث سنوات، والخادمة؟ إنهم حيوانات، هؤلاء الذين فعلوا هذا».

بدأ هاتف السيارة يرن أخذ بشير السماعة بقوة،نطق ببضع كلمات

ثم أقفل الخط.

ـ «اسمعي» قال لي، «لا أعلم من قال لك هذه الأشياء، لم آمر بقتل طوني ولم أوافق عليه حتى بعدأن حصل،فهذا مثل ممتاز لما يحصل في لبنان، وسيستمر حصوله في كل الجهات، حتى بواسطة فتياننا، إلى أن نصل إلى السلام، والنظام، والمسؤولية».

هنا، كان صوته هادئاً للغاية، ولكن كانت الكلمات تطير من فمه:

«لقد رأيت جثث الدامور، والكهنة الذين قتلوا في كنائسهم والنساء اللواتي اغتصبن، لقد ذهبت إلى أديرة الأيتام وقابلت رجالنا الذين فقدوا أيديهم وأرجلهم وأعينهم، رأيت نساءنا يندبن في لباس الحداد، وماذا فعل أصدقاؤنا في الغرب؟ لقد عرضوا علينا البطاقات الخضراء».

ـ «لن نهاجر» قال «لدينا كل الحق أن نكون هنا كباقي اللبنانيين، إن الغرباء هم الذين أتوا إلى بلادنا وشوّهوا سلامنا وبدأوا هذه الوحشية».

□ «أنت تبرّر. . .».

ـ «أنا لا أبرّر شيئاً، ما فعله رجالنا بفرنجية كان خطأ. انظري» قال بشير، «هل تتذكرين مقابلة جيرالدو مع ذلك الشخص الذي اعترف بتعذيب سليم اللوزي حتى الموت؟».

□ وقلت، «هل عاقبت المسؤولين؟».

ـ «كانت لدينا مشاكلنا مع المجموعة التي قامت بالعملية إنهم قوة مستقلة، وأكثر ولاء لقائدهم سمير جعجع».

□ «وهل طردت قائدهم؟».

كانت عينا بشير كالفولاذ وقال: «أصيب جعجع بجراح في بداية العملية، كانت مخابراتنا سيئة وفشل كل شيء، إن جعجع هو من أفضل وأشجع المقاتلين عندنا. لدينا مشكلة في التحكم به، ولكن لا أستطيع طرده، نحن بحاجة إليه ولرجاله، نحن بحاجة لكل رجل يرغب بالمخاطرة بحياته من أجل القضية».

□ قلت «لماذا يظن الإسرائيليون أنك فعلت ذلك؟».

- «لأنهم أعطوني الضوء الأخضر للقيام بذلك»، قال لي بشدة، خفّف من سرعة السيارة وقال ناظراً إليّ بغضب: «ولكن لم أفعل، وهذا لأنه سيبدو نوعاً من الحماقة، آخر ما يريد المرء أن يفعله هنا في الشرق الأوسط هو قتل ابن زعيم، لأنه حينئذ سيستمر عداء الدم إلى الأبد، خلال عملية ٧ تموز/ يوليو وقع داني في أيدينا، لكننا أطلقنا سراحه».

صدقته لأنني أعرفه ولأن ما شرحه كان منطقياً، لقد شعرت طوال الوقت وأنا أراقب قوة بشير في السيطرة على رجاله، ضرورة تلك القوة، وكنت أعلم أن الوحشية تستدعي الوحشية، ومنذ ذلك الحين اكتشفت شاهد عيان مستقلاً لأقوال بشير قبل عملية فرنجية، وهو شارل شرتوني، وكان آنذاك صديقاً لسمير جعجع وهو الآن أحد مساعديه البارزين، وقد قال لي شرتوني؛

«قال لنا بشير أن طوني وعائلته لن يكونوا في المنزل»، وأمرنا باستخدام أية قوة نحتاجها لاعتقال الرجال الذين قتلوا رجالنا، ولكن ما حصل هو أن رجال فرنجية لم ينتظروا، فتحوا النار مباشرة، وجُرح سمير في الجولة الأولى، اغتاظ رجالنا، كان الرصاص يتطاير من كل جانب ولم يتوقف حتى توقف كل شيء في البيت عن الحراك، لم يأمر بشير بهذا» كرر شرتوني و«عندما عرف بالأمر غضب أشد الغضب».

في الليلة الأخيرة في لبنان، أخذني بشير إلى مقهى لنتناول العشاء، التقينا في المكتب حوالى الساعة العاشرة مساء، كنت أشعر بالحزن لأني سأغادره وأنا لا أعلم متى سأراه من جديد. وضعت ذراعي حوله وألقيت برأسي على صدره.

- «لا ترحلي»، قال وهو يضمني.

□ «عليّ الذهاب، لديّ قصة أخرى للإنجاز».

- «امكثي هنا، نحتاج إلى مساعدتك في محطتي الراديو

والتلفزيون، تستطيعين تحويل الهاوي عندنا إلى محترف».

لم أقل لا على الفور، فكرت بالأمر، جزء كبير فيّ كان يستحسن الفكرة. ولم يكن عملي هو الذي يمسكني عن القبول، ولكن ابنتي «بيني». وعلى الرغم من هذا بدأت بالتفكير بأنه ربما أستطيع المكوث في بيروت وأذهب لأراها باستمرار، أن أكون هنا مع بشير جعلني أدرك كم هو مهم أن آخذ حياتي بيديّ، لأن المستقبل ليس مضموناً، ولكن كنت أعلم في قلبي أن الحصول على بشير يعني التنازل عن ابنتي. باستثناء هذه النقطة لم يكن هناك أية تضحية لا أقوم بها من أجل بشير.

«لا أستطيع» قلت له، فهزّ رأسه وقال «فهمت».

بعد ذلك ذهبنا لتناول الطعام، ومن ثم قادني بشير إلى الفندق وبقي معي لساعة أو اثنتين تركته يظن أنني نائمة عندما قبّل جبيني برفق وهمّ بالرحيل ثم ناديته بإلحاح «بشير انتظر، لا أريد الرحيل، أنا خائفة».

عاد وجلس بجانبي على السرير «ممّ أنت خائفة؟ لن يحصل لك شيء؟».

□ «كلا، أن يحصل لك أنت، وأنا بعيدة».

- «باربرا قلت لك من قبل، أنا أؤمن بالقدر.ما هو مقدّر له أن يحصل سيحصل».

□ «أحبك» قلت له.

- «وأنا أيضاً أحبك، أنت تعلمين ذلك، هذا وطنك، ونحن عائلتك، إذا أتيت إلى هنا، نستطيع الاهتمام بك، وتستطيعين جلب ابنتك، أيضاً!».

نظرت إلى عينيه وتفجّر فيّ شيء عميق جداً وقديم جداً، تكلمت دون أن أعرف ماذا كنت أقول: «بشير، أعداؤك هم أعدائي».

كانت عيناه حزينتين «سيكون لديك الكثير من الأعداء»، قال لي، وقبّلني مرة أخرى ورحل.

- ١٢ -

عشية اجتياح لبنان

حطت الطائرة في مطار جدة في المملكة العربية السعودية لتأخذ الركاب وتتزوّد بالوقود. بقيت على متن الطائرة أعالج زكاماً التقطته من بشير، ولاحظت أنني كنت الشخص الأبيض الوحيد على متن الطائرة.

وصلنا إلى الخرطوم عاصمة السودان في وقت متأخر من ذلك المساء. وما إن ترجّلت من الطائرة حتى مشى نحوي شبح حي، بل عملاق برأس معمم وثوب أبيض يتطاير في الهواء، ووجه أسود ويدين سوداوين كالفحم. كانت العمامة البيضاء الضخمة الملفوفة حول رأسه تعطيه حجماً إضافياً. ومع أنني كنت منتعلة حذاء ذا كعب مرتفع إلا أن طولي بالكاد وصل إلى خاصرته. وبدأت أتساءل إذا كانت الحمى التي أصابتني من الزكام هي سبب هلوستي.

وتكلّم الشبح:

□ آنسة بار ـ ب ـ را؟

ـ «نعم؟».

وعرّف العملاق عن نفسه بأنه يعمل في أمن الدولة. وبعثوه إليّ لمساعدتي في المطار ومرافقتي إلى الفندق.

كانت الطريق من المطار إلى الخرطوم غير مرصوفة. أما فندق الغراند أوتيل فقد بناه البريطانيون عندما كانت السودان جزءاً من الامبراطورية البريطانية. والبناء جميل تحيطه شرفات تقليدية وغرف

كبيرة. وعلى الفور عندما دخلت غرفتي علّقت صورة بشير على الحائط. فالنظر إليه يعطيني إحساساً بالأمان. وكنت أشعر بالوحدة.

منذ «الحرب غير المقدسة»، أصبحت الـ A.B.C وبشكل ملحوظ أقل دعماً لاقتراحاتي. حين اقترحت عليهم لأول مرة قصة عن الحرب بالوكالة التي تلعبها ليبيا وتشاد لمصلحة الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، قال لي آف ويستين بصوت مشكك: «تشاد؟ من سيهتم بتشاد؟».

وسمح لي بمتابعة القصة متذمّراً، فطرت إلى باريس لأجتمع بعملاء المخابرات الذين يعملون في مجلة فرنسية رائدة هي Jeune Afrique. وأمّنوا لي بدورهم اتصالات بالمؤسسات السودانية السياسية والاستخباراتية. وقاموا بإمدادي بمعلومات تبين أن المعارك الدائرة كانت أبعد من مجرد كونها مناوشات حدودية. لقد أطاح بالحكومة التشادية نظام كانت ليبيا والاتحاد السوفياتي تسانده. وكان التشاديون المتمردون على النظام الجديد مدعومين ليس فقط من الولايات المتحدة بل من إسرائيل أيضاً. فإسرائيل وعلى الرغم من المقاطعة الرسمية بعد حرب الستة أيام عام ٦٧، حافظت على علاقات مع معظم البلاد الإفريقية بما فيها تشاد. لذلك، عندما استولت ليبيا على تشاد عبر نظام أشبه بألعوبة، تحرّكت إسرائيل للتدخل مستخدمة صداقتها مع تشاد، وعدائيتها نحو ليبيا، حتى فرنسا كانت ترشد المتمردين التشاديين بحذر لأنه كان لديها روابط قوية بمستعمرتها السابقة. لكنها تراجعت عن مساندة الفدائيين عملياً بسبب خطفهم عالمة أنتروبولوجية فرنسية وحجزها لأخذ فدية.

أخذت إذناً من الحكومة السودانية للدخول إلى منطقة الحرب على حدود تشاد والسودان لمقابلة حسين حبري، قائد القوات الفدائية.

كان حبري كالفيل المتشرد فهو محامٍ ورجل ذكي ومثقف. وكان مسؤولاً أيضاً عن خطف العالمة الفرنسية.

كنت أريد اصطحاب مساعد معي ولكن ويستين أصرّ على ذهابي إلى أفريقيا بمفردي. وعندما يحين موعد التصوير، قال إنه سيرسل لي طاقماً لينضم إليّ. نسّقت زيارتي مع الحكومة السودانية، وذلك عبر سفيرها في واشنطن، عمر عيسى. كان عيسى رجلاً مهذّباً وذكياً ومن أسرة مرموقة. وأخوه كان الطبيب الخاص للرئيس السوداني جعفر النميري. إضافة إلى السماح لي بدخول منطقة الحرب، وافق السودانيون أيضاً على إعطائي إذناً بالدخول إلى مركز المعلومات الاستخباراتية، ومقابلة المرتدين من القوات الليبية الذين يساندون النظام التشادي.

بعد يوم من وصولي، قيل لي إن هناك طائرة شحن أميركية من طراز «C 130» مستعدة لأخذي وطاقمي إلى الحدود التشادية حيث كان مقر حبري. وعلى الرغم من ميل حبري لأخذ رهائن غربيين كنت مستعدة كل الاستعداد للذهاب، كنت أعلم أن القصة مهمة، ولحد الآن كانت كلها لي.

اتصلت بالـA.B.C وطلبت منهم إرسال الطاقم. كان كل العاملين مشغولين كما قيل لي. وخلال الأيام القليلة التي تلت بقيت أتصل بهم محاولة الوصول إلى ويستين. واستغليت هذا التأخير بمقابلة الرئيس النميري، والعديد من المرتدين الليبيين الذين زوّدوني بأخبار كثيرة.

أحد هؤلاء المرتدين كان محمد المقريف الذي قاد محاولة انقلاب ضد الحاكم الليبي القذافي ولكن هذه قصة مختلفة.

كان القتال يشتد على الحدود التشادية ـ السودانية وأسقط السودان بضع طائرات ليبية كانت تقصف بعنف الأراضي السودانية بضرب القوات المتمردة. لقد تحدثت الصحافة العالمية عن سلسلة من الاصطدامات الفدائية بين الليبيين والثوار التشاديين. هذه الأحداث كانت تجذب الصحافيين كما يجذب الرحيق النحل. كنت متحمسة

للغاية لهذه القصة. وبقيت أحاول الحصول على طاقم. وأخيراً. وبعد أسبوعين من وصولي، جاء طاقم من باريس ولكنه سرعان ما عاد إلى فرنسا عندما علم بأننا سنذهب إلى الجبهة. «إن هذا خطر جداً»، كما قالوا. وبعد عدة اتصالات بالـA.B.C استطعت الحصول على طاقم آخر. كان العاملون في هذا الطاقم قلقين على صحتهم أكثر من قلقهم من القتال. فلما لم أستطع تأمين مياه معدنية لهم غادروا هم أيضاً.

في هذه الأثناء كانت الوكالات الإخبارية في أميركا قد بدأت بتناقل الأخبار عن حرب وشيكة بين السودان وليبيا بسبب دعم السودان لحبري. إن هذه القصة يراد بها صرف النظر عن المسألة الحقيقية. لم يكن في نية ليبيا مهاجمة السودان، الحرب الوحيدة في تلك المنطقة كانت تلك التي كنت أحاول القيام بتغطيتها دون جدوى وهي الحرب الفدائية السرية بين كوماندوس حسين حبري وقوات الحكومة التشادية مع حلفائها الليبيين.

بعد أكثر من أسبوع، استطعت التحدث مع ويستين قلت له عما يقال عن حرب بين ليبيا والسودان. غفل عما قلته وتابع يقول إن برنامج الـ«Night Line» سيرسل مراسلاً وطاقماً لتغطية الحرب المتوقعة بين ليبيا والسودان.

□ وماذا عن طاقمي؟

ـ وبما أنك هناك، تابع ويستين وكأنه لم يسمع ما قلت، ستخرجين التقرير للـ«Night Line».

□ «أي تقرير؟» صرخت إنها «قصة تافهة».

ـ «لا تحرجيني» حذرني ويستين.

وصل الطاقم ومراسلو الـ«Night Line». دام تعاوننا ليوم واحد. عندما رأيت أنهم معتادون على عمل شيء من لا شيء. انفجرت «هذا أحمق تقرير سمعته». صرخت في وجه المراسل:

□ «نحن نغطي القصة الخطأ».

أجرت اتصالات ثانية إلى نيويورك، ومرة أخرى هُيمن عليّ: ولكن هذه المرة رفضت المتابعة وعلى الـ «Night Line» إرسال مخرج آخر لعمل قصتهم.

إشاعة الحرب بقيت إشاعة ولم تندلع الحرب المتوقعة: أذاعت الـ «Night Line» قصتها التي سرعان ما نسيها الناس. ولكن بقي تمردي في الذاكرة.

أخيراً أرسلت الـ «Night Line» طاقماً آخر من القاهرة لقصتي عن حبري. ولكن في هذا الوقت كانت الـ CNN ومراسلون آخرون قد سبقونا إلى منطقة الحرب. وضاعت القصة التي بدأت كقصة عالمية على أنها حق مقتصر على الـ «A.B.C» فقط. ولن تحكى القصة الحقيقية عن هذه الحرب بالوكالة في أفريقيا حتى سنوات عديدة.

وكانت القشة الأخيرة لي ولـ «A.B.C» وكانت نهايتي هناك وكنت أعلم ذلك. طلب مني بشير العودة إلى بيروت قبل رجوعي إلى الولايات المتحدة. ووعدته بأني سأفعل ذلك. . ولكني كنت بحاجة الآن لتوضيح وضعي في الشبكة. ذهبت مباشرة من مطار كينيدي إلى مكاتب الـ «A.B.C».

لم يأخذ الأمر الكثير من الوقت، وما إن دخلت الباب حتى بادرني آف ويستين: «أحرجتني».

□ «جعلت قصة عظيمة تموت» أجبت.

ـ «لن نجدد العقد معك».

□ «أظن أن هذا أفضل».

حدّق بي غاضباً وقال «اتركي مكتبك قبل نهاية اليوم».

□ «ليس عندي مكتب» قلت له، وهكذا تركت ويستين والـ A.B.C.

أخذت الطائرة التالية إلى واشنطن، كنت أتوق لأخبر «بيني».

«احزري ماذا»، قلت لها عندما رأيتها: «لا سفر بعد اليوم، لا مزيد من A.B.C، صار لديك أمٌ مرة أخرى».

في البداية لم تستطع التكلم. ثم، وهي تبدو حائرة جداً، قالت «ماذا تعنين؟».

□ «تركت الـ A.B.C، لن أسافر كثيراً بعد اليوم، سأبقى هنا، ونستطيع أن نكون معاً ونتكلم كما كنا نفعل. سأكون هنا عندما تستيقظين في الصباح، سأساعدك في فروضك المدرسية، وسآخذك إلى الفراش ليلاً».

ـ «ولكن كيف سنعيش؟» سألت ابنتي، وكان سؤالها سؤالاً يفوق سنها.

□ «لا تقلقي»، قلت «سأقبض من الـ A.B.C لأشهر قليلة وفي هذه الأثناء سأجد عملاً مختلفاً، لن نموت جوعاً».

لم يفاجئني طردي من الـ A.B.C كان ذلك مكتوباً على الحائط منذ أن عارض زملائي «الحرب غير المقدسة» كنت أفكر في العمل في Capitol Hill كمحققة، كان الكثير من أصدقائي هناك وكان العمل مهماً، والأفضل من هذا كله فيما يخص «بيني» لن يكون هناك أي سفر.

أخيراً استوعبت «بيني» الأنباء، قفزت وعانقتني وأخذت تقبلني، وفي أواخر خريف ١٩٨١ بدأت العمل في Senate Judiciary Committee كمحققة. كان عملي هو النبش في المواضيع المهمة للتحقيق عنها داخل مركز العدالة. وبما أنني كنت دائماً أعمل تحقيقاتي كمخرجة تلفزيونية، كان هذا العمل سهلاً جداً علي، يشمل جزءاً صغيراً مما كنت أفعله بشكل روتيني وهو جمع أجزاء قصة، والأفضل من كل هذا، كان اليوم ينتهي في الساعة الخامسة ليس صباحاً بل مساء.

كان عملاً مثالياً، ويجب أن أكون مسرورة به.

إلّا أنني لم أكن كذلك.

كنت أفتقد لبشير وللصحافة. بدت الحياة راكدة بعض الشيء وآمنة أكثر من اللازم.

كنت قلقة ووحيدة، وضعت صور بشير في كل أنحاء المنزل، اثنتين على طاولة التزيين إلى جانب سريري. وفي الصالة، علقت ملصقاً له، وفي غرفة الجلوس وضعت صورة فوتوغرافية مكبّرة في إطار فضي فوق رفّ الموقدة إلى جانب صورة «بيني». والأشخاص الذين يزورون بيني كانوا يقولون أن البيت يبدو كمزار، ولم أكن آبه لكلامهم إذ كنت بحاجة إلى وجوده.

وخلال هذا الموسم من عدم الرضا، أصبحنا أنا وجاك أندرسون أصدقاء. استلطفت اندرسون منذ أول لقاء لي معه، كان واثقاً من نفسه وصحافياً ناجحاً، كان عاموده الذي ورثه عن درو بيرسون، يصدر في ثمانمئة جريدة في الولايات المتحدة وفي العالم، وهذا ما لم يستطع أي صحافي آخر الوصول إليه.

صحافي منذ سن الثانية عشرة، كان لأندرسون اتصالات في كل مكان، ولم تكن توجد أية قصة رئيسية في أوائل السبعينيات لم يكن له يد في إذاعتها. وقد حاز على جائزة بوليتزر Pulitzer عندما قدم تقريراً عن سياسة هنري كيسنجر الخارجية، وفي العمق كان شخصاً يبحث عن فضائح لها شأن لنشرها، وهو أيضاً منعزل يكره مؤسسة واشنطن، طويل وذو حضور، كان أندرسون يحبط القوي ويدافع عن المضطهد.

خلال سنوات ووترغيت، اشتدت بشكل ملحوظ مراقبة الـ F.B.I لأندرسون، وكان جهاز المراقبة رديء جداً حتى أن أولاد أندرسون التسعة كانوا يستطيعون بسهولة ضبط جواسيس الـ F.B.I وهم يجلسون في سياراتهم، بل في كثير من الأحيان كانوا يعرضون عليهم القهوة.

كان أندرسون يخطط لعرض تحقيقي تلفزيونياً، حيث يلقي الضوء على رؤوس أقلام منه ثم يظهر الأنباء من الداخل. في يوم بارد من شهر

كانون الأول/ ديسمبر من عام ١٩٨١ جلسنا معاً في مكتبه في واشنطن. وبينما كنت أحدّق خارج النافذة بالبيت الأبيض عرض عليّ أندرسون العمل كمخرجة، وقبل الموافقة، تناقشت أنا وبيني في الموضوع.

ـ «هذا يعني نقوداً أقل وسفراً أكثر، وإن كان أقل مما كنت أسافر عندما كنت أعمل في الـ A.B.C. قلت لهذا نريد حقاً أن نناقش الأمر. لم أنسَ وعدي لك عندما تركت الـ A.B.C».

□ «ولكن تريدين حقاً هذا العمل؟» قالت بيني.

ـ «نعم أريد بالفعل هذا العمل»، رأيتها ترتبك، تتنهد ثم تصطنع ابتسامة وتقول وهي تلعب «يبدو أن هذا عمل عظيم، أمي وافقي عليه».

قبّلتها واتصلت بجاك للموافقة. كانت مشاركة عظيمة، كان لجاك ولي الإقدام نفسه على الأخبار كنا نريد برنامجاً رائعاً، لا يقلّد بقية الشبكات، وفي الوقت نفسه ينجز ما لا يستطيعون إنجازه. كنا نريد عرضاً يعكس اهتماماتنا العميقة، ويحفر بعمق ليظهر كيف تجري الأمور، ويقدم قصصاً لا يستطيع الجمهور رؤيتها في أية شبكة أخرى.

وخلال أشهر بدأنا بمحطة رائعة، ثمانون محطة موقعها في الأسواق الرئيسية، وميزانية العرض منخفضة جداً، حوالى ٥٠ ألف دولار أسبوعياً، حتى أنني كنت لا أستطيع استئجار أحد له خبرة تلفزيونية، كنت أستخدم صحافيي الجرائد وأنجزت معظم العمل بمفردي، كنت أتكلم مع بشير مرات عديدة في الأسبوع ولأن هاتفه كان مراقباً كنا نتفادى الكلام عن أشياء خاصة وحساسة، وأميركا كانت تتودد بجدية إلى بشير. وكان بشير متطلباً، وكان يقترب بشكل خاص من فيليب حبيب (الذي أرسله ريغان إلى المنطقة كسفير للولايات المتحدة له مطلق الصلاحية). لمست من صوته أنه كان يريد التحدث عن هذا الأمر لكنه لم يستطع.

كنت محبطة ومشتاقة لرؤيته، وفي شهر كانون الثاني/ يناير من عام

١٩٨٢، أخذت بضعة أيام من تحضيري للعرض الجديد وطرت إلى الشرق الأوسط.

وجدت بشير متغيراً، كان قد نحِفَ وبدأ يختار ملابسه بدقة، يرتدي البدلات الرسمية، كما بدأ أيضاً بتعديل كلماته. كان هذا غير مريح، وأثناء العشاء في الليلة الأولى سألته:

□ «هل الأحداث تمر بسرعة بالنسبة لك؟ هل بدأت تفقد السيطرة؟».

ـ «كلا» أجاب وبدا حازماً للغاية. «لا نستطيع التحرك بالسرعة الكافية»، بهذه الكلمات نطق، وخلت وأنا أرتعش بأنه لم يعد لديه الوقت الكافي.

كان الهدوء الذي يخيّم عليه كالهدوء الذي يسبق العاصفة، والكل في لبنان يتنبؤون بتغير عنيف في المنطقة. بقيت البلاد مهزوزة لمدة طويلة، وإسرائيل كانت تنتظر على الحدود كنمر ينتظر الوثوب على رقاب الفلسطينيين وكانت الانتخابات الرئاسية المتوقعة في لبنان تستطيع إطلاق تلك القوة.

الأميركيون الذين كانوا يصنعون من بشير رئيساً حذّروه طوال الوقت ونصحوه بالابتعاد قليلاً عن إسرائيل خشية أن ينصرف المسلمون عنه، وبشير قد وقع في شبكة، كان يشتهي دعم أميركا السياسي له، لكنه كان يحتاج أيضاً مساندة إسرائيل العسكرية لتحطيم التهديد السوري ـ الفلسطيني للسيطرة على لبنان.

ـ «إن إسرائيل ستجتاح لبنان»، قال لي، «إنها مسألة متى، وليس إذا».

□ «آه» رددت مشككة.

وخفض بشير صوته، «شارون بنفسه قال لي هذا».

□ «هذا جيد، هل أخبر حكومته؟» كان ارييل شارون وزير الدفاع الإسرائيلي.

ـ «ما يريده اريبل»، قال بشير بإعجاب «يحصل عليه».

كان بشير واثقاً جداً بقدرته على استغلال الأحداث الآتية، وكان قد بدأ التخطيط للانتخابات التي أصرّ على أنه سيفوز بها ديموقراطياً، عبر انقلاب تقوم به «القوات اللبنانية» ذات النفوذ القوي، والفوز بالانتخابات كان ليأخذ بعض الجهد، لأنه كان من المتوقع أن الكثير من المسلمين سيقاطعونها بعدم اكتمال النصاب، وبدأ بشير بتغيير صورته التي يطل بها على الناس.

□ «بشير»، سألته عندما كنا لوحدنا «هل أصبحت سياسياً كالآخرين»؟.

ـ «كلا، ولكن لا أشعر بالضرورة نفسها كل الوقت للدفاع عن قضيتنا، هناك الكثير من الناس قد بدأوا يفهمون الآن لماذا نحارب».

□ «تعني أنك تحصل على ما تريد، لذا تشعر الآن أنك بأمان أكثر؟».

ـ «إنها ليست مسألة شعور، نحن فعلاً أكثر أماناً الآن، أخيراً، نستطيع التخطيط للمستقبل، بدلاً من المحاربة كل لحظة لأجل حياتنا» ونظر إليّ بشير بعمق وتابع يقول: «عندما يتم انتخابي، سأدعو كل اللبنانيين المغتربين للعودة والمساعدة في إعادة البناء».

□ «حتى الذين سميتهم خونة، وهم من أعدائك».

ـ «خاصة هم»، قال «سأعرض عليهم عفواً عاماً، نحن بحاجة للمساعدة لإصلاح الخراب هنا».

□ «أتعلم يا بشير، إذا أصبحت رئيساً سيكون لديك نفوذ أقل مما تتمتع به اليوم».

ـ «هذا جيد»، قال: «هدفنا ليس تمجيد قوة بشير الجميل، إنما وضع مؤسسات تعمل، وإحساس بالاستمرارية، حتى لا يعتمد كل شيء على رجل واحد فقط».

□ ضحكت «هل تعلم هذا القول: إن القوة تفسد وإن القوة الكلية تفسد كلياً؟».

ـ ابتسم ابتسامة واسعة، «لن أصبح مفسداً لأنه سيكون لدي أنتِ لتبقيني على الخط».

ضحكنا وقبّلته، وللحظة صغيرة، فطنت لكلينا ونحن مستمران في مستقبل غير وهمي، مستقبل يحده فقط فناؤنا نحن الاثنين، وبهذا التصور تأكدت أنه إذا أصبح مستقبل كهذا ملكي، فإني سأتخلى بكل ترحيب عن الخيارات الأخرى.

كانت زيارتي القصيرة جداً قد نبهت ظمأ لا يُمكن إشباعه، لكن كان عليّ العودة إلى العمل.

كنا نريد أن نبدأ العرض الذي سندعوه «جاك اندرسون كونفيدنشيال». كان لدينا الكثير من القصص الجيدة، معدة للعرض، وخططنا لاستئجار طائرة مروحية لنطير فوق تجمع القنابل النووية لكي نبيّن النقص في الإجراءات الوقائية، وأطلقنا بيانا عن العمليات الخاصة لتجارب المخدرات التي تقوم بها الـ C.I.A على حقل التجارب المدني، وصوّرنا القصة الأولى التي كشفت عن طائفة الـ Bhagwan Shree Rajneesh في أوريجون.

أما القصة الأخرى التي خططنا للحديث عنها فهي المضايقات الجنسية في البنتاغون. وعلى الرغم من جودة هذه القصص إلّا أنها لم تكن على درجة كبيرة من القوة والحماس التي يجب أن يتمتع بها عرضنا الأول. وبينما كنا نفتش عن شيء يهز العالم حصلت حادثة جعلت اتخاذ القرار سهلاً.

اجتاحت إسرائيل لبنان.

- ١٣ -

«شارون يريدني رئيساً للبنان»

لقد تنبأ بشير بذلك لكني لم أصدقه.

ففي ٦ جزيران/ يونيو من عام ١٩٨٢، دخلت القوات الإسرائيلية إلى لبنان. ولم تكن هذه المرة الأولى، ففي الأعوام الماضية عبرت نخبة الوحدات الإسرائيلية الحدود الجنوبية في غارات انتقامية ضد منظمة التحرير الفلسطينية.

أما الآن فتحرك الجيش الإسرائيلي بكامله ليشن حرباً ضد منظمة التحرير، تدفق عشرات الألوف من الجيش الإسرائيلي على لبنان، وشقّوا طريقهم شمالاً نحو بيروت.

الاستفزاز المباشر لهذا الاجتياح كان محاولة اغتيال السفير الإسرائيلي في انكلترا، شلومو آرغوف فقد أُطلق الرصاص على رأس آرغوف في ٣ حزيران/ يونيو من عام ٨٢، بينما كان يغادر فندق «دورشستر» في لندن، وأصيب أحد مهاجميه وقبض عليه رجل أمن بريطاني، واستنتج الإسرائيليون على الفور معتمدين باستنتاجهم على نوعية السلاح الذي استعمل، بأن الذين حاولوا اغتيال آرغوف هم بلا شك من مجموعة أبو نضال الإرهابية.

وأبو نضال هو الخصم اللدود لمنظمة «فتح» العرفاتية، وعندما أثير هذا الموضوع في اجتماع حكومي طارىء في القدس رد رئيس الوزراء مناحيم بيغين على هذه الادعاءات بلا مبالاة، قائلاً: «أبو نضال، أو

أبو شميدال، كلهم منظمة التحرير».

إذا استعاد المرء الأحداث الماضية وتأملها فسيبدو واضحاً أن بيغن استغل هذه الفرصة للقيام بما كان مقتنعاً به من أجل الحفاظ على أمن حدود إسرائيل الشمالية، والشعب المسيحي في لبنان، والهجوم على آرغوف كان له دور مباشر في خطة وزير الدفاع الإسرائيلي آرييل شارون.

قال لي بشير إن شارون أصيب بالإحباط بسبب فشل إسرائيل في الغزوات الصغيرة المتكررة للبنان، وخاصة عملية الليطاني في آذار/مارس عام ٧٨. خلال هذه العملية المحدودة، نجحت القوات الإسرائيلية في طرد فدائيي منظمة التحرير من الجنوب اللبناني إلى ما وراء نهر الليطاني. ولكن سرعان ما عاد المقاتلون عندما غادرت إسرائيل المنطقة. أما قوات الأمم المتحدة التي تمركزت في الجنوب اللبناني فكانت غير نافعة أمام عمليات التسلل هذه، وفي بعض الأحيان كانت قوات الأمم المتحدة تزود منظمة التحرير بمعلومات استخباراتية، والرائد اللبناني سعد حداد، حليف إسرائيل في منطقة الحدود، وجد أنه من المستحيل إبقاء الفلسطينيين في الخارج.

وقال بشير إن شارون كان يريد حكومة في بيروت ترحب وتقدر على إقامة سلام مع إسرائيل، وعلى طرد المقاتلين الفلسطينيين من لبنان. وقد خيل لبشير أن توحيده للمسيحيين عام ١٩٨٠ قد جعل شارون يقتنع أنه هو الرجل المناسب للقيام بذلك.

وبشير كان يستمع إلى كل من يؤمن بأن عدو لبنان الحقيقي ليس منظمة التحرير إنما سوريا.

وفي الحقيقة، في عام ١٩٨٢، عندما كانت إسرائيل تخطط لشن حرب على لبنان، صدم بشير بعض الضباط الإسرائيليين من ذوي الرتب العالية عندما قال لهم: «إذا كنتم لا تنوون طرد السوريين، فلا تأتوا». وهذا الرأي كان يخالف رأي القيادة الإسرائيلية السياسية، التي

كانت تؤيد اجتياحاً محدوداً لا يتعدى الـ ٢٥ كلم.

قبل سنة من اجتياح إسرائيل، قال لي بشير إن إسرائيل ستدخل إلى لبنان للاشتراك في حرب كاملة. «ذات يوم» قال، «سترين الجيش الإسرائيلي في شوارع بيروت. يريدني شارون رئيساً للبنان، وسيفعل ما باستطاعته لتحقيق ذلك».

لم أتكلم مع شارون، عن هذا أبداً، ولكن أصدقائي المراسلين العسكريين الإسرائيليين «زيئيف شيف» و«يهود ياري»، كتبا في كتابهما: «الحرب اللبنانية ـ الإسرائيلية» أن شارون كان يشارك بشير في الرأي، واستشهدا بقول شارون للسياسيين في حزب الليكود بأن: «هدف إسرائيل هو أن ترى لبنان دولة مستقلة تعيش معنا بسلام وتصبح جزءاً متكاملاً من العالم الحر، وحل مشكلة الوجود السوري في تلك البلاد.. وحكومة كهذه، لن توجد طالما أن الإرهابيين يسيطرون على كل أجزاء لبنان. وهذا يعني، أنه من المستحيل الاتفاق على هذا الموضوع دون أن نهتم بالسوريين».

كانت هذه نظرية بشير أيضاً. وما كتبه شيف وياري ينسجم مع ما قاله لي بشير عن نوايا شارون قبل الاجتياح بزمن طويل. وعلى الرغم من إنكار شارون بأنه يخطط للتدخل في السياسة اللبنانية، فقد استشهد كل من شيف وياري، بكلمة قالها للعسكريين: «إن تأسيس حكومة من ذلك النوع تحتاج ٦٦ نائباً من التسعين في البرلمان اللبناني، وستحضّر قائمة بأسماء هؤلاء النواب».

أكد كل من شيف وياري، أن أهداف شارون النهائية هي تأسيس «نظام سياسي جديد» وبشير هو الخوذة في بيروت، وطرد منظمة التحرير خارج لبنان إلى «قفص مزخرف» في دمشق. عندما يتحقق هذا، سيتّم الفلسطينيين في الضفة الغربية المحتلة وقطاع غزة، وسيقبل الفلسطينيون المعتدلون بشروط إسرائيل للتعايش السلمي (أو، بدقة أكثر، سيكونون غير قادرين على رفض تلك الشروط). «شرح شارون

لمساعديه»، يكتب كل من شيف وياري: «بتقديره، إن عملية ناجحة في لبنان، ستؤمن سيادة إسرائيلية غير مهددة على لبنان لثلاثين سنة مقبلة...».

ليس من المعروف إلى أي حد شارك شارون هذه الأفكار مع رئيس الوزراء بيغن، لكنه من الواضح، مع ذلك، أن تورط بيغن مع الموارنة ينبثق من مطابقته للأقلية المسيحية بيهود أوروبا تحت حكم النازية. كان من الواضح أنه يشبِّه منظمة التحرير بالنازيين، لكنه يبدو أن بيغن وقادة إسرائيل السياسيين كانوا يؤيدون فقط حرباً صغيرة في لبنان، وفي الحقيقة، قال بيغن للسفير الأميركي فيليب حبيب إنه كان يتوقع أن تدوم هذه الحرب ٧٢ ساعة فقط.

وأصبح موضوع الهدف الإسرائيلي من هذه الحرب يثير الجدل في كل من الولايات المتحدة وإسرائيل، ولم أفهم قط لماذا، لأنه بدا لي أن نوايا إسرائيل كانت سراً مكشوفاً جداً. وفي أوائل ربيع عام ١٩٨٢ وقبل أشهر من الاجتياح، ساعدت ألفرد ماضي، كممثل لبشير للاجتماع بشركة Gray وهي شركة علاقات عامة ذات نفوذ عالمي. قرر بشير تحسين صورته في الولايات المتحدة. جاء «نيل ليفينستون» إلى الاجتماع، وهو نائب رئيس الجهاز الدولي في شركة Gray، وأخبرني بما حدث. وعندما سئل لماذا كانت «القوات اللبنانية» تحتاج للمساعدة قال ألفرد ماضي إنه قريباً جداً ستجتاح إسرائيل لبنان وسيصبح بشير الجميل رئيساً.

عندما سمعت عن الاجتياح اتصلت على الفور ببشير.

□ «بشير» كدت أصرخ. «لا أصدق أنه سيحصل».

ـ «قلت لك أنه سيحصل»، قال، «ألم تصدقيني؟».

□ «إلى أين سيتمدد الإسرائيليون؟»، سألت.

ـ «إلى حيث تستدعي الضرورة»، كان الجواب الخفي.

□ «سنأتي»، قلت له، «قررنا أن يكون العرض الأول في «جاك

اندرسون كونفيدنشيال»، تقريراً عن الشرق الأوسط، سأراك خلال شهر».

ولكن أولاً، طرنا أنا وجاك في شهر آب/ أغسطس إلى إسرائيل.

لم يسبق لي أن ذهبت إلى هناك أثناء الحرب. كان أصدقائي يبدون شاحبين وكأنهم لم يناموا منذ أسابيع والإحساس بعدم الأمان والهيجان يسيطر عليهم. في شهر تموز/ يوليو كانت بيروت تحت الحصار. أحاطت القوات الإسرائيلية بالمدينة وكانت المدفعية الإسرائيلية تضرب بيروت الغربية المسلمة في محاولة لحث المقاتلين الفلسطينيين على المغادرة.

وقبل سنة تقريباً من الاجتياح، قال لي بشير إنه إذا حدث الاجتياح، فإنه يتوقع أن يربط قواته بالإسرائيليين، وبأن «القوات اللبنانية» ستهاجم مقاتلي منظمة التحرير في بيروت الغربية. بالنسبة إلى شيف، وياري والتقارير الأخرى الصادرة، فإن شارون قد اعتمد كثيراً على وعده للقيام بذلك. لأنه كان يعلم أن الشعب الإسرائيلي والحكومة، التي كانت قد انقسمت بسبب هذه الحرب، لن تتحمل الخسائر التي ستنتجها حرب الشوارع في بيروت الغربية.

لقد تدخلت إسرائيل من أجل علاقة بشير الجديدة والقريبة مع الولايات المتحدة، ولكن الآن وقد حصل الوئام: بقيت إسرائيل وحدها، أصبحت العلاقات الأميركية ـ الإسرائيلية ومنذ ربيع عام ٨٢ باردة، وعلى الرغم من أن أهداف كل من إسرائيل وأميركا، الاستراتيجية كانت مماثلة إلّا أنه كان هناك أيضاً اختلافات تكتيكية في اقترابها من الشرق الأوسط. تصوّرت الولايات المتحدة، لبنان تحت حكم بشير كدولة عربية مؤيدة للغرب، وقوة مقابلة معتدلة للضغط على الأنظمة الثورية المؤيدة للاتحاد السوفياتي والتي تحيط به. وقد حذروا بشير من مشاركة إسرائيل في القتال.

وإذا حصل هذا، كما قالوا، فإنه سيضع نفسه في صورة قائد

حربي مسيحي آخر، وبهذا يدمّر فرصته لتوحيد لبنان تحت سلطته، كان لبنان جزءاً من العالم العربي، هكذا كان يناقش الأميركيون بشير. وإذا أصبح بشير رئيساً، سيكون رئيساً لبلد عربي، لذلك حذروه من أنهم لن يؤيدوا دعوته الرئاسية إذا أطلق قواته ضد رفاقه العرب. وبتردد، أخذ بشير هذه النصيحة بعين الاعتبار وقاوم بقوة الضغط الإسرائيلي لجلب قواته إلى المعركة.

وانقسم المسؤولون الإسرائيليون حول بشير. فالموساد، وكبار ضباط الجيش،آرييل شارون كانوا يؤيدونه، لكن المخابرات العسكرية الإسرائيلية شنّت حملة ضد بشير، فقد رأى بعض الإسرائيليين الذين التقينا بهم، وكان البعض منهم يؤيد بشير في الماضي، أن رفض بشير للقتال معهم يعتبر خيانة. وفوجئت أنهم أساؤوا قراءة المعنى المتضمن علاقة بشير مع الأميركيين. وأحد الذين عبّروا عن غضبهم من بشير كان صديقي القديم رافي ايتان، مستشار رئيس الوزراء لشؤون الإرهاب، والذي ساعدني كثيراً عندما كنت أعمل في موضوع «الحرب غير المقدسة»، كنا نتناول العشاء في مطعم صيني في تل أبيب مع رافي وزوجته ميريام ويوري دان الذي التقيته خلال رحلتي الأولى إلى إسرائيل وكان صحافياً ومستشاراً صحافياً لآرييل شارون. وفي العشاء أذاع رافي شكوكه ببشير.

- «من كل ما قرأته في التقارير عن المخابرات العسكرية، تبين أن بشير شخص لا يُعتمد عليه، وأنه ليس مرشحاً جيداً لتسانده إسرائيل، عليه أن يكون الرجل القوي والقوة تكون خلف الكواليس، ليس عليه أن يصبح رئيساً».

□ «لماذا تقول هذا؟» سألته. «بشير هو الوحيد القادر على جلب السلام إلى لبنان، إنه الوحيد الذي لديه الكمال والتصوّر لخلق لبنان قوي، إنه ليس مفسداً ككل الآخرين».

بدا رافي منهوك القوى نهائياً، خلع نظاراته ومسح عينيه. «لن

يقبله المسلمون أبداً»، قال: «إنه سيبعدنا عن الشيعة في الوقت الذي بدأنا نقيم علاقات جيدة معهم».

كان رافي يمضي معظم أوقاته في جنوب لبنان، يعمل ليطوّر العلاقة الإسرائيلية بالمسلمين الشيعة. إن السنوات العشرة الماضية والتي خلالها حوّلت منظمة التحرير لبنان الجنوبي إلى قاعدة للهجوم على إسرائيل، أثرت بمرارة على سكان المنطقة.

لقد أرهبت منظمة التحرير السكان، باحتلال منازلهم وطرد المواطنين، الذين هرب الكثير منهم إلى تجمعات اللاجئين المحتشدة في ضواحي بيروت الغربية. كان رافي يؤمن أن الشيعة سيكونون حلفاء إسرائيل وأفضل من الموارنة وبشير.

□ «سيقبلون به في النهاية»، قلت بحماس. «إنك لا تفهمه إنه يخطط للعفو العام. سيعمل على عودة كل القادة في المنفى، مسيحيين كانوا أم مسلمين».

- «المسيحيون ليسوا حلفاءنا. دعيني أقول لك شيئاً عن المسيحيين، إنهم وسيمون جداً، جداً، جداً».

□ «آه، هيا، رافي».

- «قولي لي متى حاربوا بطريقة فعالة، قولي لي عن شيء واحد أنجزوه لمصلحتهم دون مساعدتنا».

□ «لا أعلم عن هذا»، قلت، «لكنني أعرف بشير، وأنت مخطىء بحقه، إن الأميركيين يضغطون عليه بشدّة لكي يبعد نفسه عن إسرائيل، وإنه يتحسس طريقه. شخصياً، لا أعتقد أن الأميركيين يفهمون المنطقة جيداً، إنهم يأخذون على عاتقهم أشياء لا يستطيعون تحمّلها، ولكن بشير صلب ويعرف كيف ستجري الأمور».

- «أرى أنك تحبينه كثيراً»، تدخّل يوري دان فجأة وهو كان يستمع بهدوء طيلة الوقت. بعد ذلك لم يكن هناك شيء أستطيع قوله،

فرافي ايتان ويوري دان كانا من أصدقاء آرييل شارون.

أقلقني، أن أرى رافي مشككاً لهذا الحد ببشير، غير واثق بشخصيته، وانتابتني موجة برد في ذلك المطعم المحتشد المزدحم الحار.

وتساءلت إذا كان بشير يتصرف بطريقة قد تصيبه بأي مكروه.

في الليلة التالية توجهنا إلى النقب لإجراء مقابلة مع وزير الدفاع آرييل شارون في مزرعته الصحراوية، التي يقوم بحراستها جنود شبان.

والظلام الدامس تكسره لمبات كهربائية معلّقة على عواميد خارج المنزل. وعندما قدمني يوري دان إلى آرييل شارون، صافحني شارون وحدّق بعمق في عيني لدقيقة كاملة، وكأنه كان يحاول أن يصوّر شخصيتي بالأشعة وحدقت به بالمقابل، أخيراً أزاح عينيه عن وجهي ودعانا إلى غرفة الطعام لبدء المقابلة.

طويل القامة وبدين. كان شارون يتعرق بكثرة تحت أضواء التلفزيون، وعلى الرغم من ذلك كان واثقاً جداً من نفسه. كقائد في القيادة الجنوبية كان شارون يعتبر حتى من وجهة نظر أعدائه السياسيين، ألمع قائد في التاريخ الإسرائيلي وكان أيضاً يخط لنفسه مسلكاً مستقلاً، ويرفض اتباع الأوامر التي لا يوافق عليها.وسلوكه هذا كما يقول نقاده، أخذه معه عندما ترك الجيش ليعمل في السياسة.

جاء شارون إلى الولايات المتحدة قبل أشهر للتحدث مع وزير الخارجية ألكسندر هيغ عن لبنان. وقالت الصحف آنذاك أن وزير الدفاع الإسرائيلي حذّر هيغ من أن إسرائيل لن تسمح بعد اليوم لمنظمة التحرير باستخدام لبنان كأرض عسكرية للهجوم على إسرائيل، ووافق هيغ على عملية محدودة ومرسومة لطرد منظمة التحرير من شريط ضيق على حدود إسرائيل.

قال لنا شارون إن الاجتياح هو لحماية المستوطنات الشمالية في بلاده من هجمات منظمة التحرير. إسرائيل، كما قال، لا تهتم بالتدخل في

الشؤون اللبنانية الداخلية، ولكنها تهتم فقط بحفظ أمن حدودها.

بعد المقابلة، التي دامت ساعة، دعانا شارون إلى غرفة الجلوس لشرب القهوة. زوجته (أخت زوجته الأولى والتي ماتت في حادثة سيارة) كانت تقدم لنا الحلوى من طاولة منخفضة جداً حتى أنه كان علينا الركوع إلى جانبها، وقد أحرجني أن نجلس كلنا على الأريكة بينما هي راكعة.

في الصباح الباكر من اليوم التالي، غادرنا إلى بيروت. ولأول مرة، كنت قادرة أن أقود مباشرة إلى هناك بدلاً من أن أطير عن طريق القاهرة أو اليونان. استأجر وزير خارجية إسرائيل، سيارة كاديلاك سوداء لنا، كان يقودها جندي إسرائيلي ويرافقنا مساعد ضابط في الجيش، وهو رجل أعمال في الحياة المدنية وقد طلب للخدمة في الجيش لاحقاً. عضو آخر من حاشيتنا كان كولونيلاً خبيراً بالطائفة الشيعية، هو أيضاً، كان مدنياً، أستاذاً في مركز جامعة تل أبيب للدراسات الاستراتيجية.

الشيعة، شرح مرشدنا، كانوا فرعاً من الإسلام يرجع تاريخهم إلى ٦٦١ بعد المسيح، عندما قُتل الإمام علي صهر النبي محمد في صراع قوي حول الخلافة. الشيعة (أو التابعون لعلي) كانوا لسنوات عديدة أقلية محرومة في ظل النظام السياسي اللبناني القائم.

لاحقاً ازداد عدد السكان الشيعة في لبنان. وعندما أطاح الخميني عام ١٩٧٩ بشاه إيران وأسس حكومة دينية شيعية، أفاق شيعة لبنان الذين كانت تثيرهم غزوات منظمة التحرير على وعي سياسي كامل. ولكن كما يحصل في كل مكان في لبنان، تلاشت الكتلة المسيسة بسرعة. كان يوجد حزبان رئيسيان مع ميليشياتهما: أمل المعتدلة، وحزب الله الذي كان يؤيد ثورة الخميني الإسلامية وحكومته الدينية.

لم تكن سيارتنا مكيّفة على الرغم من كبر حجمها كان حرّ آب/ أغسطس شديداً. وكنت أجلس في الخلف بين جاك ودال فان آتا أحد مساعدي جاك في عموده الصحافي.

كان دال يتصبب عرقاً وكان عليه أن يمسح عرقه بين الفينة والفينة، وكلما قام بذلك كان يغرز كوعه في رئتي.

كنا نقود في الطريق نفسها نحو الشمال الذي مرت به إسرائيل قبل أسابيع، ولكن لدهشتي كان هناك علامة صغيرة لمرورهم. كان كل شيء يبدو هادئاً البحر الصافي من جهة، وأشجار الزيتون والبرتقال من جهة أخرى. كان الريف رائعاً. كنا نسمع بعض الأحيان من نوافذنا المفتوحة ثغاء الخراف ترعى. كان المارّون يحدّقون بسيارتنا الإسرائيلية دون أن تبدو على وجوههم أية تعابير. مررنا ببعض الكتابات على حجارة بيضاء تقول «أهلاً بالمحررين الإسرائيليين»، بالإنكليزية والعربية، ولكن مرشدنا ـ الأستاذ تنبأ أن الشيعة سيتحولون ضد إسرائيل قريباً.

ـ «ليس هناك أي اجتياح يرحب به بعد فترة معينة من الوقت» قال لنا.

□ «عاملت منظمة التحرير الشيعة بوحشية لذلك يرحبون بنا الآن، ولكن هذا سيمر ومن الممكن أن نرث عداوتهم. هذه الحرب ستحوّلهم ضدنا، ليصبحوا أعداءنا».

ـ ولكن في الظاهر كان هناك سلام في المنطقة وكان الشعب راضياً. سيصبح بشير رئيساً في وقت قريب. كنت أعلم بخططه لتوحيد البلاد وإنهاء جراح الحرب الأهلية الطويلة. خيّل إليّ أن الأستاذ كان متشائماً أكثر من اللازم.

توقفنا في صيدا وصور لالتقاط الصور ولمقابلة المسؤولين المحليين. قبل الاجتياح الإسرائيلي، كان هذا معقل نشاط منظمة التحرير، الآن قرب مرفأ صيدا القديم العهد، رأيت العشرات من الملصقات لبشير على طول الخط.

وبينما نحن نتجه نحو الشمال في الطريق البحري، وصلنا إلى بلدة شبه مدمّرة.

□ «أين نحن؟» سألت سائقنا الشاب.

ـ «الدامور» قال.

الدامور سمعت بهذا الإسم مئات المرات وأكثر ما سمعته كان بصوت بشير المرير. وعادت الصور إليّ. مرة ثانية رأيت الناجين من المجازر وهم يقفون أمام بابي في غرفة الفندق في بيروت. يحملون صوراً وألبومات وصناديق مليئة بصور تثير الاشمئزاز. هنا في الدامور، وقبل أن ينشىء بشير القوات اللبنانية، ذبح ١٠,٠٠٠ مسيحي. هنا قتل الكهنة واغتصبت النساء، وذُبح الأطفال وطرد ٣٠ ألف شخص من الدامور عن طريق المرفأ نفسه الذي تسيطر عليه إسرائيل الآن. عندما أخذت منظمة التحرير الدامور حولوا هذه المدينة الحية إلى مخيم مسلّح ووضعت تسهيلات تدريبية متطورة في هذه المدينة.

طلبت من السائق الوقوف لنخرج، حتى نمشي أنا وجاك داخل المدينة.

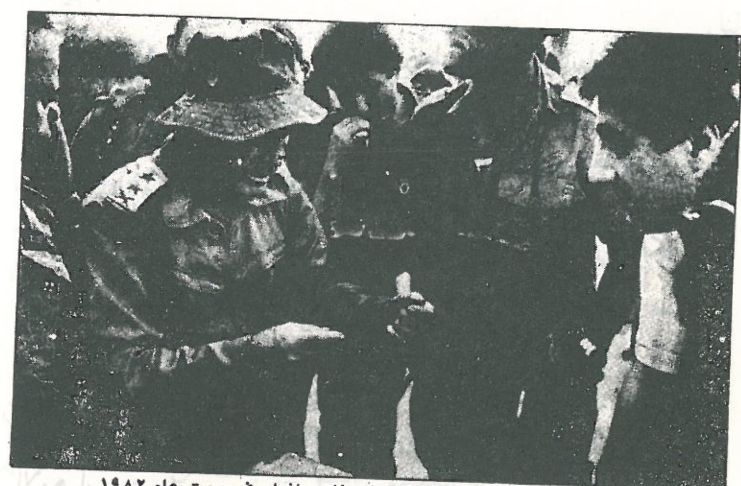
ـ «كلا»، قال السائق. إن هذا خطير. وأيّد ضابط الجيش رأيه، لقد طرد مقاتلو منظمة التحرير من المدينة، قال، ولكن ما يزال هناك ألغام مزروعة في الطريق.

لكننا أصرّينا، وأخيراً، وبتردد، وافقوا. مشينا أنا وجاك بصمت فوق جبل نحو كنيسة مهجورة. نظرت إلى الصليب في برج الكنيسة.

□ هل رأيت هذه الكنيسة في الصور؟

ـ ونحن ننظر إلى الدبش في وسط البلدة رأينا علامات لهروب يسوده الانفعال: طعام متروك في الصحون، ثياب ودمى منثورة. في المنطقة التي استولت عليها منظمة التحرير وجدنا وسط الحطام عُدّة الإرهابيين: رخص سواقة أوروبية، جوازات سفر باسم واحد من عدة بلدان. خرائط لشوارع في العواصم الأوروبية رسمت عليها علامات حمراء ودفاتر شيفرة. كان من الواضح أن غرفاً عديدة

استخدمت كثكنات. من وجهة نظر صحافي، فإن هذا الاكتشاف كان ثميناً، ولكن وأنا أمشي بين العمارات المهدمة. تحايل عقلي عليّ. خلت أنني أسمع أناساً في كل زاوية، يتكلمون بحماس بالعربية، يعملون، ويخططون لعمليات.. كنا نريد أنا وجاك أن نبقى لنصوّر ولكن مرافقينا أصرّوا على أن هذا خطير: «قد يحصل أي شيء في أية لحظة. ما زال المكان غير آمن». على الرغم من هذا تريثنا وأخذنا نفتش في الحطام عن شيء لا ندري ما هو. كان المكان مليئاً بالأشباح، مدينة أصبح زهوها راقداً كالتراب تحت أرجلنا.



رفائيل ايتان وبشير الجميل وفادي افرام في بيروت عام ١٩٨٢

- ١٤ -

ليلة غرام في عز الاجتياح

من الدامور وصلنا إلى بيروت بعد ساعة تقريباً. كانت حركة السير شبه منعدمة على الطريق الساحلي الذي كان مغلقاً إلا لآليات الجيش الإسرائيلي. دخلنا المدينة من الضواحي الشرقية.

حركة السير كانت دائماً تشكل أزمة في بيروت، لكنها الآن أصبحت كابوساً. كان الجيش الإسرائيلي يحتشد على الطرقات إضافة إلى سيارات الجيب، والدبابات. وكان الجنود الإسرائيليون يبدون حذرين وهم يمشون في شوارع بيروت بذهول. إن وجودهم في بيروت كان يثير فيهم الدهشة تماماً كما أثارت دهشتي رؤيتهم هناك. باستثناء الوجود الإسرائيلي الكثيف، كانت بيروت الشرقية لا تحمل أية علامات من الحرب التي كانت دائرة بعد الخط الأخضر.

توجهنا إلى مركز القيادة الإسرائيلية في بعبدا في ضواحي بيروت الشرقية قرب القصر الرئاسي. كان اختيار الموقع مناسباً فهو يطل على المطار وعلى ثلاثة مخيمات للاجئين الفلسطينيين التي تتواجد فيها منظمة التحرير. استعمل جاك الهاتف ليتصل بالمساعد الصحافي لياسر عرفات وحصل على إذن لمقابلة عرفات على الفور عندما ذكر اسمه. لم تكن منظمة التحرير متجاوبة معنا إلى هذا الحدّ عندما كنت هنا مع جيرالدو، ولكن سمعة جاك كصاحب عامود في كل الصحف الواسعة الانتشار في العالم كان بمثابة سحر لمنظمة التحرير التي كانت حساسة تجاه الصحف. انتظر الصحافيون الآخرون أسابيع لمقابلته دون أن

يتلقوا الرّد على طلبهم.

عندما كنت في إسرائيل، حذّرني دايفيد كيمحي وبعض الأشخاص في وزارة الخارجية من الذهاب إلى بيروت الغربية لأن اسمي أصبح على لائحة الأعداء منذ قصة «الحرب غير المقدسة». فقد لا أخرج حيّة إذا دخلت إلى هناك. وقررت الاستماع إلى نصيحتهم وأنتظر جاك في فندقنا في بيروت الشرقية.

كان فندق ألكسندر يضجّ بالصحافيين الغربيين، مع العلم أن هؤلاء كانوا يفضلون النزول في فندق الكومودور في السابق. لكن المدفعية الإسرائيلية طردتهم من بيروت الغربية. وتحوّل فندق ألكسندر الراكد إلى خليّة نحل. عثر جاك على سائق سيارة أجرة يرغب بالقيام بالرحلة الخطرة إلى بيروت الغربية، مقابل مبلغ ضخم من الدولارات الأميركية، طبعاً. اتصلت ببشير بعد أن غادر جاك بقليل.

□ «بشير» قلت «أكاد لا أصدق ما أرى هنا. جنود إسرائيليون في بيروت!».

ـ «أمر غريب، أليس كذلك؟» قال. «المشكلة أنه قد يروق لهم المكوث عندنا ولا يغادرون إلى وطنهم ثانية».

□ «أشك في ذلك، بشير، سنبقى يوماً واحداً فقط. من المقرر أن نجري مقابلة مع بيغن في إسرائيل غداً».

ـ «إذاً علينا أن نستغل الوقت بأفضل ما يمكن» قال بصوت دافىء. «سنتناول العشاء معاً. سيدبّر نعّوم ذلك». نعوم فرح كان بمثابة وزير خارجيته.

«هل يضيرك أن نأكل في المكتب؟ لا تريد جماعتي أن أذهب إلى المطعم مع كل هذا القصف الذي يدور».

□ «لا يهم»، قلت، «طالما أنني سأراك قريباً. سيقابل جاك عرفات. ولن أذهب معه».

ـ «أعلم».

□ «وكيف تعلم»؟

ـ «لأنك ما زلت هنا». قال: «ما زلت حيّة».

عاد جاك من بيروت الغربية مشكّكاً للغاية بعرفات. لقد عامله رئيس منظمة التحرير كما فهم جاك وكأنه بصدد دعاية سياسية. تكلّم بشدة ضدّ إسرائيل ورفض أن يخرج عن أسلوب منظمة التحرير. وأخذ جاك إلى مستشفى لكي يرى أطفالاً تأذوا من القصف الإسرائيلي. وعندما سأل عرفات: «لماذا تضع مراكزك قرب المساكن المدنية؟» تظاهر بأنه لم يسمع.

عند المغيب صعدنا إلى سطح فندق ألكسندر لتصوير القصف الإسرائيلي على بيروت الغربية. وبينما كنّا نراقب، ظهر عدد من طائرات «ف ١٦» متجهة نحو الشمال مخترقة السماء المظلمة سمعنا صوت أزيز خفيف. وعندما اقتربت الطائرات رمت بالونات حرارية، خدعة لجذب صواريخ منظمة التحرير التي تتابع الحرارة. دنت الطائرات أكثر، ورأيناها تطلق الصواريخ. كانت تطير بسرعة رهيبة، تارة تبدو كنقطة في السماء الجنوبية، وتارة أخرى كطيور حربية ضخمة، تنقض على المدينة، وتعلو، ثم تطير بعيداً.

كان السطح مكتظاً بالصحافيين الغربيين، الذين كانوا يراقبون المنظر معظم الوقت بصمت ثقيل، بينما كان نصف المدينة يحترق أمام أعيننا. كان هذا أسوأ نوع من المراقبة، ورأيت على وجه زملائي ما كنت أشعر به في أحشائي شعور بالرعب واليأس.

ولكن ليس بالخوف، مع ذلك. على الأقل في حالتي. لسقوط القنابل على الجهة الثانية من المدينة، إلا أن بيروت الشرقية كان يسودها الأمان، أو ربّما أنا التي كنت أشعر بالأمان. سمعت في إسرائيل عن هذه الصواريخ المرشدة التي تعتبر مثالية للمدن بسبب دقّتها. فهذه الصواريخ تستطيع هدم نصف منزل وتترك النصف الآخر سليماً. كنت أعرف حيلة الطيارين الإسرائيليين. عندما رأيتهم يطيرون بهذه

السرعة، بدا لي من المستحيل أن يميزوا جهة من جهة في بيروت، أو عمارة من أخرى.

لكنهم استطاعوا. كانت الطائرات تطلق القنابل على بيروت الغربية بدقة متناهية. نسمع ضربة مكتومة ويقول أحد منّا «هذه شاتيلا»، أو «كان هذا برج البراجنة»، و«إنهم يتجهون نحو مركز منظمة التحرير الفلسطينية في الفاكهاني الآن».

على الرغم من أن الطائرات كانت إسرائيلية، وكنا نشهد بأنفسنا مجيئها، كان الأمر يبدو وكأن بيروت تنفجر من الداخل، كطنجرة ضغط تركت على النار لوقت طويل. مع نزول كل قنبلة، كان الناس يموتون، ولماذا؟ لجريمة الوجود في المكان الخطأ في أردأ الأوقات، أو بسبب الفقر الشديد، أو العجز الشديد، أو اليأس الشديد الذي يحول دون الهرب.

استمر القصف حوالى عشرين دقيقة. وعند انتهائه، دخلنا أنا وجاك. لم نتكلم ونحن نهبط على السلالم. ذهبنا إلى البار وطلبت كأساً من الخمر.

بعد ساعات. جاء أحد سائقي بشير وأخذنا إلى مركز القوات اللبنانية في الكرنتينا، قرب المرفأ. كان «نعّوم فرح» ينتظرنا في مكتب بشير، ولكن بشير كان في اجتماع في الطابق السفلي. وبعد دقائق قليلة سمعت خطوته السريعة المألوفة. مشى إلى داخل المكتب. وذهب مباشرة إلى جاك وصافحه، ثم شكره على مقال كتبه في واشنطن يؤيد عبره ترشيح بشير كأفضل أمل للبنان. وصادف أن هذا المقال ظهر في اليوم نفسه في جريدة «الواشنطن بوست» ومئات الجرائد الأخرى.

ثم استدار نحوي. «أهلاً بك في وطنك»، قال، وقبّلني في فمي. وفاجأني أن يفعل هذا، أمام جاك.

تناولنا طعام العشاء على الطاولة نفسها التي تقاسمنا أنا وبشير العشاء عليها عدّة مرات في الماضي. ترأس بشير المأدبة، وجلس كل من

جاك ونعّوم على يمينه، وجلست أنا على شماله. سأله جاك كيف كانت تسير حملته.

- «الأوضاع ليست مثالية»، قال بشير، «ولكن الوقت مناسب».

□ «سمعت أنك قريباً ستصبح رئيساً»؟

- «هذا صعب»، قال بشير «إن أعضاء البرلمان أناس رسميون جداً ولست مثلهم».

□ «لا أفهم»، قال جاك. «إنك آتٍ من عائلة مرموقة أيضاً أليس كذلك؟».

- «لكني لست كالسياسيين عندنا». نظر بشير إلى الأسفل إلى نفسه بحزن وقال: «ربطات العنق عندهم تتناسب مع قمصانهم. أحزمتهم تتناسب مع أحذيتهم، مناديلهم تتناسب مع جواربهم. ويحسنون الثرثرة. وهذا صعب عليّ». قال.

□ «بشير» تدخلت، «هل صحيح ما قاله لنا الإسرائيليون قالوا إنه عندما اتصل بك وزير خارجية فرنسا ليسألك إذا كنت بحاجة للمساعدة، قلت له، كلا، لا ترسل قواتك إلى بيوت الدعارة عندنا. سنرسل قواتنا لزيارتها عندكم»؟

- «نعم فعلت»، قال بشير بصوت مرح كتلميذ مدرسة يعترف بمخالفة ويتحداك بأنه قام بها.

نظر جاك، المحتشم بعض الشيء، إلى الأسفل إلى طعامه.

□ «الإسرائيليون غاضبون منك»، قلت لبشير، بفظاظة، كما أدركت، ولكن لم يكن هناك وقت للّباقة، «قالوا إنك لا تحافظ على اتفاقاتك».

- أنا أحافظ دائماً على اتفاقاتي. قال باختصار وكان من الواضح أنه لا يريد التحدث أكثر من ذلك في هذا الموضوع.

□ لم يأكل بشير كما يجب، بشير الذي أعرفه كان يأكل طعامه

بحيوية بالغة. سألته إذا كان بخير؟

ـ «الطعام رديء»، قال وهو يلهو بشوكة.

□ «لقد فقدت وزناً كافياً، ستمرض».

لم يجبني، نظرت إليه عن كثب، ورأيت أنه هرم في الشهور القليلة الماضية. كان قد فقد الكثير من الوزن حتى أن ساعة يده كانت تتدلى من معصمه وخاتم الزواج كان يقع باستمرار من إصبعه. ودوائر سوداء عميقة تحت عينيه. وبدا بعض الشيب على صدغيه. ولكن شيئاً واحداً لم يتغير فيه: عيناه المضيئتان. وسأل جاك بشير عن برنامجه، إذا ما تم انتخابه.

مدّ بشير ذراعيه. «سيد اندرسون، تحاربنا لمدة طويلة حتى أننا نسينا كيف نعيش بسلام. علينا أولاً أن نعلم شعبنا كيف يعيش بسلام مع بعضه البعض».

□ «كيف»؟ سأل جاك.

ـ دنا بشير نحوه وقال: «سننهي الإقطاعية في لبنان، وفي الجيش وفي كل المؤسسات الأخرى. سننشيء مؤسسات تعمل لمصلحة الشعب، وليس لمصلحتها. وسنطرد الإرهاب من لبنان. ولن نكون قاعدة لهجمات الإرهابيين من كل أنحاء العالم، سيكون لبنان حراً».

□ وماذا عن الفلسطينيين في لبنان؟.

ـ «أنا أشفق على الفلسطينيين»، قال بشير، وعيناه تلمعان، «إنهم ضحية قادتهم والدول العربية الذين يستخدمونهم كرهائن. ولكننا ضحايا، أيضاً، ولبنان هو اهتمامي الأول. إسمع»، قال بشير: «عندما سبّبت منظمة التحرير المتاعب في الأردن، طردهم الملك حسين. عندما خلقوا المشاكل في مصر، تخلّص السادات منهم، ثم جاؤوا إلى هنا، ووجدوا بلداً ضعيفاً، وحكومة عشائرية استطاعوا تقسيم البلاد حسب الخطوط الطائفية. لأنه لم يكن لدى الشعب حسّ متطور للوطنية

وتحاربت الأقليات التي كانت تحركها قوّات خارجية، وكأنها نسيت أنها لبنانية».

□ «ولكن ماذا ستفعل مع الفلسطينيين»؟ ألحّ جاك.

ـ «علينا أن نحلّ هذا مع باقي الدول العربية. ولا أظن أن أحداً يريدهم.

«إنهم ليسوا»، قال، «أفضل ضيوف أو جيران عندما يتكلم السيد كارتر عن وطن فلسطيني لا أظن أنه يعني بهذا بلاينز أو جورجيا».

□ «هل ستطردهم كلهم»؟

ـ «هؤلاء الذين يرغبون في العيش بسلام تحت الحكم اللبناني» قال بشير، «باستطاعتهم البقاء. ولكن على المقاتلين الرحيل. حتى آخر جندي. على منظمة التحرير الانتقال إلى محطة أخرى. انتهى الأمر بالنسبة إليهم في لبنان».

□ «هذا هو برنامج كبير بما فيه الكفاية» قال جاك.

ـ «ليس لدينا خيار»، قال بشير.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة تقريباً عندما غادرنا المكتب أنا وجاك. اتفقنا على إجراء مقابلة مع بشير في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، لأننا كنّا سنغادر لإسرائيل بعد الظهر لمقابلة بيغن.

لم يكن لدينا أنا وبشير أي وقت للتحدث خلال العشاء. وعندما وصلنا إلى الفندق اتصلت به من الردهة.

«سأمر عليك بعد خمس عشرة دقيقة». قال. «هل تستطيعين الانتظار أمام الفندق، لا أستطيع الذهاب إلى الداخل».

صعدت إلى غرفتي لأغير ملابسي. ثم أسرعت إلى الردهة. كنت آمل أن أتسلّل من الفندق دون أن يلاحظني أحد، ولكن، اصطدمت بجاك اندرسون وهو منهمك في حديث مع مراسل الـ NBC جون شانسيلور.

أمسك جاك بيدي ونظر إليّ من رأسي حتى أخمص قدمي.

□ «إلى أين أنت ذاهبة في هذه الساعة»؟

ـ «آ.. عليّ أن أراجع تصميم المقابلة مع بشير غداً، مع جماعته».

□ نظر جاك إلى الخارج. كانت السماء مليئة بالقنابل المضيئة.
«الآن» قال مشككا

ـ أعطيته تكشيرة «الواجب ينادي».

وتوجهت نحو الباب. كنت أشعر بعينيه على ظهري. رآني الضابط الإسرائيلي المساعد. أخرج، فلحق بي إلى الخارج.

«الآن ماذا»؟، فكرت، ولكن قبل أن أجد طريقة للتخلص منه، وصل بشير بسيارته، ركبت السيارة. عانقني وقبلني قبلة طويلة.

□ «اشتقت إليك كثيراً» قلت، وأنا أركل جانباً رشاشاً كان ممدوداً على أرض السيّارة. سرنا عبر الشوارع المهجورة حوالى عشر دقائق، حتى وصلنا إلى شقة لم أرها من قبل.

ـ «اشش»، قال لي، واضعاً إصبعه على شفتيه. «علينا أن نكون هادئين جداً» قال وهو يمسك يدي.

كانت الشقة مظلمة للغاية، باستثناء شمعتين مشتعلتين في غرفة النوم، واحدة إلى جانب السرير، والثانية في الجهة الأخرى من الغرفة. استدار بشير نحوي وأخذ يدي مجدداً. التقت نظراتنا.

□ «هل خيل إليك أن الأمر سيكون بهذا الشكل»؟ سألت.

ـ «نحن، تقصدين»؟ قال، ضاحكاً. «تعلمين كيف أشعر نحوك».

□ «كلا، ليس هذا». قلت: «أعني أن تلقى العالم كله آتياً إليك. خلال أسابيع ستصبح رئيس لبنان».

ـ «أنا سأصبح»، قال بهدوء. «ليس أبي، أو أخي».

□ «لن يزعج هذا المنصب أخاك»؟ قلت.

ـ ضحك بشير وقال «لماذا أنت متفاجئة؟ كنت تعلمين أن هذا سيحصل».

□ «كنت أعلم»؟

ـ «أنت قلت هذا. ماذا كانت تلك العبارة لاميرسون»؟

□ «إذا تمسّك المرء بمكانه» قلت «وصمد هناك، متحدياً كل النزاعات، عند ذلك سيأتي العالم كله إليه».

ـ «أرأيت»؟ قال. «كنت على حق». ثم شدني إليه ورفع رأسي إلى كتفيه. نظرت إلى عينيه المبتسمتين. تعانقنا وتمددنا على السرير، تاركين الشمعتين تحترقان.

لاحقاً، خلعت أيقونة من رقبتي وناولته إياها. «انظر، بشير. إنها عملة منذ أيام الثورة اليهودية ضد روما. تقول الكتابة: «لأجل حرية صهيون». إنها الرمز لصراع شعب من أجل الحرية». أخذها بشير بين يديه. «إنها جميلة جداً، وقديمة جداً، عليك أن تدخريها وتعزّيها».
«هذا ما أفعله»، قلت. «إنها أثمن ما عندي. ولهذا أعطيك إياها لأنها تحكي عن صراع شعبك كما تحكي عن صراع شعبي أنا».

للحظة لم يتكلم، ولكن عينيه كانتا تشتعلان من الداخل. لمس الميدالية برفق فنظر عن كثب إلى الكتابة. ثم، بصوت منخفض، قال: «اهديني إياها بعد أن أصبح رئيساً، عندها سأستحقها». وأضاف شيئاً باللغة اللبنانية.

□ «ماذا تقول»؟ سألت.

ـ هزّ رأسه. «أحبك كثيراً لدرجة أنني لا أستطيع وصف شعوري لك بالإنكليزية». تعانقنا لوقت طويل. أخيراً، نهض وقال، «بعد الانتخابات، باربرا، ستعودين»، لن يكون الوقت طويلاً بعد الآن. انتظرنا ما فيه الكفاية، لم أكن أريد مفارقته. فقدت شجاعتي، وشعرت

بحزن غير منطقي يشلّني. أخيراً تحقق كل ما كنّا نحلم به. سيكون لبشير فرحة لتوحيد لبنان، وليظهر للعالم إنه رجل سلام. وليس رجل حرب.

ـ «ماذا حصل»؟ قال.

□ «لا أعلم. أنا خائفة. علمتني التجارب أن الطيبة قلّما تفوز في هذه الحياة».

أخذ بشير وجهي بين يديه. «قلت لك، أنا أؤمن بالقدر. ما هو مقدّر له أن يحصل سيحصل. ليس هناك أي شيء نستطيع فعله حيال هذا».

□ «نعم»، قلت، «لا أحبّ هذا النوع من الكلام، ولا أظنك تؤمن به أيضاً. لماذا تتجول في شوارع بيروت دون حماية؟ لماذا لا يوجد حرّاس خارج هذا الباب الآن؟ جهاز الأمن عندك نتن وعليك تغييره».

ـ «إني أفعل باربرا»، قال بصوت مطمئن، «أنا أعمل تغييرات».

ونحن عائدان إلى الفندق، أبقي يده على ساقي، كانت دافئة ومطمئنة لكني كنت أعلم أن أمن بشير الشخصي لم يكن همّه الأول ـ أو الثاني، أو الثالث.

في صباح جميل ودافىء. قررنا إجراء المقابلة أمام مركز القوّات اللبنانية. انتظر بشير الطاقم في مكتبه، وهو يهيء المعدّات. وقفت في الشمس، أرتعش، لم يبارحني مزاج الليلة الماضية.

جاء أحد مساعدي بشير لمناداتي، وعندما دخلت مكتبه، وجدته واقفاً قرب الطاولة حيث تناولنا طعام العشاء الليلة الماضية.

ـ «باربرا» قال «أريد التكلّم معك. أريد التأكد من أنك ستعودين بعد الانتخابات». لم ينتظر الجواب. «ويوجد شيء آخر. بخصوص إسرائيل! سأحافظ على اتفاقي، ولكن ليس حسب جدول مواعيدهم. أريدك أن تدركي ذلك. هل تفهمين؟»».

□ «أجل، ولكن رأيي ليس مهماً».

ـ «لا هو مهم».

□ «أعني رأي الإسرائيليين أهمّ. اسمع، بشير، لا أريدك أن تصبح شاه إيران آخر، دعمته الولايات المتحدة في البدء ثم سقط ككومة من الحجارة. أميركا كبيرة للغاية ولديها الكثير من المشاغل لتدعمك عسكرياً. فقط إسرائيل تفعل ذلك. إذا تخليت عن إسرائيل ستصبح وحدك في النهاية، وعندما يدرك العرب ذلك، سيبدأون بابتزازك، ولن يبقى لديك أية استقلالية».

ـ جلس على الطاولة وأشار إليّ بأن أنضم إليه. كتّف يديه وقال بسرعة: «الأميركيون يطلبون مني الابتعاد عن إسرائيل. إنهم يريدون حكومة عربية معتدلة في لبنان، حكومة تدفع المنطقة بكاملها نحو الغرب». «إنهم لا يريدون منبوذاً».

□ تكلمت بسرعة، غير عالمة كم من الوقت كان لدينا:

«رجالك في غاية الابتهاج من هذا الاهتمام من الولايات المتحدة حتى أنهم يقدمون لك النصيحة السيئة. تناقشت مع ألفرد ماضي عن هذا. صرخ في وجهي «لا نستطيع الاعتماد على الإسرائيليين، فقط، نريد قوة خارقة!» إنه لا يدري عمّا يتكلم، وستدفع ثمناً ثقيلاً لهذا. أنظر فقط إلى الماضي إذا كنت تريد رؤية المستقبل»، قلت. «منذ حرب فييتنام، عندما كان يزداد الرهان كنّا نتراجع. كنّا نتخلص من حلفائنا عندما تصبح الأمور صعبة. صدقني، بشير. إذا تطورت الأمور هنا. إذا بدا، مثلاً، أن سوريا أو الإرهابيين سيورطون الولايات المتحدة في القتال، فإن أميركا ستغادر. أنت تعلم هذا»، كدت أصرخ في وجهه: «هذا ما قلته لي بنفسك».

ـ ردّ بشير: «قلت للولايات المتحدة بألاّ ترسل المارينز إلى هنا إلاّ إذا كانوا يدركون النتائج. باربرا، أنا أفهم ما تقولينه، ولكن عليّ أن آخذ هذا الخيار الآن. لا تقلقي لن أغلق الخيارات الأخرى».

□ «هذا فقط ما تفهمه. أصدقاؤك في إسرائيل يعتقدون أنك استغليتهم. قالوا إنك وعدت بضم قواتك إلى الجيش، وأنه عندما أوقعتهم في الشرك وجعلتهم يأتون إلى لبنان، خلفت بوعدك. إنهم لا يعلمون عن الضغط الأميركي: يظنون أنك خدعتهم طوال الوقت. حاولت أن أشرح لهم، ولكنهم رفضوا الاستماع، يظنون أنني قريبة جداً منك».

ـ جاء مساعد إلى الغرفة ليخبرنا بأن الطاقم جاهز للتصوير. هبطنا إلى الأسفل، وأجرى جاك المقابلة مع بشير. تكلما عن الأشياء ذاتها التي تحدثنا عنها الليلة الماضية: الصراع في لبنان. وخطط بشير للمستقبل. التغيير الذي حصل لبشير عندما رأيته لأول مرة منذ سنتين كان مذهلاً. السحر، والحماس والشجاعة كانت ما تزال كما عهدتها.

ولكن بشير الذي كان يتوسل بأن يتفهمّه العالم أصبح الآن أكثر تعقلاً وواثقاً من نفسه.

انتهت المقابلة. كان لدى بشير اجتماع آخر. صافح جاك ثم جاء إليّ.

وقف أمامي لبضع دقائق.. لم نتكلّم. صارعت للتحكم في عواطفي. قبّلني بشير على خدّي وهمس في أذني. «سأراك مجدداً، قريباً»، ثم مشى إلى سيارته، استدار، ولوّح لي ثم انطلق. ركبنا سيارة الكاديلاك وتوجهنا إلى إسرائيل كان جاك يتحدث عن بشير بإسراف. حتى أنه قارنه بجون كينيدي. بقيت أفكر أنه عليّ أن أكون سعيدة.
عندما مررنا ببعبدا وأصبحنا على الطريق الساحلي سمعت ضربة عالية، وتقريباً في اللحظة نفسها تمايلت السيارة على جنب واحد وانزلقت عبر الطريق. «قنّاص». صرخ الضابط الإسرائيلي، وأمسك أحدهم برأسي وضغط عليه إلى الأسفل. شعرت بالسيارة تستقيم وتستجمع قوتها ثم تنطلق.

«حسناً الآن» قال الإسرائيلي بعد بضع دقائق. رفعت رأسي

ونظرت حولي. كان وجه جاك أبيض كالأموات، وأمّا دال فكان يمسك معدته. خدر جسمي كله ولكن صوتي كان هادئاً للغاية عندما سألت: «ما كان هذا»؟

ـ «صاروخ» أجاب الإسرائيلي. وهزّ كتفيه بعفوية. «ما يزال هناك بعض الإرهابيين».

من الغرابة أنني شعرت بتحسّن. ما حصل الآن أعطى شكلاً للهواجس التي كانت تسيطر علي منذ الليلة الماضية. الخطر كما بدا لي، جاء وذهب.

في إسرائيل التقينا برئيس الوزراء مناحيم بيغن الذي رحب بنا بشدة. «جاك اندرسون» قال «أنت مشهور! وأنا رديء السمعة». ثم انطلق في تحليلات توراتية لمطالبة إسرائيل بالضفة الغربية، التي كان يدعوها بـ «يهودا والسامرة».

بعد ذلك، غادرنا مباشرة إلى واشنطن لتحرير القصة. كان هذا برنامجنا الأول، وأذيع في ١٦آب/ أغسطس عام ١٩٨٢.

بعد أسبوع، في ٢٣ آب/ أغسطس انتخب بشير رئيساً للبنان.

انتقل مجلس النواب ولأسباب أمنية إلى مركز للجيش تحميه القوات الإسرائيلية.

ديموقراطية على الطريقة اللبنانية. مع أنه لم يكن انقلاباً، لأن بشير كان يعارض فكرة الاستيلاء على السلطة السياسية بالقوة العسكرية، كما أنها لم تكن انتخابات متحررة كليّاً من الإكراه والتهديد. لشيء واحد: كان بشير المرشح الوحيد، ولشيء آخر كانت العملية الانتخابية منوطة بهيئة المخابرات عند بشير ولعب إيلي حبيقة دوراً كبيراً ليضمن النتيجة الملائمة.

رئاسة بشير للمسيحيين خلال سنوات حرب الأحزاب جعلت له أعداء كثيرين بين المسلمين اللبنانيين. ووجه القادة المسلمون دعوة

لمقاطعة الانتخابات. ولو أن هذه الدعوة أخذت بعين الاعتبار بشكل جماعي لكانت المقاطعة حالت دون حضور النواب للجلسة وبهذا لم يكن لينتخب بشير.

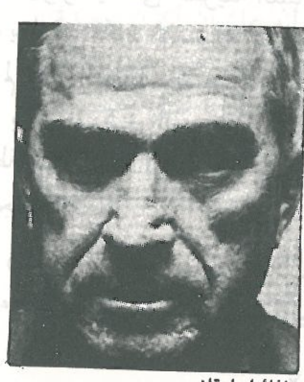
لكن بشير أمضى شهوراً يتكلم مع نواب محاولاً إقناعهم أنه كرئيس، سيسعى إلى تغيير البلاد لمصلحة كل اللبنانيين، وليس فقط الموارنة. تعب من الحرب، والاحتلال، وانعدام الوحدة. كان عدد من النواب المسلمين يرغبون في تحدّي المقاطعة. في رسالة لـ U.P.I عن الانتخابات قالت: «كانت مميزة للغاية، إن الشيعة وبعض السنّة صوتوا للجميل على الرغم من معارضة رجال الدين من المجموعتين المسلمتين».

كان من غير المجدي أن أقول لبشير على الهاتف كيف كنت أشعر. لذلك أرسلت له رسالة مع شخص. وفيها كتبت شيئاً قاله تشرشل عام ١٩٤١ للمتخرجين الشباب من كليته الأم، مدرسة الهارو، خلال هجمات ألمانيا على انكلترا قال تشرشل لهؤلاء الشبّان: لا تستسلموا أبداً، لا تستسلموا أبداً، أبداً، أبداً، أبداً، في أي شيء، عظيماً كان أم تافهاً، صغيراً أم كبيراً لا تستسلموا... إلاّ لقناعات الشرف والحسّ السليم».

كنت أعلم أن بشير سيحب هذه العبارة، تصورته يقرأ بسرور. انتظرت الردّ. لكنه لم يأت أبداً.



مناحيم بيغن



رافائيل ايتان

- ١٥ -

من سدة الرئاسة إلى... تحت الأنقاض

في صباح ١٤ أيلول/ سبتمبر عام ١٩٨٢ خطب بشير الجميل الرئيس المنتخب للبنان في دير الصليب، خارج بيروت حيث كانت أخته أرزة راهبة.

كان الدير عبارة عن مبنى حجري رائع فوق جبل مطل على البحر ويحمل ذكريات حلوة ومرة لبشير.

كان يجلب مايا إلى هذا الدير في نهاية الأسبوع، كانت الطفلة مأخوذة بحوض الأسماك الملون الذي كان موضوعاً في المدخل.

تكلم بشير إلى الراهبات وبعض الحاضرين قائلاً: «علينا أن نتذكر دائماً أن لا أحد سيقوم بما سنقوم به لأنفسنا. هذا الانتخاب، ورئاستي هما بداية الطريق، وقد حصل لأننا هيأنا أنفسنا له، لم يجعلني الأميركيون رئيساً، ولكنهم ساعدوا في تحقيق ذلك، طبعاً خلقوا الأوضاع التي جعلت هذا يحصل، ولكن لو تراجعنا ولم نكن صلبين كشعب، لم يكن كل هذا قد تحقق».

كانت هذه آخر خطبة من سلسلة الخطابات التي ألقاها، ومرة تلو المرة كان يحث الناس على أن «يضعوا جانباً الروابط الطائفية لمساندة السلطة الشرعية المركزية»، وقد أعلن مراراً أنه لن يمثل حزباً واحداً أو طائفة واحدة، بل كل لبنان، «على شعب لبنان أن يوافق»، كتب في مقاله: «بأن لا مكان للقوة في الخلافات التي تحصل داخل البلاد».

انتخاب بشير أمدّ البلاد بالأمل، حتى الأعداء بدأوا يؤمنون بكلامه عن الوحدة وعن إنهاء الفساد والولاء الحزبي الذي كان أكثر من مجرد حملة بيانية.

ترأس صائب سلام، رئيس وزراء لبنان سابقاً، المقاطعة الانتخابية، وقد قام سلام بزيارة لبشير بعد الانتخابات التي فاز فيها بتأييد مميز من عدد من المسلمين الشيعة والسنة.

في اجتماعهما الأول ارتدى سلام، الرجل الرسمي جداً، قميصاً خفيفاً، بينما ارتدى بشير بدلة وربطة عنق. عندما دخل سلام مكتب بشير، نظر إلى الرجل الشاب وقال: «شيخ بشير، أنت لا تنفك أبداً عن إرباكنا».

ثم انطلق سلام في خطبة لاذعة، مطالباً بأن يحترم الرئيس الجديد، الاتفاقيات غير المكتوبة التي قسّمت حكم لبنان إلى قطاعات متفرقة، فهناك بعض المناصب محفوظة بشكل تقليدي للمسلمين السنّة، ومناصب أخرى للشيعة، وهناك مناصب أيضاً للمسيحيين، طالب سلام بتأكيدات، على الرغم من ادعائه أن بشير سيلتزم بهذه القوانين غير المكتوبة.

استمع بشير بأناة وصبر مهذب، بعيد كل البعد عن شخصيته، لم يقاطع انتظر حتى أنهى سلام كلامه. ثم قال بهدوء: «سأتبع القوانين المكتوبة في الرسالة، وسأرتبط كلياً بالدستور، ولكن ضمن الإطار سأفعل ما أراه مناسباً، ولن أُلزِم نفسي بأية اتفاقيات، أنت حر أن تعارضني، سأرحب بتأييدك، ولكن بالمقابل أؤيد حقك في معارضتي، ولكن ما لن أفعله هو التسوية». وفقا لما قاله المساعدون، فإن سلام خرج متأثراً ببشير، وأخذ يتهيأ للعمل معه.

كان بشير يشجب بعنف موظفي الحكومة الذين كانوا يضعون في جيوبهم شيكات الحكومة الدسمة وهم يغشون الشعب بخدمات يأخذون رشاوى لتأمينها. في الثامنة صباحاً بعد يوم واحد من

الانتخاب، كانت المكاتب الحكومية مكتظة بالموظفين المتمرسين الذين لم يكن لديهم مناضد، ولا يعلمون أين مكاتبهم، ولم يسبق لهم أن التقوا بزملائهم في العمل. وظلوا يأتون إلى العمل بإخلاص حتى موت بشير، ثم توقفوا.

بعد فوزه باشر بشير بسلسلة من الخطابات التي، لأنها جاءت بعد وليس قبل الانتخاب، أثارت البلاد. مرة تلو الأخرى قال إن عهداً جديداً قد بدأ في لبنان، وقال للشعب إن مصيرهم أصبح في أيديهم مرة ثانية.

بيار يزبك الذي سمع الكثير من هذه الخطابات قال لي آجلاً إن الأمر بدا وكأن بشير قد بلغ درجة لم تعد معها كلماته مجرد مفردات إنما وقائع. قال إن الاستماع إلى بشير في الفترة التي تلت انتخابه كان كالرؤية التي تتحقق أمام عينيك: لحظة تحقيق وبداية، وهذا التوكيد تردد صداه مرات عديدة من أناس كانوا في لبنان خلال حكم بشير الذي دام ٢١ يوماً.

بينما كان بشير يتكلم من دير أخته، كان رجل لبناني له من العمر ٢٦ سنة ويدعى «حبيب طنوس الشرتوني» يقوم بتفحص قنبلة ضخمة - ٤٥٠ باوند من الـ T.N.T - كان قد وضعها في الطابق الثاني، في أعلى الصالة المركزية للاجتماعات مباشرة، في مركز حزب الكتائب في الأشرفية، والقنبلة هي اختراع ياباني متطور، مهيّأة للانفجار من مسافة تبعد عدة أميال، وفقا لمصادر المخابرات اللبنانية. فقد تمّ التزوّد بهذا الاختراع من أو عبر بلغاريا التي كانت تتصرف لمصلحة السوفيات في هذه الأمور.

الشرتوني، المسيحي، لم يواجه أية صعوبة في الدخول إلى المبنى ولهذا، دون شك، تمّ اختياره.

كان الشرتوني يسكن في شقة في الطابق الأعلى من مركز الحزب، وما يزال أفراد عائلته يعيشون هناك. كان للعائلة صلات بآل الجميل،

فعمه الحارس الخاص لبيار الجميل، وأخته صديقة لأحد مساعدي بشير، كان حراس الكتائب وأعضاء الحزب معتادين على رؤيته في المركز. ومع ذلك، حمل في جيبه بطاقة مرور موقعة من إيلي حبيقة، مسؤول الأمن في «القوات اللبنانية».

بعد خطابه، ودّع بشير أخته أرزة المفضلة لديه بحرارة وغادر متوجهاً إلى مركز الكتائب في الأشرفية. على الرغم من نصائح أصدقائه الذين ألحّوا عليه، لأسباب أمنية بالابتعاد عن روتينه، أصرّ بشير على حضور اجتماع يوم الثلاثاء الدائم للحزب، ستكون هذه آخر مرة، لأنه، كرئيس لبنان المنتخب، كان بشير على وشك الاستقالة من منصبه الحزبي، ما كان ليضحي بهذه الفرصة لإعطاء الشكر والامتنان الشخصي للفرع الذي انطلق منه في عمله السياسي قبل عشر سنوات. كانت إجراءات الأمن عادية جداً ذلك اليوم في مركز الحزب. لم يكن هناك أي حاجة للتفتيش الجسدي أو فحص الهويات بما أن أعضاء الحزب هم المدعوون فقط.

وصلت سيارة بشير أمام مركز الكتائب في الأشرفية. كان قد تأخر عن الاجتماع ما يفوق ساعة من الوقت، والأعضاء كانوا بانتظاره لبدء الاجتماع. وبينما كان بشير يدخل إلى المبنى ويصافح أصدقاءه القدامى ويتقبل تهانيهم كان يوجد شخص يراقبه من النافذة في الأعلى. وعندما دخل صالة الاجتماعات المكتظة بحوالي ٤٠٠ عضو من الحزب، تسلل حبيب طنوس الشرتوني خارج المبنى وتوجّه بسيارته إلى منطقة في بيروت الشرقية تسمى الناصرة، تبعد أقل من ميل عن الأشرفية.

وفي الساعة الرابعة، بدأ بشير يتكلم، وفي الساعة الرابعة وعشر دقائق ضغط حبيب على الأزرار.

ترددت أصداء الانفجار في كل أنحاء بيروت. ارتفعت العمارة ذات الثلاث طبقات في الأشرفية في الهواء ثم انهارت ركاماً.

وانتشر الخبر في لبنان، والعالم، بأن ثمة محاولة لاغتيال بشير الجميل

لكنها فشلت. كانت القصة الصحيحة غامضة، مع ذلك لم يكن أحد يعلم أين كان بشير. قال البعض أنه أصيب بجروح في ساقه اليسرى ونقل إلى المستشفى والبعض الآخر قال إنه خرج من الانفجار سليماً. ولكن ما من أحد قد شك في نجاته مرة أخرى. وعلى الرغم من أن الخسارة كانت فادحة فقد قتل حوالى ٢٦ شخصاً وأكثر من مئة أصيبوا بجراح، إلّا أن الارتياح كان أعظم. دقت أجراس الكنائس محتفلة، وأطلقت القوات اللبنانية الرصاص في الهواء. وأذاعت محطة «صوت لبنان» أن «اليوم هو بعث لبنان!».

ولكن ما من أحد عرف أين كان بشير وما من أحد عثر عليه.

وبعد عدة ساعات توقفت إذاعة صوت لبنان عن البث أما محطة الحكومة فلم تعلن عن شيء ولكن ظلّت تبث موسيقى الحزن. ثم جاءت فترة شكّ مفزعة. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، قرأ رئيس الوزراء اللبناني، شفيق الوزان بياناً: «بشير الجميل» قال بصوت مكسور، «قد قتل». إذاً هذا كان سبب الريبة الطويلة. استخرج جسد بشير باكراً، في أول مرحلة من محاولات الإنقاذ، وجهه كان مهشماً للغاية ولهذا لم يتعرف عليه أحد. أخذت جثته مع جثث الآخرين إلى برّاد الجثث في المستشفى، حيث تمّ التعرّف عليها بعد ساعات بواسطة خاتمه ورسالة راهبة في جيبه. لم يذكر حبيب الشرتوني في هذه القصة، ولن يذكر بعد الآن لأنه لا شيء. كان اليد وليس العقل، التي نفذت العملية. بينما كان الشرتوني يعد ويفجر القنبلة، كان رفيقه المراقب «نبيل علم» ينتظر في مكان ما في بيروت الغربية. كان كل من علم والشرتوني ينتميان إلى الطائفة المسيحية اللبنانية، لكن ولاءهما كان لجهة أخرى. لم يكن المقصود أن يتم القبض على الشرتوني ولم يكن ليعتقل لو أنه لم ينس شيئاً مهماً، لم يكن رجلاً ذكياً، على الرغم من أنه وصف بشير بالخائن في مؤتمر صحافي بعد اعتقاله، بسبب صداقته لاسرائيل إلّا أنه التزم بالقول ـ وما يزال حتى اليوم ـ إنه لم يكن يقصد إيذاء أحد، وبأن القنبلة وضعت فقط لإخافة بشير وتلقينه درساً.

والشيء الوحيد الذي نسيه الشرتوني هو أن أخته كانت في العمارة. تذكّر في اللحظة الأخيرة، عندما كان يهم بضغط الزر. اتصل بها وقال لها أن تترك كل شيء وتغادر العمارة على الفور. فركضت أخته إلى الشارع وهي تصرخ بشكل هستيري وكأن مكروهاً سيحصل. بعد لحظات، انفجرت العمارة، فأخذت للاستجواب على الفور.

□ «كيف عرفت أنه سيحصل مكروه؟».

ـ «أخي قال لي».

□ «أين أخوك»؟

ـ «لا أعلم أين هو الآن، ولكنه قال لي أن ألقاه في...».

فتم القبض على الشرتوني على الفور. . واعترف بعد ذلك، في مؤتمر صحافي، وعندما حاول الشرتوني لوم بشير بالقول أنه باع نفسه لإسرائيل وثبت صحافية صارخة: «أنت لم تقتل رجلاً، أنت قتلت بلداً». وتحت إصرار الحكومة اللبنانية سلّمت القوات اللبنانية الشرتوني إلى الدولة. ولكن لم تتم محاكمته قط، على الرغم من أن أمين الجميل شقيق بشير الأكبر، خلف أخاه في رئاسة لبنان.

لا أحد يعرف السبب إلاّ أمين، ولم يفصح عنه أبداً. وتقول معظم المصادر أن أمين لم يجلب الشرتوني إلى المحاكمة لأنه لم يكن يريد تعزيز منزلة بشير كشهيد. وقيل إنه لو كان باستطاعته، لكان أمين محا كل ذكرى وأثر لأخيه الأصغر.

كما حصل في لبنان، تلقيت الأخبار المزيّفة في البدء. في ظهيرة يوم ١٤ أيلول / سبتمبر تلقيت اتصالاً في مكتبي من ميشال ليدين المساعد الخاص للوزير الكسندر هيغ. كان ليدين على علم بصداقتي لبشير. قال: رأيت لتوي تقريراً إذاعياً «رمى أحدهم بشير بالرصاص، إنه بخير ـ أصيب بخدوش فقط، ولكنه نقل إلى المستشفى. قالوا إنه يتجوّل في الشوارع ويمازح الناس».

لقد نجا مرة أخرى، فبشير روحه بسبعة أرواح كالقطط كما يقولون وهذا من حسن حظه. كنت قد تأخرت على موعد مع السيناتور «جون غلين» في الكابيتول هيل، لذلك قررت الاتصال بمكتب بشير في بيروت لاكتشاف ما حصل.

غادرت إلى الهيل مع صحافيين من العاملين في «جاك اندرسون كونفيدنشيال». كان موضوع تقريرنا هو الإجراءات الوقائية النووية. وغلين كان رئيس لجنة عدم الانتشار النووي لمجلس الشيوخ ومستعد للمساعدة. خرجنا من مكتبه بعد ساعات قليلة ونحن نشعر بذلك الشعور الرفيع الذي ينتج عن مقابلة جيدة، وفي طريقنا توقفنا في الـ (مونوكل) وهو مطعم رفيع المستوى لشرب كأس الاحتفال.

ثم عدنا إلى المكتب في «بيتيسيدا» بماريلاند.

وما إن دخلنا إلى المكتب حوالى الساعة الثامنة مساء حتى نادى شخص من مكتبي:

□ نيومان تعالي إلى هنا بسرعة!

ـ كان الشخص ألكس شفتل وهو رجل أعمال، وكان يقف وراء منضدتي، والهاتف بيده. أذكر أنني شعرت بالاستياء قليلاً لرؤيته هناك.

□ «ماذا حصل؟». سألته، «ماذا في الأمر؟».

ـ «مات الجميل»، قال.

استدرت وغادرت والذهول يرتسم على وجهي. مررت بالصحافيين وخرجت من الباب الخارجي. وصلت حتى الشارع، ثمّ انهارت قواي.

ـ ١٦ ـ

مجازر صبرا وشاتيلا

بات ما يعنيه موت بشير للبنان واضحاً بعد يومين من مقتله، عندما دخلت «القوات اللبنانية» تحت الحماية الإسرائيلية، إلى مخيمي صبرا وشاتيلا «لتنظيفهما» من المقاتلين الفلسطينيين. كان بشير يرفض بإصرار أن يفعل ذلك عندما كان على قيد الحياة، ولكن الآن وقد أصبح الجنود غير مقيدين وأيضاً مذهولين من موت بشير فقد قاموا بمجزرة رهيبة حتى بالنسبة للمقاييس اللبنانية. وقدّر عدد القتلى ما بين ٣٠٠ و١٢٠٠ ومعظمهم من المدنيين، من النساء والأطفال. ومدير العملية كان إيلي حبيقة، الذي عيّنه بشير كمسؤول الأمن بعد موت مايا وهو الذي أسميته Bashir's Iago.

في كتابهما الحرب الإسرائيلية ـ اللبنانية وصف الصحافيان الإسرائيليان زئيف شيف ويهود ياري بالتفصيل دور حبيقة في المجزرتين. وكتبا عن حَدَث حيث دعاه أحد رجاله على الراديو ليسأله ماذا يفعل بمجموعة من الأطفال وخمسين امرأة، وردّ حبيقة عليه قائلاً: «هذه آخر مرة تسألني فيها هذا السؤال. أنت تعلم ما يجب أن تفعل».

ويصف الكتاب أيضاً أشخاصاً قتلوا بواسطة قنابل يدوية رُبطت حول أعناقهم، ويتحدث عن حالات اغتصاب، وتقطيع أوصال، وتشويه. وضعت بعض النساء الفلسطينيات في شاحنة وتمّ اقتيادهن إلى بيروت الشرقية وراح الجنود ينادون على كل واحد لينظر إلى الأرامل الجدد اللواتي جعلوهن كذلك.

كان هذا نقشٌ على ضريح بشير، وهكذا خانوه. تحوّل كل شيء قام به إلى غبار. لقد سعى للقضاء على العنف وجلب السلام إلى بلده المحطم، والآن كان هو ضحية العنف، والعالم كان مشمئزاً من وحشية اللبنانيين المسيحيين.

كان من المتوقع أن تقوم قوات حبيقة بمجزرة أخرى، وإسرائيل أيضاً أصبحت هدفاً للانتقاد العنيف من الداخل والخارج. وهذه الحادثة ستغير كلياً من ارتباطات إسرائيل المتجادل عليها، في لبنان. وهذه المجازر ستكون عاملاً إضافياً في قرار إدارة ريغان لنشر المارينز في بيروت. قرار قد يثبت أنه مهلك لمئات الجنود الأميركيين وضار جداً لصورة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

لم يكن الذي جرى في مخيمات اللاجئين ردة فعل شاذة للألم الذي سببه موت بشير، ولكنه إنذار بقرب حدوث شيء ما. لقد تحقق كل شيء تكلم عنه بشير. استمرت لعبة زعزعة الاستقرار: فئة ضد أخرى وبات أمر ممارسة السلطة من قبل الحكومة اللبنانية مستحيلاً. الجيش اللبناني ضعيف. والبلاد تقسمت ثانية إلى أحزاب متحاربة. لبنان ما يزال وكر معظم المجموعات الإرهابية. ومعظمهم يتمركزون في وادي البقاع.

إن تفجر الأزمة اللبنانية مجدداً بعد موت بشير هو مقياس للقوة التي جعلت لبنان متماسكاً. من خلال فسحة الأمل الضيقة ـ الأسابيع الثلاثة بين انتخاب بشير واغتياله ـ كان للبنان مستقبل مختلف تماماً: التحرّر من التسلط واحتلال الإرهابيين، والمسلمون اللبنانيون والمسيحيون يعملون معاً لشفاء جروح الحرب الأهلية، وسلام مع جارة لبنان الجنوبي ـ إسرائيل ـ كان كل هذا، ممكناً. لكنه انفجر وتلاشى مع انفجار ذلك المبنى في الأشرفية. لقد رحل نهائياً بلا رجعة وعاد لبنان إلى الفوضى ويأس تلك السنوات قبل أن يوحد بشير المسيحيين وباختصار، البلاد كلها. بدأت الدورة من جديد، واللاعبون الآن أصبحوا أصعب

وليس هناك أي أمل في الأفق، ليس هناك أي بشير.

معنى موت بشير بالنسبة لي أخذ وقتاً أطول لأجعله محسوساً، لأنني أنكرته لوقت طويل. آه، طبعاً كنت أعلم أنه مات، لا عليكم. لم أمرّ بالهاتف مرة دون أن أدرك بأنه لن يرن بعد الآن باتصال من بشير. كانت ركبتاي تصطكان ،ويضيق تنفسي وكأنني رُكلت في أحشائي. لكني رحت أقنع نفسي أنه إذا نجحت ثورته، واستمر لبنان في الطريق الذي رسمه، عندئذ سيستمر بشير في العيش.

أغرقت نفسي في أشياء لبنانية، أي حياة اجتماعية جعلتها تدور في دائرة صغيرة من الأصدقاء اللبنانيين. كنا نرى بعضنا البعض مراراً ونأكل معاً، كنا كالأموات المتجولين، وصحبة أشخاص مثلنا كانت مريحة. تتكلم «بيني» عن ذلك الوقت التي شعرت فيه أنها لبنانية أكثر منها أميركية.

ولكن مع مرور الشهور الأولى الصعبة وامتداد الوقت إلى سنة، بدأت أراقب الأحداث بعيون واضحة أكثر. كان انتخاب أمين ردة فعل مريعة. فعلى الرغم من الولاء الكلامي الكاذب لأخيه المستشهد، تصرف أمين على طريقته، طريقة السياسيين التقليدية في الشرق الأوسط. كان أمين مؤمناً بالتسوية والخداع يلعب على حبلين وبكل شيء كان يكرهه بشير. كان واضحاً خلال سنة من انتخابه أن أمين فقد السيطرة على البلاد.

رأيت أصدقاء بشير المقرّبين يسقطون، وينحازون إلى هذه القوة أو تلك، ويبيعون أنفسهم، أو يهاجرون إلى الغرب متخلين عن الحلم بلبنان مستقل بسيادته مختارين حياة الراحة والمال، المقيّدة.

في الأيام التي تلت موت بشير لم أستطع تحمّل رؤية الميدالية التي كنت أنوي أن أهديه إياها. أعطيتها لألفرد ماضي، قائلة إن قرار الاستمرار في كفاح بشير من أجل الحرية، يرجع إليه. شكرني ألفرد وعيناه تدمعان، ولكن علمت آجلاً أنه ثمّن القطعة.

عندما فهمت أن أصدقاء بشير انقلبوا ضده وأن لبنان نسيه، أصبت بالمرارة. قطعت صلاتي بالبلد ورميت نفسي في عملي في محاولة لنسيان الماضي. عشرون مرة في اليوم أقول لنفسي: «عليك أن تستمري في حياتك». جرّبت كل أشكال العيش، لكني لم أستطع نسيان بشير، ولا التخلّص من ذلك الإحساس الملّح لواجب لم يتم.

كجرح يتقيح، ازداد ألمي لموت بشير مع مرور الوقت. خيّل إليّ أن السبب هو لأنني لم أقل له وداعاً أبداً. بعد يومين من اغتياله، حضرت مراسم الدفن في كاتدرائية القديس ماثيو في واشنطن، حيث جلست أمام المقصورة مع جيرالدو، أبكي بأسى، ولكن حتى هكذا، لم أقل وداعاً لبشير كما يجب.

في صيف عام ١٩٨٣، بعد سنة تقريباً من موت بشير، بلغت بيني عامها الثالث عشر وقررنا أن تكون هديتنا رحلة إلى إسرائيل ولبنان. سنزور قبر بشير مرات عديدة قمنا بحجوزات لنلغيها في اللحظة الأخيرة بسبب القصف في بيروت، القذائف المدفعية تنهال على المسيحيين في بيروت الشرقية. أخيراً، هدأ القتال فطرنا أنا وبيني إلى بيروت.

حاربت اليأس عندما حطت الطائرة وأدركت أن بشير لن يكون هناك، وأنه لن يتصل بي بعد خمس دقائق من وصولي كما كان يفعل، ولن نقع في أحضان بعضنا البعض، من أجل بيني أخفيت مشاعري وصحبتها إلى الجمارك. ولكن هنا، أيضاً كان هناك من يذكرني ببشير. تعرّف عليّ أحد الحمّالين وكان مسيحياً وأخذ أوراق حقائبنا ليجلبها لنا.

لم يكن هناك أي جنود بانتظارنا هذه المرة، كنا نمكث مع حماة «شربل خوري» الذي حلّ محل ألفرد كرئيس مكتب القوات اللبنانية في واشنطن. «آديل خشان»، امرأة شقراء صغيرة الحجم وجميلة، كانت بانتظارنا خارج المطار. أخذتنا إلى شقتها الصغيرة في الأشرفية، وكانت تبعد قليلاً عن بيت بشير. كان الطقس حاراً ورطباً. اعتذرت مضيفتنا

عن عدم وجود تكييف في شقتها، تعطّل التيار الكهربائي من جراء القصف ولا يعلم أحد، قالت باستسلام، متى سيعاد تصليحه.

بعد فترة قصيرة من وصولنا، سمعنا أصوات خفيفة من القصف المدفعي. لم يكن القصف قريباً منا، ومع ذلك جلست السيدة خشان على الأريكة وبكت.

«أنا آسفة» قالت عندما استعادت قواها قليلاً، وخفضت صوتها لئلا تسمع بيني. «لقد فقدت صديقتين في هذا القصف، ولا أدري، عندما أغادر إلى العمل في الصباح، إذا كنت سأعود أم لا». في الواقع أن القصف كان متقطعاً وجعل الأمر أكثر صعوبة، راحت تشرح، لأن لا أحد يعرف متى يبدأ أو أين سيقع.

□ «ولكن ماذا عن القوات اللبنانية» سألت «لما لا يفعلون شيئاً»؟.

ـ هزّت السيدة خشان رأسها بحزن.

ـ «غبت مدة طويلة يا باربرا، لم يعد للقوات اللبنانية القوة ذاتها. جعلهم الشيخ بيار يحولون حزينتهم إلى الدولة إلى أمين، ولكنه لا يفعل شيئاً لمساعدتنا».

أحسست بمرارة شديدة في داخلي، الآن أستطيع أن أرى أن كل شيء أنجزه بشير تدمّر وأن عمله الشاق وجهده اللامحدود وموت مايا وكل الضحايا الأبرياء كان بلا جدوى.

زرنا مركز القوات اللبنانية، واستقبلنا بحرارة فادي فرام وهو صديق مقرّب مني ومن بشير وأصبح الآن قائد القوات اللبنانية. كان مكتبه في مبنى غير مبنى بشير الذي تحوّل إلى شبه مزار. لم أستطع تحمّل النظر إليه. وجدت في المركز تغييرات كثيرة، ولكن لم تكن إلى الأفضل. عندما كان بشير حياً، كان المركز يدار بترتيب وكان مليئاً بالحيوية. رأيت الآن علامات الإهمال والفوضى، شيء ما كان لبشير أن يتحمّله.

كانت الشوارع مليئة بالملصقات الكبيرة الحجم لبشير، وكانت تذاع أغنيات له باستمرار على الراديو، وكل منزل أدخله كان يحتوي على صورة له. لكنٍ على الرغم من هذه التبعية الشبيهة بالعبادة، رأيت أن شذى بشير قد نُسي، كانت صورته مبجّلة، ولكن قضيته أهملت كلياً.

في اليوم التالي قادتنا صديقة لألفرد ماضي تدعى سامية تونتجي إلى قبر بشير قرب منزل آل الجميل في بكفيا. كانت هناك مقاعد أمام الضريح ولكن لم يكن يشغلها أحد. باقات زهور كثيرة كانت تزين القبر الحجري.

ركعت ووضعت رأسي على الحجر البارد. تراءى وجه بشير أمامي بوضوح. وتفجّرت دموع حبيسة. غطيت وجهي. وضغطت بيني على يدي «دعيني» قلت لها، «دعيني وحدي معه»، قبلتني ومشت بعيداً.

«قلت لك سوف أعود» لم أجد نبرة صوتي، ولكن الأمر أصبح خارج سيطرتي، ضربت الحجر الصلب بيدي: «ألم تستطع الانتظار؟»».

«أكان عليك أن تُقتل يا بشير؟ ليس لديك أي حق» بكيت. «أنظر الآن ماذا حصل».

كانت العصافير تزقزق على الأشجار حول السرداب. والجو يعبق برائحة الياسمين والورد الطيبة، ورائحة الزهور البرية على الجبل. وببطء خفت دموعي، ومعها غضبي.

«كنت تعلم أنني آتية، أليس كذلك»؟ قلت. وسمعت صوته في عقلي يقول:

«باربرا، ستحكين قصتنا».

اتفقنا على هذا أنا وبشير، وموته لم ينه هذا الاتفاق. الآن، فهمت سبب قلقي طوال السنة الماضية، ولماذا ازداد ألمي لموت بشير بدلاً من أن يُشفى.

عليّ أن أحكي قصته، ولكن على طريقتي. أنا محترفة، وفي عالمي القصص لها بدايات، ونهايات، ونهاية بشير كانت ما تزال غامضة. آه أجل، قبضوا على الرجل الذي قام بالضربة ـ الشرتوني ولكنه لم يكن شيئاً. من كان يشغله؟ من قتل بشير فعلاً؟

تذكرت بماذا صرخت الصحافية اللبنانية في وجه حبيب الشرتوني: «أنت لم تقتل رجلاً. أنت قتلت بلداً كاملاً». هذا كان صحيحاً. كان لبنان على حافة التحرير ثم سقط. بقيت الذكرى فقط، وقريباً حتى هذه ستذوي.

فجأة سمعت أصوات القذائف المدفعية، وبقعقعة حادة لكعبي حذائها فوق الحجر. جاءت سامية مسرعة نحوي: «اسرعي، وادخلي السيارة»، صرخت «القصف بدأ من فوق الجبل».

ركضنا عائدين إلى السيارة، جلست بيني في المقعد الخلفي. وانطلقت سامية كالبرق. وقعت قذيفة على الطريق خلفنا تماماً. وأخرى في حقل على يسارنا. «سفلة، سفلة» رددت سامية وهي تقود. وضعت ذراعي حول بيني، كنت خائفة عليها حتى أنني لم أفكر بنفسي.

□ «هل أنت خائفة؟» همست في أذنها.

ـ «كلا» قالت. «إذا مت، على الأقل سأموت معك».

«لن يموت أحد» قلت وضممتها بقوة إلى صدري طوال طريقنا إلى بيروت.



الرئيس شفيق الوزان في اجتماع مع بشير الجميل

ـ ١٧ ـ

مع إيلي حبيقة . . . ثانيةً

حاولت عدة مرات، مع مرور السنوات، أن أكتب عن بشير، لكني لم أستطع، كان لبنان موضوعاً محزناً جداً. والتعب والإرهاق كانا يمنعانني في كل مرة أبدأ بالكتابة. كانت تنقصني الطاقة، وربما الشجاعة، لأدع نفسي تتذكر.

حاولت نزع لبنان من فكري، والتحوّل إلى أشياء أخرى وحياة جديدة. وعندما أقفلت شركة «جاك اندرسون كونفيدنشيال» بعد مناقشات حادة بين المساهمين، بدأت بشركة خاصة بي للإخراج وتصوير الأفلام، والتحقيقات الوثائقية.

نجحت الشركة وبعد فترة أصبحت مشغولة جداً. ولكن ما برحت مهمتي غير المنجزة مع بشير تلح عليّ إلى حد المضايقة. كنت أريد من العالم أن يتذكره، وأردت أن أكون أهلاً للثقة التي وضعها فيّ، والأهم من هذا كله، كنت أريد إنجاز ما لم يستطع الآخرون القيام به وهو اكتشاف وإظهار قاتليه الحقيقيين.

كما قلت من قبل، قصة تجر الأخرى، عندما تجد المعلومات عن لبنان طريقها إلى بابي، كان من الطبيعي أن أتبع التقارير ذات الأهمية الإخبارية، ولكن أعتقد أيضاً أنه كان يمتلكني ذلك الإحساس بالعمل الناقص وهو الذي كان يشدني إلى المنطقة مرة تلو أخرى ولن أذهب دون اكتشاف كل المعلومات عن موت بشير.

سمعت ضمن المجموعة المسيحية اتهامات واتهامات مضادة، تعلّمت أن أحسب حساب المبالغة في المعلومات الآتية من هذه المصادر، التي كانت تحركها في كثير من الأحيان أحقاد شخصية. ولكن هناك تقريراً كان يصلني باستمرار من مصادر عديدة، بما فيها أشخاص من مستوى رفيع في المخابرات اللبنانية. وقيل لي أنه بالرغم من أن قاتل بشير. وموجّهه، كانا مسيحيين، إلا أنهما كانا عضوين في الحزب السوري القومي. حزب يؤمن بسوريا كبرى ويعارض وجود لبنان، وإسرائيل، والأردن، والعراق، وقبرص ـ وهو رأي يتعارض تماماً مع رأي بشير. وقيل أيضاً عن «الشرتوني وعَلَم»، إنهما عملا في المخابرات العسكرية السورية، لم يكن باستطاعتي التحقيق مباشرة مع المصادر السورية لأنه لم يكن لدي اتصالات مع المخابرات العسكرية السورية ولكن هذا لم يشكل لي أية صعوبة. واكتشفت أنه مع الصبر نصل إلى الأجوبة التي نريدها وكنت أملك ذلك النوع من الصبر.

في صيف عام ١٩٨٧، استلمت مهمة من الـ Central Television وهو جزء من الـ I.T.V في لندن، لإخراج فيلم وثائقي عن «حزب الله»، وهو منظمة تشمل الشيعة وهم أصوليون راديكاليون متطرفون ومناصرون لإيران، وكان «حزب الله» يحتجز معظم الرهائن الغربيين في لبنان. ولإنجاز مهمتي كنت أحتاج للدخول إلى مستعمرتهم أي وادي البقاع الذي كانت سوريا تسيطر عليه، وحيث كانت تمكث المجموعات المتوحشة في العالم كله، كخراف في جنة إرهابية. من هنا بدأ «الجهاد الإسلامي» ـ وهو فئة من «حزب الله» ـ الهجوم على مركز المارينز الأميركي والسفارة الأميركية والذي راح ضحيته أكثر من ٢٥٠ أميركياً وجرح مئات آخرون. دخل البقاع عدد قليل من الصحافيين، وخرج عدد أقل. للصحافي الغربي، وخاصة لي، كان هذا المكان الأكثر خطورة على الأرض.

البقاع واد طويل وعريض، يبلغ طوله ٤٥ ميلاً واتساعه ١٠

أميال، وتحده شمالاً مدينة بعلبك، وغرباً جبال لبنان، وشرقاً سوريا. ويشكل خُمس مساحة الأراضي اللبنانية.

إن خصوبة وادي البقاع وموقعه الاستراتيجي جعلا منه منطقة متنازعاً عليها عبر التاريخ. سكان وادي البقاع أناس مخلصون بشدة للقادة العسكريين المحليين، وكانوا يعرفون بحكم تجربة عمرها أجيال كيفية العيش مع القوى العسكرية.

وجود «حزب الله» في البقاع، بدأ عام ١٩٧٩ حين دخلت ألوف عديدة من الحرس الثوري الإيراني إلى لبنان، وشكّل هؤلاء الجنود خلية «حزب الله»، التي كانت مهمتها تصدير الثورة الإسلامية في العالم أجمع. على الرغم من أن سوريا الدولة الاشتراكية لا تؤيد فكرة حكومة دينية إلّا أنها سمحت للحرس الثوري بالدخول إلى لبنان وكان الهدف صد محاولة إسرائيل لخلق حزام أمني في جنوب لبنان.

وادي البقاع على مرمى حجر من العاصمة السورية، دمشق، وكان واضحاً للزعماء السوريين ـ الذين لا يسهل خداعهم ـ إنه إذا كان أحد يريد تربية ثوريين في داره، فالأفضل أن يبقيهم قيد الحجز، وهكذا فعلوا هم، فهناك أكثر من ثمانية عشر معسكراً للجيش السوري في البقاع، بما فيها وحدات من نخبة الكوماندوس السوري يعملون مع المخابرات السورية. لا يحصل هناك شيء لا يعلم السوريون به.

وبالرغم من كل ذلك فإن نجاح «حزب الله» في احتجاز الرهائن بدأ يثير السوريين. فالمجموعة التي يبلغ تعدادها ثلاثة آلاف رجل، بدأت بالتصرف باستقلالية عن سوريا. لم تكن الأعمال الإرهابية لـ «حزب الله» تضايق سوريا إنما ما كان يضايقها هو عدم التنسيق معها في هذه الأعمال. لكنهم، مع ذلك، فضّلوا ـ وما يزالون يفضلون ـ عدم اتخاذ أي إجراء عسكري كبير ضد «حزب الله». تصرّف كهذا، قد يؤدي إلى خسائر سورية كبيرة، وتجلب سوريا لنفسها بذلك خطراً هي بغنى عنه، بالإضافة إلى تهديد الصداقة السورية ـ الإيرانية. وكان

لسوريا سبب آخر لقصّ أجنحة «حزب الله»، ففي العام ١٩٨٧، بدأت سوريا التخفيف من اعتمادها على الاتحاد السوفياتي، ولكي تطرح صورة الخارج عن القانون الذي يصوّره الغرب عنها كانت سوريا تستخدم نفوذها مع «حزب الله» وإيران لتلعب دور الوسيط في تحرير بعض الرهائن.

وبدا لي أنه في ظل هذه الظروف قد تكون سوريا مسؤولة وأحتاج إليها للبرنامج الذي سأنفذه عن «حزب الله»، وكنت بحاجة لطلب ذلك منهم.

وفكرت بإيلي حبيقة.

وفي الواقع أنني كنت أفكر بإيلي حبيقة كثيراً في الآونة الأخيرة.

ورد اسمه كثيراً في الأحاديث التي تناولت موت بشير. فسنة قبل تنفيذ برنامج «حزب الله» في صيف ١٩٨٦، ذهبت إلى بيروت الشرقية لعمل بحث وثائقي لـ Home Box Office وهناك التقيت برجل يدعى «بيار رزق»، واسمه المستعار أكرم. كان أكرم عضواً في المكتب الداخلي لإيلي حبيقة وهو يخدم الآن كرئيس المخابرات لـ «القوات اللبنانية» تحت قيادة منافس إيلي، سمير جعجع. قال لي أكرم أن إيلي حبيقة يعمل لمصلحة سوريا وقد شارك في مؤامرة قتل بشير.

لم أتأثر في البدء، بشكل خاص. كان أكرم وحبيقة حلفاء والآن أصبح كل منهما يتوعّد الآخر. كان لدى أكرم أسباب كثيرة تدعوه لاختلاق الأكاذيب عن حبيقة، ولكن أي سبب معقول كان يدفع إيلي لقتل بشير، الذي عمل بجهد لكي يعينه رئيساً، الآن وقد وصلا إلى نقطة النجاح؟ لقد راهن إيلي على حصان رابح، وإن لم يكن بدافع الإخلاص، فليكمل السباق بدافع المصلحة الشخصية.

ذهبت مع أكرم إلى قصر ما زال قيد البناء كان عالياً ومشرفاً على البحر المتوسط، أرضيته من الرخام، والغرف كبيرة للغاية. كان مقراً يناسب سلطاناً عثمانياً. وقفت على الشرفة، أحدّق في البحر. في حديث

مختصر مع أكرم في مكتبه قال: «هذا هو المنزل الذي كان حبيقة يبنيه لنفسه ولعائلته، قبل أن يرحل بهذه السرعة، وفي الحقيقة، إيلي يتحدّر من عائلة فقيرة. لم يكن لديه المال قبل أن يرئس القوات اللبنانية. بنى هذا البيت عندما كان قائد القوات اللبنانية. فقاطعته: «ولكنني سمعت أن عَلَم والشرتوني عميلان للسوريين».

- «طبعاً». وبدا أكرم مندهشاً. «لمن تظنين أن إيلي كان يعمل؟».

□ حدّقت به. «لا أصدق هذا، أعلم أنه يعيش في سوريا الآن، ولكن هذا فقط لأن جعجع طرده من مكتبه. عندما كان بشير على قيد الحياة كان إيلي يعمل معه».

- كلا» أصرّ أكرم، «خدم إيلي السوريين في السر لسنوات».

لم أصدّق أكرم بشيء، قصة صبرا وشاتيلا كانت جاهزة. ولم أعلم عن أي سبب يدفع حبيقة إلى خيانة بشير. مع ذلك كنت كلما أفكّر بإيلي، تكثر الأسئلة عندي. حتى أن أعداءه قالوا إن حبيقة لم يكن فقط أحسن مسؤول أمن عمل عند بشير، ولكنه الأفضل في البلاد، مع ذلك سمح للشرتوني أن يعيش في الطابق الأعلى لعمارة كان يزورها بشير على الدوام. لم يكن هذا منسجماً. ولا حتى التقرير الذي قال، إنه عندما تمّ القبض على الشرتوني، كان يحمل في جيبه بطاقة مرور من حبيقة.

لم أستطع نسيان حديثي مع بشير عن حبيقة. «أنت تمسك النمر من ذيله»، قلت له. وكان رد بشير: «أفضل من أن أتركه طليقاً».

كان مساعدوه يحدثونني عن خناقات بشير مع إيلي، الذي كان يثور تحت قبضة بشير المحكمة. فإيلي يريد دائماً أن يدير عملياته باستقلالية دون أي تدخل، ليخبر بشير عنها بعد الانتهاء منها. وبشير كان يصر على المعرفة والموافقة على كل تفصيل سلفاً. وإيلي يريد أن يتدبر أمر ميزانيته، وبشير كان يطالب بالحسابات الصارمة في الاجتماعات الأسبوعية.

تساءلت: هل عضّ النمر بشير؟.

في ذلك الصيف الذي قضيته في لبنان جمعت معلومات عن حبيقة تكفي لإعطاء صورة واضحة عن نشاطاته بعد موت بشير.

بعد الإنفجار مباشرة هرع حزب الكتائب بكامله وقادة القوات اللبنانية إلى مكان الحادث للتفتيش عن بشير، باستثناء رجل واحد: إيلي حبيقة، ظهر مسؤول الأمن عند بشير في مكتبه فقط بعد أن ألقي القبض بالمصادفة على الشرتوني، ليأخذ إجراء شخصياً باستجواب السجين. كان من الغريب أيضاً أنه على الرغم من أن هوية موجّه الشرتوني ظهرت عقب الاستجواب، استطاع أن يهرب من بيروت إلى وادي البقاع حيث ما يزال حتى هذا اليوم تحت الحماية السورية.

خلف فادي افرام بشير، كقائد للقوات اللبنانية وبقي حبيقة مسؤول الأمن، وبعد عدة سنوات قام إيلي بانقلاب جعله قائد القوات.

وقد اتسم عهده بالإرهاب. واستغل منصبه لكسب المال. كانت جماعته تجبر مالك الأرض على بيعها حسب السعر الذي يقترحونه هم عليه. وكانوا يفرضون خوات من سكان منطقة بيروت الشرقية وكانوا يلجأوا إلى عمليات الخطف إذا قوبلوا بالرفض.

لو أن إيلي حبيقة اكتفى بالابتزاز والخطف لكان عهده قد طال كقائد للقوات اللبنانية، ولكن طموحه المفرط قاده إلى غلطة مهلكة وهي التورّط في السياسة.

عقب موت بشير بدأ الإسرائيليون يتراجعون عن تورطهم في لبنان ويرفضون العديد ممن حاولوا الحلول مكان بشير. حبيقة تحوّل إلى سوريا علناً فمن المفترض أن يتحمل النظام اللبناني الجديد المؤيد لسوريا بعض الآراء المناصرة لسوريا. ولكن حبيقة أسرف في تأييده لسوريا، فقد ضغط على الرئاسة اللبنانية لتوقيع الاتفاق الثلاثي الذي

تؤيده سوريا. فشلت محاولة السيطرة واتهم حبيقة بالخيانة، وبعد فترة قصيرة حلّ محله سمير جعجع، بانقلاب قام به وهو الذي نفّذ العملية الشهيرة ضد طوني فرنجية، (أكرم المؤتمن على أسرار حبيقة، في ذلك الوقت، أخذ المكان الرابح، وبقي بذلك مسؤول الأمن لسمير جعجع رئيس القوات اللبنانية الجديد).

بعد الانقلاب، هرب إيلي مع مجموعة من أربعمائة مقاتل، وبقي حبيقة في دمشق واتخذها كمنفى ـ أما رجاله فبقوا في البقاع حيث سمّوا أنفسهم «القوات اللبنانية الحقيقية».

قلت من قبل إن إيلي حبيقة هو رجل الولاء المتقلب ولكن أعتقد أن هذا ليس صحيحاً ـ لأنه رجل ذو ولاء غير مزعزع ـ لنفسه ـ على الرغم أنني وصلت إلى الإيمان بأنه قادر على تدبير الاغتيال معنوياً ومنطقياً، ولكن مصلحته الشخصية كانت تقضي بأن يرتبط ببشير، الذي كان لا يخذل الرجال الأوفياء.

قبل أن أغادر لبنان ذلك الصيف قال لي أكرم أن لديه إثباتاً على اشتراك حبيقة في حادثة القتل، والدليل على ذلك شرائط عن استجواب حبيقة للشرتوني. وافق على إرسال نسخ لي من هذه الشرائط ولكن على الرغم من إلحاحي فإن الشرائط لم تصلني أبداً. وهذا عزّز شكي أن أكرم إنما ينفخ في الدخان ليس إلّا، محاولاً أن يشوّه سمعة حبيقة.

على الرغم من أن الاتهامات ضد حبيقة لم تثبت، كنت أتوق للكلام إلى إيلي، وكنت أحتاج لغطاء شرعي لهذا اللقاء.

البرنامج عن حزب الله وفّر فرصة ممتازة لصيد عصفورين بحجر واحد. اتصلت بحبيقة في دمشق عبر وسيط. تذكرني ووافق على لقاء في باريس.

- ١٨ -

غيرة حبيقة من بشير

في مساء باريسي دافىء من شهر تموز/ يوليو، التقيت بإيلي حبيقة في ردهة فندق قرب أوبرا باريس. سبق لي ورأيته لمرة واحدة فقط منذ ست سنوات، لكني تعرّفت عليه على الفور.

اجتمعت من قبل برجال أمن كانوا يبدون خارج الخدمة رجالاً جذابين ومثقفين وأذكياء، يصعب على من لا يعلم حقيقتهم التكهن بماذا يعملون لتأمين عيشهم. إيلي، مع ذلك، كان يبدو وكأنه خلق لدور رئيس عصابة: وجه أسمر كئيب، وشعر أسود مقصوص على شكل خوذة، وعينان قلقتان وحذرتان وذكيتان ليس فيهما ذرّة رحمة.

أخذ حبيقة يتباهى خلال اجتماعنا، بصلته مع المخابرات السورية وكبار الضباط السوريين.

برنامج عن «حزب الله» كما قال لي، سيكون مقبولاً للغاية عند الحكومة السورية في هذا الوقت. ووعد أن يحصل لي على الإذن الضروري لدخول سهل البقاع، للحصول على المعلومات الاستخباراتية، ومقابلة عملاء سابقين في «حزب الله» للتحدث عن خطط المجموعة.

وشعوري كان يزداد بأنني كالحشرة التي دُعيت إلى بيت العقرب كلما ازدادت مجاملة حبيقة لي.

□ «ماذا عن صلتي ببشير؟؟» قلت: «ألا يعلم السوريون بذلك؟».

- هزّ حبيقة كتفيه وقال: «بشير مات، لا أحد يهتم بعد الآن، دعي هذا لي».

وبعد أسابيع، جاءني الرد بأن السوريين أعطوا الضوء الأخضر للمشروع. وحبيقة سيكون مرشدي في البقاع لكن العقبة الوحيدة هي أن إيلي لا يستطيع دخول بيروت بأمان. لهذا كان علينا أن نلتقي في دمشق.

وزنت اقتراح حبيقة بحذر.

كان في جهة من الميزان حقيقة تقول أنني أميركية ويهودية وصديقة معروفة لبشير، وصحافية قدمت تقارير ضد المصالح السورية، ومدعوة الآن للدخول إلى سوريا تحت حماية رجل قد يكون أو لا يكون مسؤولاً عن موت بشير، لكنه بالتأكيد مسؤول عن موت كثيرين آخرين.

وفي الجهة الثانية، حقيقة أخرى تقول أنني أعلم أن سوريا كانت تحاول تحسين صورتها وتشويه سمعة حزب الله. وهذان الهدفان لن يتحققا بقتلي. كان لدي فرصة لإطلاق قصة عن إحدى المجموعات «الإرهابية» الأكثر خطورة في العالم، وفي الوقت ذاته، لاستجواب حبيقة عن موت بشير. كانت مخاطرة محسوبة. وقررت القيام بها. والأصعب من هذا كله كان إخبار «بيني».

بكت وقالت بغضب: «كيف تفعلين هذا بي؟ إذا لم ينل منك السوريون، فالإرهابيون سيقتلونك لا محالة. ماذا سيحصل لي عندها؟». قلت لها إنه عليّ أن أذهب. إنني أدين بذلك لبشير. قلت لها إنني الشخص الوحيد الذي يستطيع إنجاز ما يجب إنجازه، وأخبرتها عن كل الأسباب التي تجعل السوريين وحبيقة يوفرون لي الحماية.

كان الحديث بأكمله وكأنه إعادة للخلافات التي كانت تجري بيني وبين بشير. عندما كنت ألومه على مجازفاته الكثيرة كان رده الوحيد أنه لم

يكن لديه الخيار. فقط الآن كنت أردد ما كان يقوله وابنتي بدورها
كانت تردد كلماتي له. لا يستطيع المرء تفهّم ظروف إنسان ما، إلاّ
عندما تصادفه ظروفه نفسها.

كان على جماعة حبيقة أن يتدبروا أمر إرسال تأشيرة لدخولي إلى
سوريا عبر السفارة السورية في واشنطن. وبعد عدة أسابيع، وعندما
حان الوقت الذي كان من المفترض أن أغادر فيه، لم تصلني التأشيرة.

اتصلت بأحد رجال حبيقة فقال: «لا يوجد مشكلة. سيلاقيك
إيلي في المطار وسيحصل لك على تأشيرة هناك».

اصطحبت معي كتاب زئيف شيف ويهود ياري عن الحرب
اللبنانية ـ الإسرائيلية لكي أطلع عليه خلال الرحلة. كنت قد قرأته من
قبل، ولكني أردت التدقيق بالمعلومات التي وردت فيه عن حبيقة،
ووجدت الكثير منها. وصف الكتاب دوره كقائد الساحة خلال مجازر
صبرا وشاتيلا. وكنت على علم بذلك قبل أن تحط الطائرة بدقائق،
قرأت أنه خلال الاجتياح الإسرائيلي، كان إيلي متورطاً في حملة انتقادية
استهدفت أصدقاء لسوريا ولمنظمة التحرير الفلسطينية في صيدا
وصور، المدينتين الساحليتين اللتين زرتهما مع جاك اندرسون عام
١٩٨٢. يا إلهي، فكرت هؤلاء الذين يحمون إيلي الآن كانوا ضحاياه
في السنوات الماضية. هل أن السوريين لا يهتمون بالماضي، أم لا
يعلمون به؟!

هرعت إلى الحمام ورميت الكتاب بين المناشف.

على الرغم من كل تأكيداتي لبيني (ولنفسي) شعرت بالخوف
والانفعال للحظة، عندما حطّت الطائرة في دمشق. مكثت في مقعدي
حتى ترجّل كل الركاب. لم أخبر أحداً في مركز الحكومة عن رحلتي،
لأنهم كانوا بالتأكيد سيمنعونني. دون تأشيرة لم يكن هناك أي سجل
رسمي عن زيارتي. كنت أمشي بحماقة إلى فخ.

استجمعت نفسي ومشيت عبر الباب الخارجي إلى قاعة الوصول.

كان إيلي حبيقة جالساً بقرب البوابة ينتظر. صافحني ومشينا معاً نحو
الأمن العام. كان هناك لافتة على الحائط لفتت نظري مكتوبة بخط
اليد بالإنكليزية والعربية وتقول: «لا أحد يستطيع مغادرة البلاد دون أن
يمر بسلطات الجمارك». وقد كتبت كلمة «بلاد» بالإنكليزية بشكل
خاطىء. وبدت اللافتة قديمة جداً لا شك أنها معلقة في موضعها منذ
قرون. بدأت أضحك ولم أستطع تمالك نفسي. نظر حبيقة إليّ وقال:
«هشش، كل هؤلاء مخابرات» فكفيت عن الضحك.

اتصل حبيقة بنائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام، من
صالون الشرف، ليحل لي مشكلة التأشيرة. وكان الوقت ظهراً، وكان
خدام في قيلولة. أما رئيس أمن المطار، وهو رجل في العقد الثالث من
عمره ويرتدي ملابس مدنية، فقد عامل حبيقة معاملة مختلفة جداً.
أغلق باب الصالون واعتذر عن كل تأخير. قُدمت لنا القهوة، وبعد
عشرين دقيقة، وصل إيلي إلى خدام وانحلت المشكلة.

جلست قربه في سيارة مرسيدس سوداء أمّنها له السوريون. كان
الباب ثقيلاً جداً حتى أنني وجدت صعوبة في إغلاقه. كانت توجد آثار
خفيفة للرصاص أطلق قبل أشهر على السيارة عندما حاول إيلي الرجوع
إلى بيروت الشرقية. السوريون، كما قال لي، أنقذوا حياته.

أشار إيلي إلى منطقة خارج المطار تماماً، إلى مبنى في منطقة جبلية،
وقال: «لافت للنظر هيه؟ إنه منزل ومكتب الرئيس الأسد، الجديد».
المدينة تبدو عصرية، ونظيفة. بعد حوالى خمس عشرة دقيقة وصلنا إلى
شقة حبيقة التي كانت تقع في حي راقٍ. كان هناك جنود ورجال في
اللباس المدني يحملون السلاح يحرسون شقة حبيقة في الطابقين الأول
والثاني. أما الطوابق العليا كما قال لي حبيقة بفخر، فيشغلها ابن
الرئيس الباكستاني السابق، بوتو، الذي قتله خليفته الجنرال ضياء،
وهذا الأخير مات بدوره في انفجار طائرته صيف عام ١٩٨٨. كان
واضحاً أن هذا الحي الدمشقي كان ملجأ المنفيين المفضلين لدى
الرئيس الأسد. لمرة كان إيلي وآخرون مثله شخصيات سياسية هامة في

بلادهم. ولكن ها هم يعيشون الآن على نفقة سوريا. ووراء ذلك حقيقة واحدة تقلّب السياسة.

كان يوجد جامع كبير قرب منزل حبيقة وكانت أصوات صلاة المسلمين تُسمع بشكل واضح في الشقة.

جلسنا في حجرة الجلوس، التي كانت مختلفة إلى حد بعيد عن تلك المخططة في قصره البيروتي. صغيرة، ومحشورة، كانت هذه الغرفة تجمع ثلاث غرف في وقت واحد، فكانت غرفة جلوس، وغرفة طعام، ومكتباً. وبينما نحن نشرب المزيد من القهوة التي قدمها لنا أحد الخدم، تناقشنا بشأن الفيلم الذي سأخرجه. لم أرد جلب طاقمي إلى هذه الرحلة الخطيرة. لذلك اتفق إيلي مع مصوّر ومهندس للصوت من بيروت على أن يلتقيا بنا في سهل البقاع. قلت لحبيقة أنني أرغب التقرّب قدر الإمكان من المناطق حيث كان الرهائن محتجزين. «ليس هناك أية مشكلة» قال إيلي بأنه سيريني ثكنة الشيخ عبد الله في بعلبك حيث سجن كما ورد في التقارير، أربع أو خمس رهائن بواسطة حزب الله.

كان الوقت متأخراً، وكان ما يزال أمامنا ساعة قيادة. ولكن قبل أن نغادر، ناداني حبيقة إلى حجرته. «انظري إلى هذه»، قال: وهو يفتح ست أو سبع أيقونات روسية رائعة. كان أكثرها مطلياً بالذهب. «أعطاني أصدقاء سوريون هذه». قال وهو يحدق بفخر في مجموعته.

تساءلت كيف وصلت هذه الأيقونات إلى أيدي السوريين؟

بينما نحن نسير خلال الليل، حبيقة وراء المقود ونغمات الموسيقى الكلاسيكية تنساب عبر المذياع، تكلمنا عن عدة أشياء. بدا حبيقة منفتحاً أكثر في الظلام، ثم تطرقت إلى الحديث عن بشير.

□ «حسب ما أرى تحولت الأمور»، قلت، «أظن أن بشير مات عبثاً».

ـ «أجل، مات عبثاً».

□ «من قتله؟» قلت.

نظر حبيقة إلى الشريط الأسود أمامه. «المخابرات العسكرية السورية»، قال دون تردد، «ولكن لا نعلم إلى أي مدى هذا الأمر صحيح».

□ «قيل لي أنك أنت الذي قتلته»، حاولت أن أقول هذا بنبرة غير المصدّق، وليس بنبرة اتهام.

ظل حبيقة هادئاً، «أنا قتلته، يقولون هذا؟!» أجاب، رأيت لمحة لشيء بدا وكأنه لهو يعبر بسرعة فوق ملامح وجهه، ثم رفع صوت المذياع ولم يضف شيئاً.

لماذا لم ينكر هذا؟ تساءلت، تتوقع من رجل بريء أن ينكر. طبعاً، قد تتوقع من رجل مذنب أن ينكر أيضاً. ولكن إذا كان المرء مذنباً بشيء يفخر به، حينئذ، فكرت، فإنه لا يقول شيئاً.

وصلنا إلى حاجز سوري قريب من الحدود اللبنانية، أنار إيلي المصباح داخل السيارة ووقف على مسافة تكفي أن يرى الحراس وجهه، ثم انطلق مسرعاً. نظرت إلى الخلف، رأيت عدة رجال ينطلقون مسرعين نحو سيارة متوقفة، ثم امتطوا دراجاتهم النارية وانطلقوا خلفنا تماماً.

ـ «حرسي الخاص» قال إيلي وهو يدير وجهه نحوي ناظراً إليّ ويعلو وجهه تعبير المزدري. شعرت أن حبيقة لم يكن متيّماً بمضيفيه. ولكن من ناحية ثانية، ومما رأيته في الوقت الذي أمضيته في لبنان، كان إيلي مهماً للسوريين. فليس أي كان يستطيع إيقاظ نائب الرئيس من نومه، واستطعت أن أرى من نظرات الضباط السوريين في المطار والضابط عند الحاجز أن حبيقة كان شخصاً يعامل برفق ولباقة.

كان مشواراً مخيفاً ولا ينسى في البرية، بوجود حبيقة الكئيب المنغلق، كان ذكياً وبلا رحمة، لا شك أنه قتل بشير، فكرت، ولكن

سرعان ما تخليت عن هذه الفكرة، التي لم تكن نابعة عن اقتناع ولكن عن خوف فحسب.

كنا ذاهبين إلى زحلة حيث كانت قوات حبيقة متمركزة، كانت زحلة مسرحاً لإحدى «انتصارات» بشير، شعرت وكأنه معي يجلس بقربي في سيارة إيلي ويُعطيني الشجاعة لعمل ما كان عليّ إنجازه.

أصبح صمت حبيقة مميتاً منذ سؤالي له عن موت بشير. كانت الأسئلة تتصاعد في حلقي: ألم يكن إيلي، مسؤول الأمن البارع عند بشير، على علم بالمؤامرة السورية لقتل بشير؟ ألم يكن على علم بأن الشرتوني، الذي كان يسكن في المبنى حيث كان بشير يخطب كل يوم ثلاثاء، كان منتمياً إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي؟ لو كان حبيقة ذكياً كما كان يقول الآخرون، وأعتقد أنه كذلك، فكيف لم يستطع أن يعلم بكل هذا؟.

كنت أعلم أن هذا لم يكن الوقت المناسب للأسئلة، ليس ونحن نقود في وادي الموت هذا، وخلفنا يسير السوريون الذين باستطاعتهم، ولم يكن لديّ أدنى شك بذلك، أن يفعلوا أي شيء قد يطلبه حبيقة، حتى لو كان حفر القبور على ضوء القمر أو حرق اليد التي ضايقتهم.

وصلنا إلى مركز حبيقة في الظلام الدامس. كانت الإنارة الوحيدة، إلى جانب إضاءة السيارة، ونحن نعبر طريق الجبل الضيق، القمر. وبعض الجنود يرتدون بدلات القوات العسكرية التي جلبوها معهم إلى المنفى، يحيطون ببوابة مؤقتة، وعندما رأوا إيلي وقفوا استعداداً وألقوا له التحية، ثم رفعوا البوابة بسرعة، وتوجهنا إلى مخبأ إيلي الجبلي، كانت غرفة محصّنة وبلا نوافذ. ترجلنا من السيارة، وأخذت نفساً عميقاً من الهواء النقي. كانت مدينة زحلة ممتدة تحت أقدامنا. عندما دخلنا لاحظت أن الجدران الحجرية لمكتب حبيقة كانت سميكة كجدران قصر صليبي، كان هناك سرير في زاوية المكتب. لأسباب أمنية كان حبيقة ينام هنا كلما أمضى الليل. قدمت إلى

العاملين مع إيلي، الذين كانوا رجال بشير منذ زمن بدا لي طويلاً جداً.

كان هؤلاء الشبان يعلمون بعلاقتي مع بشير وكانوا يبدون خجلين عندما كانوا يتحدثون عن تحالفهم مع سوريا. كانوا بغاية التهذيب، وبسبب حداثة سنهم، كدت أن أرتكب خطأً نسيان العالم الذي كانوا يعيشون فيه، حتى ذكّرني سوء تفاهم بسيط حصل في اليوم التالي من مكوثي هناك.

□ «أنا ذاهبة لأصور بعض الناس في زحلة» قلت لمساعد حبيقة الشاب وأنا أخرج من الباب مع طاقم التصوير.

- «كلا، لا تستطيعين فعل ذلك».

□ «بالطبع أستطيع، أريد تصوير بعض الناس، ما الخطأ في ذلك؟».

- «كلا»، قال.

□ «نعم»، قلت بصوت حازم، «لِمَ تظنني أتيت إلى هنا؟».

- إصراري أخافه، «حسناً»، قال مستسلماً، «ولكن نادي علينا قبل أن تصوري أحداً».

مكث إيلي في مركزه في زحلة في الأسبوع الأول من مجيئي إلى لبنان. كنت أراه كل يوم، لكن استدراجه إلى الحديث الذي كنت أريد كان أمراً بالغ الصعوبة. ذات يوم جاء إلى المكتب حيث كنت أتكلم إلى العديد من جنوده عن بشير، اقترب إيلي بوجهه من وجهي، «تعلمين»، قال، «بعض الناس يعتقدون أنه كان يجب دفن بشير في إسرائيل».

□ «كلا!» قلت برعب، «كنت تعرفه، كيف تستطيع قول هذا؟»، وأنا أنظر إلى عينيه الباردتين الصلبتين رأيت الكراهية والغيرة. وكان قد قرر بوضوح عدم مناقشة موضوع بشير معي أبداً، لكنه كان غير قادر على التحكم بغضبه، سبق وسمعت هذا الطعن ببشير، وكان

يقلقني عدم تذكري متى، ثم تذكرت أنه عندما عُرض الشرتوني على التلفزيون قال إن بشير خان لبنان بصداقته لإسرائيل.

في ظهيرة حارة بعد أسبوع تقريباً من وصولي، أخذنا فرصة من التصوير لنذهب إلى مسبح يبعد عن زحلة أربعين دقيقة في السيارة، على طول الطريق مررنا بسهل واسع مزروع.

□ «ما هذا؟» سألت إيلي. بدا الزرع وكأنه قمحاً.

ـ «حشيش»، قال.

كنت أعلم في ذلك الوقت أن في البقاع إنتاج للمخدرات وهو يعد أحد أكبر الإنتاجات في العالم، وأن العديد من المجموعات الإرهابية كانوا يعتمدون على تجارة المخدرات لتمويل نشاطاتهم، وقيل لي أن حبيقة كان من بين هؤلاء. كان بشير يكره المخدرات، ويأمر قواته بإتلاف أي كمية يجدونها في بيروت، وسجن كل من يتاجر بها وأسّس منظمة لنصح ومساعدة متعاطي المخدرات. ومن المضحك أن رئيس هذه المنظمة تحالف مع إيلي وكان معنا الآن ويشير إلى سهول نبتة الماريجوانا.

بسبب موقعها الاستراتيجي بالقرب من طريق بيروت ـ دمشق الدولي تعتبر شتورة عاصمة التجارة في البقاع، جلسنا في حديقة تطل على المسبح. كان إيلي يلهو بآلة التصوير لدي، يأخذ لقطات للسابحين. كان يتقن التصوير ويبدو مستمتعاً باللعب بالآلة، ومسترخياً أكثر مما كان عليه مذ وصلت. «إيلي» قلت، «ماذا كنت ستفعل عندما وصل بشير للرئاسة؟» وقبل أن يرد، قال أحد مساعديه، «كان سيغادر البلاد».

□ «لماذا؟» قلت مدارية استغرابي.

قطب إيلي حاجبيه بشدة وهو ينظر إلى الفتى، الذي لم يلاحظ شيئاً وتابع يقول:

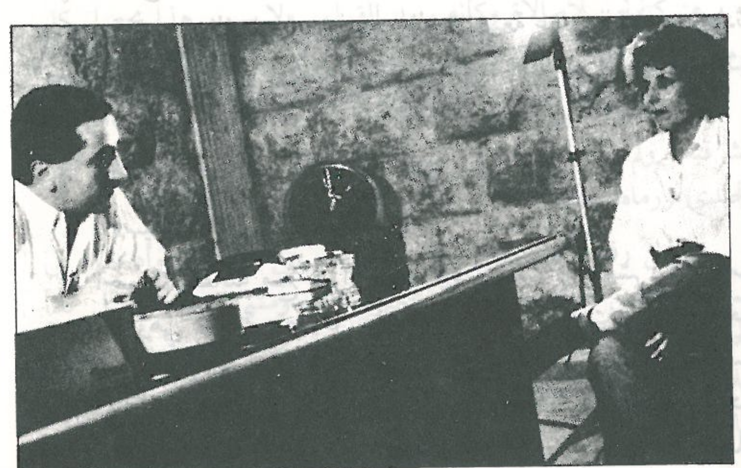
ـ «لأنه لم يرد إحراج بشير. كرئيس المخابرات كان مسؤولاً عن عدة عمليات كان من الممكن أن تثير الجدل. عرض إيلي الرحيل»، قال الفتى بفخر، «بعد فوز بشير». استدرت نحو حبيقة، الذي كان قد ترك آلة التصوير وراح يحدّق بي بغضب: «هل كان ليدعك تذهب، إيلي؟».

ـ «نعم»، قال، واستطاع بعض الشيء أن يبدو حذراً وغاضباً.

بقيت صامتة، تحول الحديث بسرعة إلى تصويرنا، لكني لم أشارك ولا حتى إيلي فعل، لقد كشف لي مساعده لغزاً وكنت أحاول حله:

القصة التي سمعتها لتوي ليس فيها شيء من المعقول. حبيقة لم يكن محباً للغير هذا كل ما في الأمر، ولم يكن لبشير أن يدعه يرحل فقد كان يحتاجه بعد الانتخاب أكثر من ذي قبل.

وليس هناك سوى تفسير واحد لما عرفته لتوي، وهو أن بشير فقد الثقة في حبيقة.



باربرا نيومان تتحدث مع ايلي حبيقة في زحلة بعد ١٩٨٢/١/١٥

- ١٩ -

حبيقة . . . أول المتورطين بقتل بشير

كنت متشوقة لرؤية المناطق كافة في زحلة. خاصة أن الفرصة لم تسنح لبشير للمجيء إلى هذه المنطقة بنفسه. كان هذا خطراً جداً.

معظم المحال كان مقفلاً، أما تلك المفتوحة فكانت مليئة بالبضائع الاستهلاكية المرتفعة الأسعار، وشاغرة من الزبائن. كان لبنان يمر بفترة تضخم نسبتها ١٠٠٠٪، وكان أبناء زحلة معزولين عن اتجاه الاقتصاد السائد. رأيت هنا وهناك عدة ملصقات قديمة لبشير، تذكارات ذابلة لعهد مضى. كان القصف قد ترك معالمه المؤذية على واجهات المباني.

حكت لي إحدى الفتيات، وتبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، عن حادثة حصلت عام ١٩٨١: «كنت أشتري الخبز»، قالت «ورأيت جندياً يطلق النار على طفل يبلغ سنتين من العمر، ثم قتل الأب».

«كيف تجري الأمور الآن؟» سألتها.

- «سيئة للغاية»، همست قائلة.

أجريت مقابلة مع امرأة شابة وصريحة. في العشرينيات من عمرها، وهي شيعية وتعارض بشدة حزب الله، كانت تعمل في مجلة أسبوعية في بيروت، بعد أن أمضينا ساعتين في تصوير المقابلة، اتصلت المرأة بإيلي حبيقة، الذي قدّمني إليها، وما أن اكتشفت لتوها أنني يهودية حتى احتجت قائلة إنها لم تكن لتتعاون معي أبداً لو كانت على علم بذلك، ورفضت أن نعرض المقابلة التي أجريناها معها.

لم تكن الخدمات متوافرة في زحلة كما هي الحال في كل أرجاء لبنان. على الرغم من أن حقول الماريجوانا خارج المدينة، كانت تسقى بشكل جيد، إلّا أن مياه المدينة كانت مقطوعة باستثناء ساعة أو ساعتين كل يوم، والكهرباء كانت نادرة أيضاً، والنفايات متراكمة في الشوارع تجذب حشوداً من الحشرات والفئران التي تنشر الأمراض. وقد تفشّت أمراض غير معروفة منذ القرون الوسطى، كالتيفوئيد، والتيتانوس، والحمى المالطية، وأمراض أخرى.

ذات يوم توقفنا أنا وطاقمي والحرس اللبناني الموجود دائماً، قرب محطة بنزين لنصوّر طابور السيارات المنتظرة دورها لتعبئة البنزين. ثم جاء جندي وبندقيته فوق كتفه، وهتف بشيء. وفجأة سمعت ضجيج ثلاثين محركاً ينطلقون دفعة واحدة. تبخر الطابور وكأن سحراً ما قد حصل.

□ «ماذا حصل» سألت المترجم.

- «أمرهم الجندي بالرحيل وإلّا سيطلق النار عليهم».

هزّ كتفيه بلامبالاة وكأنه يريد القول، «لا يهم، هذا يحصل كل يوم».

هرع أحد الحراس، وكان مجنداً جديداً آتياً لتوه من بيروت الشرقية، ولم يكن معتاداً من قبل على المنظر وركض ووثب على ظهر الجندي ورماه أرضاً.

وصل رفاقه إليه في لحظة، وأفلتوه من الجندي وأدخلوه إلى السيارة، نهض الجندي ومدّ يده إلى مسدسه ومشى نحو سيارتنا. بدأ الجنود اللبنانيون بالصراخ. سمعت باسم حبيقة يلفظ، مرة، مرتين، وثلاث مرات. توقّف الجندي، وترك المسدس ثم رفع يديه الفارغتين، وقال شيئاً.

□ «ماذا قال» سألت.

- «اعتذر» قال المترجم، ثم انفجر ضاحكاً.

ذكرت الحادثة لحبيقة ونحن على العشاء. فابتسم بفخر لشجاعة الجندي وعلي اعتذار الثاني.

تلك هي المقدمة التي كنت أنتظرها، دائماً.

□ أنت قلت لي السوريون قتلوا بشير. أنت أجريت مقابلة مع الشرتوني. كيف فعلوا ذلك؟

- لم يجب إيلي. وبلا مبالاة تكلّم رئيس المخابرات لديه، أسعد الشفتري، واسمه المستعار «آسو». قد تمّ التخطيط لهذه العملية قبل ثلاث سنوات. تلقى الشرتوني أوامره قبل يوم واحد من موجهه في باريس، كانت عملية مدبّرة.

تململ إيلي في مقعده، بقي صامتاً لا ينبس بكلمة. وحدقنا في بعضنا البعض. نظر آسو إلى وجه إيلي، ثم استأذن وترك الغرفة مسرعاً.

□ «ثلاث سنوات هي وقت طويل»، قلت.

- حدّق إيلي في الفراغ. كدت أرى انبثاق عاطفته وانفعالاته المكبوحة، تتقد. كان، على طريقته، متحمساً كبشير. ولكن حماس بشير تركّز خارجياً. أما حماسه فقد تحوّل إلى داخله إلى مكان سري مظلم وكان يحرقه. انبثق حماس بشير وتوقه من حبه للبنان. لكن توق إيلي سببه حب السلطة. أدهشني آنذاك أن إيلي كان ظلّ بشير، وجهه الآخر، صورته في مرآة مغلفة.

□ «ثلاث سنوات» قلت: «هو وقت طويل». قطب حاجبيه. وفتح فمه وكأنه يريد أن يقول شيئاً. ثم همّ بالخروج.

لم أستطع الخلود إلى النوم. كنت متوترة. وفي النهاية مرضت بذات الرئة. فقدت صوتي وشعرت بالغثيان مترافقاً مع نوبات سعال شديدة. وفي بعض الأحيان، كانت طاقتي تتبخر، وينتابني دوار ويبدأ

خيالي بالتحايل عليّ. كنت أشعر أنني خارج نفسي، وكأنني شخص آخر في لبنان، يحيطني السوريون من جهة، وإيلي حبيقة من الجهة الأخرى. وفي الأحيان الأخرى وعندما كانت ترتفع درجة الحرارة، كان يخيل إليّ أن كل هذا مجرد حلم. ولكن سرعان ما كانت تتراجع درجة الحرارة لتجبرني على قبول الأمر الواقع. جلب رجال حبيقة لي طبيباً محلياً أجرى لي فحصاً، ووصف لي بعض الأدوية. شعرت أنني سأموت لا محالة إذا ما تناولت تلك الأدوية، رفضت ابتلاعها وشفيت.

ذات يوم، ذهبنا أنا والطاقم مع ضابط مخابرات من سهل البقاع، إلى بيروت الغربية، وبدت لي رحلة الثلاث ساعات كرحلة الألف سنة.

تركت حرب لبنان الأهلية البشعة، التي استؤنفت عقب موت بشير، آثارها في كل مكان.

سبق ورأيت دمار الحرب في بيروت والدامور، ولكني أراه الآن في كل أنحاء لبنان. لم يكن هناك أي شك حول المنتصر. وكل بضعة أمتار كانت تقف دبابة وحاجز للجيش.

وُعدت أن أزور المنطقة التي يسكنها الشيعة وهي ضاحية بيروت الجنوبية حيث كان العديد من الرهائن محتجزين. والجيش السوري يطوّق معاقل الشيعة. وكان لديهم أوامر بعدم الدخول.

ورفض ضابط المخابرات السماح لنا بالدخول إلى الضاحية، قائلاً إن هذا خطر جداً حتى مع ما لدينا من مرافقين. وبعد كثير من الجهد سُمح لنا في النهاية بأخذ صور من حاجز عسكري فوق جبل مطلّ على الضواحي. وبدأ الطاقم بإعداد معدات التصوير. كان شاباً فرنسياً، وقد بدأ لتوه العمل كمحرر مستقل في بيروت. أما مهندس الصوت فكان أرمنياً. وبدأ الرصاص يتطاير وهما ما يزالان يفرغان أمتعتهما. سمعت أنيناً حاداً، ثم فجأة طُرحت أرضاً وفوقي جندي أخرق يكاد يسحقني.

□ «انهض عني أيها الأحمق»، صرخت بأعلى صوتي وأنا ألكمه.

- «قنّاصون»، قال وهو يلهث، محاولاً حماية نفسه من لكماتي دون أن يؤذيني. «ابقي تحت» حذّرني بعد أن أفلتني.

أصدر الضابط أمراً، وببطء أطاع الجيش وفتح النار. كنت مستاءة، وكان استيائي من السوريين الذين كانوا يحاولون حمايتنا. أكثر من استيائي من هؤلاء القنّاصين الذين يوجهون النار علينا. «كل هذا يحصل بسببكم» صرخت في وجه الجندي.

وبما أن السوريين رفضوا رفضاً قاطعاً أن نكمّل التصوير، وطاقمي كان يرمقني بتمرد، حزمنا أمتعتنا وعدنا إلى بيروت الغربية. أخذنا الضابط إلى مطعم على شاطىء البحر وسط ما كان في الأيام الخوالي، مدينة ملاهي متنقلة. كان يوجد دولاب مهجور منذ زمن طويل، يهتز في الهواء، صريره يسمع من الداخل. كانت صورة حية للجنون الذي تحكم بهذه المدينة، والتي كانت يوماً رائعة.

□ جلس الضابط يواجهني في وسط طاولة طويلة. وإلى جانبه جلس المترجم سألت الضابط كيف يجد مكوثه في لبنان.

- «لا أحبه»، قال.

□ «ماذا كان رأيك ببشير؟»

- «كان رجلاً مثيراً للإعجاب للغاية».

□ «إذاً لمَ قتلتموه؟»

- نظر المترجم إليّ بغضب قائلاً: «لن أترجم هذا».

الرجل الذي كان جالساً أمامي ويشاطرني النبيذ، له زوجة وأولاد في سوريا. وقد أطلعني على صورهم قائلاً: إنه يحن لوطنه. وكان لطيفاً، والمطعم مخصص لنوع معين من السمك. وعندما قلت أنني أريده مشوياً، وليس مقلياً، ذهب بنفسه إلى المطبخ، ليؤكد تحضير السمك بالطريقة التي أفضلها.

لم أرد منه أن يكون لطيفاً. لم أرد أن أشعر بأنه إنسان. كان يريحني أكثر أن أفكّر بمنطق الأسود والأبيض. الخير، والشر. لأنه من المؤكد أن هذا الرجل لم يحرز المركز الذي وصل إليه، إلّا بعد تنفيذ أوامر قاسية.

وقبيل مغادرتنا المطعم، وعقب انتهائنا من شرب النبيذ، سألته «إذاً، هل تحب الولايات المتحدة؟».

- «ليس كثيراً» كان رده.

«لسنا متحمسين لبلادكم، أيضاً؟»».

وانتهى الغداء بهذه الملاحظة الحزينة.

بعد بضع ساعات، عدت إلى زحلة لأجد بول عريس جالساً وحده في مكتب حبيقة. كنت أعرف عريس من قبل. عندما كان بشير على قيد الحياة، كان عريس يشرف على الموارد المالية للقوات اللبنانية. والآن هو يعيش في باريس. وقد التقيت به هناك خلال العطلة. رجل، طويل وضخم، كان بول جديراً بالحب ولطيفاً. كنت مسرورة لرؤيته، ليس فقط لأنه كنفحة من الهواء النقي في غرفة حبيقة الكئيبة الرطبة. كان عريس قريباً من بشير وحبيقة في الأيام الماضية. لا شك أنه يعلم كأي شخص آخر ما حصل.

□ «أين إيلي؟» سألته.

- «في اجتماع».

أقفلت باب المكتب وجلست بقربه.

كانت الأسئلة تدور في رأسي ولم أكن أعلم كم لديّ من الوقت قبل أن يأتي إيلي ويقطع حديثنا الخصوصي.

وبقدر ما كنت أريد، لم أستطع الدخول في الحديث مباشرة، كنت خائفة للغاية مما سيفعله إيلي إذا اكتشف هدفي الحقيقي.

أخبرت عريس عن يومنا في بيروت، والحادثة التافهة ولم أخف

مشاعري عندما تمنيت: «فقط لو أن بشير بقي على قيد الحياة، لم يكن ليحصل شيء من ذلك».

وافق بول على كلامي بحزن. وتشاطرنا لحظة صمت. تنهّدت هززت رأسي قائلة، «الكل يقول إن السوريين فعلوا ذلك».

هزّ رأسه دون انتباه وقال: «السوريون والسوفيات».

□ «السوفيات؟».

ـ «تلك القنبلة علامة أكيدة»، قال عريس

السوفيات فقط يملكون ذلك النوع. وليس سراً بأن بشير كان يتلقى المساعدة من الـ C.I.A ومن الموساد. وكرئيس للبنان، كان ليحوّل المنطقة كلها نحو الغرب .

□ عبر استخدامهم عميلهم المسيحي، الشرتوني؟

ـ هذا صحيح .

□ هذا هو الشيء الوحيد الذي لم أفهمه أبداً. كيف تركتم الشرتوني هذا قريباً إلى هذا الحد من بشير، إذا كان عضواً في المجموعة المساندة لسوريا؟ لَم لم تردعوه؟

ـ فعلنا ذلك، قال عريس دون تردد. كنا نعلم كل شيء عن الشرتوني. انضم إلى الحزب القومي عندما كان تلميذاً في باريس. اكتشف إيلي ذلك وأخبر بشير به.

□ ماذا حصل؟

ـ اتصل بشير بجان نادر وأعطاه المعلومات. قال له نادر، اسمع، لقد أنشأت هؤلاء الأطفال، وأعطاه ضماناً شخصياً بأنهم أوفياء لبشير.

قال عريس، إن نادر كان على علاقة غرامية مع أخت الشرتوني، وكان يلائمه وجودها في المبنى. وجان نادر، رئيس فرع الأشرفية، قُتل مع بشير في الانفجار.

□ ووافق إيلي على هذا؟

ـ «أراد أن يخرج العائلة، ولكن بشير لم يرد أن يكسر كلام نادر».

□ إذاً، استسلم إيلي، فحسب؟

ـ هذا لا يبدو صحيحاً. إنه صلب للغاية لكي يسمح لأحد أن يهيمن عليه في مسألة أمنية. الكل يعلم أن بشير كان يذهب إلى الأشرفية بعد ظهر كل يوم ثلاثاء. وأنت تعرفين بشير، قال عريس بأسف.

□ كان يفعل ما يريد؟

ـ كان مصيباً، أجل، كنت أعرف بشير. وأعلم أنه لم يكن ليتجاهل هذه الحقائق. صحيح، أنه في بعض الأحيان كان يتهاون إزاء أمنه الشخصي، ولكن كان لديه ما يكفي من الذكاء لكي لا يغمض عينه عن الخطر الحقيقي. وكان عملياً للغاية لكي يسمح للصداقة أن تحوّله عن التصرّف في مسألة موت أو حياة.

□ كيف يشهد نادر على ولاء الشرتوني وقد قيل له أن الشرتوني كان عضواً في مجموعة ثورية.

بالإضافة إلى أن نادر كان وفياً لبشير، وموته كان دليلاً على أنه لم يكن لديه معرفة بالخطر الذي كان الشرتوني يشكّله. أليس من الملائم أن يوضع اللوم على رجل لم يعد موجوداً ليناقض أي شيء؟

صدقت عريس عندما قال لي بأن إيلي كان لديه معلومات عن الشرتوني. وكان لدي شك بأن بشير أو نادر كانا على علم بهذه المعلومات. وبدأ اللغز يتوضح.

حان وقت المقطع الأخير للفيلم، وللبرنامج. في اليوم التالي عند ذهابنا إلى بعلبك، مركز حزب الله، أجريت مقابلة مع منسّق عن حزب الله، قال لي إنه عندما كان يخدم في بعلبك، كان العديد من الرهائن الغربيين موجودين في سجن قريب من ثكنة الشيخ عبد الله.

وقبل الذهاب إلى بعلبك خططنا لرحلة تمهيدية. مشوار للقرية الشيعية مشغرة في جنوبي سهل البقاع. رافقتنا ثلاث سيارات مليئة برجال حبيقة، يرتدون سترات الحرب مع أسلحة ثقيلة إلى موقع عسكري قريب، حيث التقينا سبع شاحنات مليئة بالكوماندوس.

حدّق القرويون بحزن بموكبنا حين دخلنا مشغرة حيث طالعتنا جدران مغطاة بشعارات ضد الغرب وإسرائيل بالعربية والإنكليزية. وبملصقات ولافتات لشهداء الشيعة. تعطّلت سيارتنا، ولم يدعنا الحراس نخرج منها، وفي العشر دقائق التي مضت ريثما يتم تشغيل السيارة، لفت انتباهي الصمت المخيف الذي كان يسود القرية، لا أطفال يلعبون، ولا نساء يثرثرن. .في سوق القرية. وعلى خلاف كل قرية لبنانية أخرى، لم يكن هناك رجال يجلسون في المقهى ويشربون القهوة التركية، ويلعبون النرد. الصوت الوحيد كان يهبط من منارة عالية، ويتردد في أنحاء القرية داعياً المؤمنين للصلاة.

بدت لي قرية «مشغرة» تحت حصار مفروض عليها من الداخل.

بعد يوم من زيارتنا لمشغرة، أخذنا شاحنة من الكوماندوس وتوجهنا شمالاً في موكب مؤلف من عشر عربات جيش، على طول خط البقاع، نحو بعلبك. كانت العلامة الأولى لاقترابنا من ضواحي المدينة هو منظر يتنافر مع حساسية لبنان تجاه الأزياء الغربية، رأينا نساء بالشادور، وبالأثواب الطويلة التي ترتديها النساء في إيران الخميني. رماني مسؤول الأمن لحبيقة، «آسو» بوشاح للرأس قائلاً: «لا نريد أن يراك حزب الله في السيارة، خذي، غطي شعرك الأشقر اليهودي».

□ «هذا الشعر اليهودي الأشقر كلّفني الكثير من المال» قلت.

مررنا بحطام سببه القصف المدفعي لما كان سابقاً مركز «حزب الله»، والذي دمرته غارة فرنسية عام ١٩٨٣، كردّ انتقامي على عملية انتحارية بسيارة مفخخة في بيروت قتلت حوالى خمسين جندياً فرنسياً.

كان يزداد توتر مرافقينا كلما اقتربنا من بعلبك. هنا، أيضاً، سمح لنا أن نصور فقط من السيارة.

فوق الجبل، خارج بعلبك تماماً، توقف موكبنا، كان أعضاء الكوماندوس متوترين للغاية حتى أن أيديهم كانت ترتعش. وعندما حاول «آسو» أخذ صورة، وازن الكاميرا على كتف رجل آخر.

- «هذا أبعد ما تستطيعون الوصول إليه»، قال لي الضابط المسؤول، «سأصوّر من هناك».

أمرت بأن أبقى في حفرة قذرة، بعيداً عن النظر وخط نار مواقع «حزب الله». كانت بعلبك ممتدة في الأسفل، هادئة ومنذرة بالشؤوم، كنت أستطيع رؤية الصور الجدارية الكبيرة للخميني تحدّق في الأفق وتتحادث بودية كما بدا لي، مع الله. في أعلى الجبل، في الجهة الأخرى من البلدة، كانت تبدو ثكنة الشيخ عبد الله، التي كانت منتجعاً في الأيام السعيدة، بوضوح من موضعنا عبر عدسة الكاميرا المكبرة. استخدم المصور عدساته الطويلة لكي يحصل على صور ممتازة لبرج الراديو الذي كان يسمح لـ «حزب الله» بالبقاء على اتصال بإيران، مستقلاً عن شبكة التلفون، ولمبنى مؤلف من ثلاثة طوابق حيث، كان، كما قيل لنا، الرهائن الغربيون محتجزين.

احتجز مراسل الـ C.N.N جيريمي ليفين في بعلبك، إلى أن «هرب» من الأسر. وكان من الصعب أن يرى المرء كيف كان الهروب من بعلبك ممكناً وبالفعل، قال لي ضابط مخابرات أن الفرار دبّر بعد أن دفع مستخدم ليفين فدية. اتفق حبيقة مع ضابط محلي على أن يستعمل كاميراتنا Betacam لتصوير ثكنة الشيخ عبد الله من مكان قريب. دعاني الضابط إلى مرافقته «تحت الشادور»، قائلاً «كل النساء تتشابه به» ورفضت.

إن قائد عمليات «حزب الله» شيعي لبناني يدعى حسين الموسوي. وكان ملقباً أيضاً بـ «كارلوس» بعد الإرهابي الأرجنتيني

المشهور. ميّز الموسوي نفسه كقائد فئة «حزب الله» المدعوة «أمل الإسلامية» عندما ساعد في توجيه القصف بالقنابل على المراكز الفرنسية والسفارة الأميركية، والثكنات في بيروت. اختار الخميني الموسوي لرئاسة قيادة الأمن الموحد لـ «حزب الله»، مركز ذو نفوذ قوي لرجل بدأ كأستاذ كيمياء. وإذا كان الخميني لا يستجيب إلّا لـ «الله» فقط، فإن الموسوي لم يكن يستجيب إلّا للخميني.

كان الموسوي منفذ سياسة «حزب الله» في أخذ الرهائن. منحت تصريحاً لمقابلة الموسوي عن طريق بعض المعارف اللبنانيين وهي أول مقابلة يسمح بها منذ أن استلم منصب رئاسة العمليات في «حزب الله».

قبل بضعة أشهر، احتُجز مراسل أخبار سابق لـ A.B.C يدعى شارل غلاس، مباشرة بعد أن أجرى مقابلة مع آية الله محمد حسين فضل الله، الزعيم الروحي لـ «حزب الله»، وخطف غلاس قرب حاجز سُوري، هدّد السوريون بعملية عسكرية إن لم يُطلق سراح غلاس. وتنازل «حزب الله» وأخلي سبيل الرهين.

لكن القس الانغليكاني البريطاني «تيري وايت» لم يكن محظوظاً إلى هذه الدرجة. كان يحاول المفاوضة لإطلاق رهائن عندما أخذه «حزب الله» كسجين في ٢٠ كانون الثاني/ يناير عام ١٩٨٧، ولم يزل إلى الآن محتجزاً (صدر الكتاب قبل إطلاق وايت).

قال لي حبيقة إنه سيكون آخر رهين يطلق سراحه، لأن السوريين لن يتوسطوا إلّا إذا وافقت بريطانيا على إعادة العلاقات الدبلوماسية. السيدة تاتشر، الأقوى من بين كل الزعماء الغربيين في تصميمها على عدم التعامل مع الإرهابيين، رفضت دفع ثمن استرجاع وايت أو أي رهين بريطاني آخر.

وبما أنني لم أكن أستطيع الذهاب إلى بعلبك، كلّفت صحافية لبنانية بإجراء المقابلة وأعطيتها قائمة بالأسئلة. وعلى الفور عندما

اجتمعا، سألها الموسوي لحساب من تعمل. وعندما أخبرته عني، أبلغني عرضاً: إذا وافقت على إجراء المقابلة بنفسي فإن «حزب الله» سيضمن لي ممراً آمناً عند الدخول والخروج.

سبق وقيل هذا الكلام لكل من تيري وايت، وشارل غلاس، هذه الكلمات لا معنى لها في لبنان. كنت أرغب في مقابلة الموسوي على أرض آمنة، ولكن رفضت دعوته إلى بعلبك.

كانت المقابلة حارة، لم ينكر الموسوي تورط «حزب الله» في عمليات الخطف، بل برّر هذه الأعمال مدعياً أن المخطوفين عملاء للمخابرات الأميركية والأوروبية ولقد احتجزوا للضغط على الحكومات لكي تغير من سياستها المعادية للإسلام ولإيران، شجب بقوة الغرب وانحلاله. وسمّى الإسرائيليين واليهود بالـ«ميكروبات التي تحتاج للإبادة»، وأنهى كلامه ببيان محضّر قرأه بالإنكليزية، وموجّه مباشرة إلى شعوب الغرب، يدعوهم إلى الإطاحة بالزعماء الذين يعوقون دعوة آية الله الخميني الثورية وإلّا فليتحملوا النتائج، «أيّ سيكون» قال بنبرة المعلم الصارمة واللطيفة في الوقت نفسه «حبنا وتعاوننا، أو نيران الإسلام؟». راقبته في وقت لاحق في الشريط، لم يكن يتحدث بطريقة صاخبة أو حانقة، كان يتكلم بإيقاع منطقي وهذا ما جعلني أرتعش. كان الأمر كمراقبة شيء يبدو كرجل ولكن ليس رجلاً.

غادرت بعلبك بأحاسيس مختلطة، كنت مسرورة لمغادرتي، طبعاً، ولكن كنت آسفة للغاية على الرهائن، لم يكن لبنان مجرد «قصة» لي ولا أذكر أنه كان يوماً ما كذلك. أحببت هذه الأرض عبر بشير، وحزنت على ما أصبحت عليه، احتجاز الرهائن هي من أكثر القصص مدعاة للسخرية، والتي كتبتها.

انتهت قصتي وبقي لي تحريرها والذي كنت سأنجزه في لندن. قبل ليلة من مغادرتي، ذهبنا أنا وإيلي و«آسو» إلى مطعم فخم قرب مركز زحلة.

هناك نوع من البهجة يشعر بها المرء عند نهاية تصوير برنامج ما، وعندما يحصل على كل ما كان يهدف إليه وربما أكثر بقليل. كان كل من إيلي وآسو يتشاطران هذا الشعور. لأنهما، دون شك كانا يعتقدان، أيضاً، أنهما حصلا على ما كانا يأملان به، ذلك الشعور بالتحرر وقليل من الخمر كانا كافيين لإذابة صلابة حبيقة وتحفّظه.

ولكن قبل الرحيل في اليوم التالي، تحدثت على انفراد مع بول عريس، في مكتب إيلي. «بول» قلت له «فكرت بما قلته لي عن اتصال إيلي ببشير ليحذّره من الشرتوني، لا أرى هذا معقولاً، لم يكن بشير ليدع هذا يمر بسهولة، وحتى لو فعل، فإن إيلي شديد جداً لكي يتحمل أمراً كهذا، كان ليطرد تلك العائلة بنفسه».

ـ «ليس بعد أن أمره بشير بألا يفعل»، قال عريس. «وعلاوة على ذلك»، قال مدافعاً، «لم تكن هذه مهمته عند ذلك، ولم يكن إيلي مسؤولاً عن أمن بشير في الآونة الأخيرة».

□ «صحيح؟» قلت.

ـ «أنشأ بشير جهاز أمنه الخاص برئاسة عباس وبوسي أشقر. لم يكن لإيلي أي دخل في هذا». وخرج من المكتب.

ذهبت لأتمشى في الجبال خارج زحلة وطفت بلا هدف بين الكروم الذابلة في الشمس. خلال الجولة كنت أستطيع سماع طلقات النار. ولكن لم أهتم، كان جنود إيلي يتدربون ليس إلاّ، أعطاني عريس آخر قطعة للغز وكنت أراه الآن بوضوح.

لم يكن بشير لينزع أمنه من يديّ إيلي إلاّ إذا كان لديه سبب يجعله لا يثق به. لا بد أنه اكتشف صلات إيلي بالسوريين، والتي كانت قائمة حتى قبل أن يموت بوقت طويل. كيف كانت ردة فعله؟ عالمة بوفاء بشير لرجاله، خيل إليّ أنه كان سيسمح لإيلي بمغادرة لبنان بهدوء.

قال إيلي إنه اختار الرحيل، لكي يوفر على بشير الإحراج من تصرفات ماضية. من كل ما عرفته ورأيته عن الرجل ـ حبّه للقوة

والترف وأنانيته ـ فإن التضحية بالذات كانت غير مقنعة، إن إيلي فرشخ فوق السياج ولسنوات. كان يضع قدماً في مخيم بشير والثانية في مخيم السوريين. الآن، وعندما بدأت أهدافه نحو بشير تتحقق، أرسل إلى المنفى، واختلست منه ثمار النصر، علمت من قصره إلى أي حد كان يشتهي تلك الثمار. كلا، لم يكن ليرحل مختاراً.

منذ أن سمعت عن رحيل إيلي، شككت بأنه أجبر على ذلك، ومعلومات عريس أن بشير نزع أيضاً أمنه الخاص من يديّ أفضل رجل أمن في لبنان أكدت شكوكي.

كنت أعلم دائماً أن حبيقة يملك القدرة المنطقية لتدبير الاغتيال، وأن بطاقة المرور في جيب الشرتوني كانت إثباتاً. لكني قاومت رسم الاستنتاج الواضح لأنني لم أستطع رؤية أي هدف. الآن أصبح واضحاً أن إيلي كان ليكسب كل شيء من موت بشير. لو عاش بشير، لذهب إيلي إلى المنفى. أما إذا مات، فكان إيلي سيخلفه في نهاية الأمر كرئيس لـ «القوات اللبنانية». خططت سوريا قبل ثلاث سنوات لقتل بشير، وخلال تلك السنوات، كان بشير شوكة ثابتة في خاصرتها، وهنا برز سؤال، هل كان لها مصدر مقرّب من بشير ومعلوماته جديرة بتأجيل إزاحة بشير عن المسرح؟ وما إن انتخب رئيساً حتى لم يعد باستطاعتهم الانتظار أكثر، ، وكان مصدرهم قد طرد على أية حال، في ذلك الوقت كان بشير عالماً بإيلي.

لا أستطيع إثبات هذا. الحقيقة ليست شيئاً واحداً، إنها أشبه ببصلة، مؤلفة من طبقات، أظن أنني اخترقت معظم تلك الطبقات، إن لم يكن كلها.

سافرت مع حبيقة إلى دمشق، هذه المرة أنا التي ظللت صامتة، وهو المتكلم «آسف لا أستطيع العشاء معك»، قال ونحن ننطلق في سهل البقاع، «سنتعشى أنا وزوجتي مع الأصدقاء».

□ «لا بأس»، قلت «ربما سنلتقي ثانية يوماً ما، في بيروت».

ـ استدار حبيقة ونظر إليّ قائلاً: «سأعود، تعلمين إنها فقط مسألة وقت».

أدرت عيوني وحدّقت أمامي في الظلام.



حبيب الشرتوني



ايلي حبيقة يضع اكليلاً من الزهر على ضريح بشير الجميل

الخاتمة

أنا شاهدة على شيء كاد أن يحصل لكنه لم يتم أبداً، ادّخرت ذكرياتي لسنوات عديدة، وكأني باحتضاني لها أستطيع إبقاءها أمينة، ولكن لم أكن مصيبة في ذلك.

ماتت إنجازات بشير معه، وبعد سنة من موته بدا الأمر وكأنه لم يعش أبداً، باستثناء اليأس المتزايد لهؤلاء الذين يعلمون بأن يأسهم ليس مقدّراً بقضاء وقدر، وبأن الأحوال كانت لتصبح على غير ما هي عليه الآن. كل ما بقي من بشير هو الذكرى واكتشفت أنه إذا لم يتكلم محبوه فإن النقش على ضريح هذا الرجل العظيم سيكون مكتوباً بالدم عبر وحشية هؤلاء التابعين له الذين سرعان ما ارتدّوا عن خطه عقب موته.

كانت مثيرة للألم الكتابة، والتذكر ولكن أشعر أنها أعادتني إلى الحياة. وكأنني كنت في حلم طوال تلك السنوات من موته، لأستيقظ لتوي. فعلت ما كان عليّ أن أفعله لبشير، حافظت على عهدنا، ورويت قصته على أكمل وجه. وبهذا، أجد أنني رويت قصتي أنا أيضاً، كتابة هذه الكلمات، وإنهاء عملي، أشعر بأعظم راحة عرفتها منذ اليوم الذي مات فيه.

ترعرعنا أنا وبشير في عالمين مختلفين، ولكن اشتعل حبنا ليس فقط بفعل الكيمياء، ولكن بفعل العاطفة والاقتناع.

حبي له كلّفني كل شيء. خاطرت بعملي، وبراحة بال ابنتي، وبحياتي حتى، من أجل بشير، وفي النهاية فقدته. لست نادمة على شيء. أنا فخورة به وبما كنّا نعني لبعضنا الآخر. أنا فخورة بالعمل الذي أنجزته. هناك من يقول أن على الصحافيين تفادي التورطات الشخصية التي قد تعرّض قصصهم للشبهات، وأنا أوافق إلى حد كبير على هذا. عندما كنت أقدّم تقريراً عن بشير، قاومت انجذابنا المتبادل، ولكن أعتقد أن أخذ مبادرة منصفة ونزيهة لقصص الإرهاب وأخذ الرهائن هو خطأ، كمعالجة شخصية هتلر دون انحياز. فمهما تظاهر بعكس ذلك فإن الصحافي إنسان أولاً وأخيراً، كلنا نملك آراء ومبادىء ومعتقدات، تؤثر على عملنا، وليس جائزاً أن نتظاهر بغير ذلك.

الصحافيون بحاجة لكشف الغطاء عن الحقائق المخفية، وإلى كتابة قصص غير مألوفة عند الضرورة، والكفاح لأجل تلك القصص.

وعدان أجبراني على كتابة هذا الكتاب: عندما كان بشير حياً، وعدته أن أقول الحقيقة عنه وعن قضيته، وعندما وقفت أمام قبره، أقسمت على كشف قاتليه. حققت الوعد الثاني، وأشبعت رغبتي. ولكن اكتفائي لا يوازن الوعد الأول.

كان لبشير روح كريمة أعجز عن وصفها، لقد رأيته يقترف الأخطاء وكان هذا جزءاً من عظمته، ولم يتوان عن اقتناص الفرص، والمجازفة بالأخطاء ولكن لم أره أبداً يفعل شيئاً تافهاً، أو يتفوه بكلمة تافهة، أنا لا أقول هذه الأشياء لأنني أحببته، لكن لأنها صحيحة. لم أدع أبداً أنه كان ملاكاً، على قدر ما كان لطيفاً معي، فإن بشير كان لديه روح من حديد، ومن ميزاته أنه لم يستخدم العنف الذي لا مبرر له أو الانتقام لمجرد الانتقام، لكنه كان قوياً على قدر ما كان يجب أن يكون، «لا يحكم المرء لبنان بالقبلات والعناق»، كان يردد دوماً، قرأت عبارة لتوماس جيفرسون، في وقت لاحق، تقول «ليس علينا أن نتوقع بأن ننتقل من مستودع عسكري إلى الحرية في مكان يُكْرَه فيه رب

العمل على توظيف عدد من المستخدمين زيادة عن حاجته».

حقق بشير في حياته القصيرة الكثير من الأشياء، كان في الرابعة والثلاثين عندما قامت إسرائيل بحربٍ لتراه رئيساً ووضعت الولايات المتحدة قوتها الكاملة لأجل انتخابه. كيف يُظهر المرء ما هو عليه؟ هذه هي مهمتي، ومن المهم أن أنجح فيها، لحظة بشير القصيرة في الشمس كانت للبنان كما كان عهد آرثور لبريطانيا القديمة، لحظات من الضوء يغمرها الظلام الاقطاعي.

كان بشير منارة عظيمة لشعبه، وانطفاء شعاعه جعلهم في ظلام لم يعهدوه من قبل، ولكن إذا أوتي على ذكره يوماً ما، سيأتي أحد وينفخ على الجمرات لينير منارة جديدة، هذه، إذاً تحيتي، وأرجو أن تخدم القضية التي لأجلها بذل بشير حياته.

ولد هذا الكتاب أيضاً بالغضب: على بشير لأنه مات، وعلى قاتليه، وعلى الأصدقاء الذين تخلوا عنه قبل أن تبرد جثته، ولكن أثناء الكتابة نفد غضبي. أنا أدرك الكثير الآن، بسبب المخاطر التي كان عليّ مواجهتها لتنفيذ مهمتي، فهمت المخاطر التي تعرض لها بشير لتنفيذ مهمته.

عندما مات بشير، ذرفت المجموعة المسيحية الدموع، ولكنها تنفست الصعداء أيضاً وبشكل جماعي. لقد توصلت إلى فهم ذلك أيضاً، تخيّلت متسلق جبال كلّف نفسه بتسلق جبل أعلى مما يقدر عليه، ماذا سيكون شعوره عندما يُلغى صعوده فجأة بسبب ظروف أقوى من أن يسيطر عليها؟ خيبة أمل بالتأكيد ولكن مع شعور بالتحرر أيضاً.

لم يكن بشير ينعم بالأمن والارتياح، فقد عزم على التخلص من الفساد، وتجارة المخدرات وتدابير مشاطرة القوة لمصلحة نظام سياسي واقتصادي مفتوح، هدد الكثير من الأشخاص الأقوياء بمن فيهم المسيحيون البارزون. عندما كان بشير على قيد الحياة بقي هؤلاء الناس في طريقه. ولكن ما إن مات، حتى جرفتهم بعيداً رياح التجارة

والمصالح الشخصية. «على الرغم من نجاة رجل ما من كل خطر - كتب ديموستينس منذ ٢٢ قرناً - فإنه لن يستطيع أبداً النجاة من هؤلاء الذين لا يريدون رجلاً كهذا أن يحيا».

وفهمت، أخيراً، كيف ولماذا مات بشير. ضغط الشرتوني على الزر، ولكن أعتقد أن إيلي حبيقة، بدافع من الحقد والحسد والطموح، هو الذي دبّر هذا لبشير.

حتى تاريخ هذه الكتابة، ما يزال إيلي حبيقة قائد فئته المنشقة لـ «القوات اللبنانية»، أحواله جيدة، كما أخبرت من مصادري.

يريد إيلي العودة كرئيس «القوات اللبنانية» في بيروت، وأن يصبح مرة ثانية صانع الملوك في لبنان، ويبدو حتى الآن كأنه سينجح في ذلك.

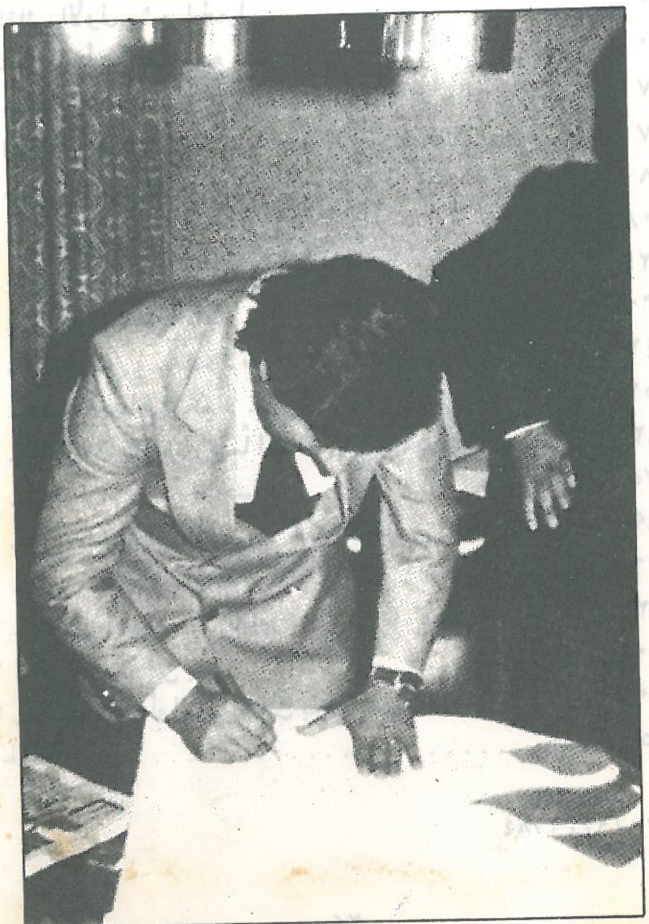
لم أكن لأصدق أن إيلي حبيقة وحده قتل بشير، لن أغالي في قوته. قتل بشير يتطلب أكثر من حقد رجل طماع، دنيوي. كان لدى بشير نقطة ضعف مهلكة كأي بطل مأسوي آخر، اختار أن يرفع إيلي حبيقة، السفّاح، وإن كان ذكياً فهو عادي، إلى مركز سمح له أن يفعل ما فعل. وقد أقدم على هذا الخيار المهلك لسبب ما يزال يعتصر قلبي حتى الآن، جعل بشير إيلي حبيقة مسؤول الأمن عنده، إثر مقتل ابنته مايا.

قال لي بيار يزبك بعد عدة سنوات عندما التقينا في باريس: «إن موت مايا جعل بشير يدرك أن قوانين اللعبة كانت قذرة وصعبة وقد صعقه موتها، وقد تساءل بشير لماذا هي وليس أنا؟! هل تدفع ثمن ذنوبي؟؟ كان هادئاً مع الغرباء لكنه يبكي بمرارة فوق صدور أحبابه، عندما عانقته، ضغط على كتفي وظننت للحظة أنه سينكسر. ولكن مع ذلك دفن ابنته وجفف دموعه وقال: حسناً، الآن سنلعب حسب قوانينهم، مهما كانت مرّة، مهما كانت وحشية، سنلعب حسب قوانينهم».

حزنت على طفلة بشير، التي لم أعرفها أبداً، وكأنها ابنتي، وقد

أحببت ابنتي أكثر لأنني أدركت أنه لولا نعمة الرب... وهذا ما أعتقده، أعتقد أن بشير كان رجلاً أخرج نفسه من مستنقع الدمار، واليأس والقساوة؛ رجل ارتفع فوق كل القيم التي نشأ عليها وتعلمها، رجل تجاوز طبيعته المتهورة وكل شيء كان يقيّده، باستثناء الشيء الوحيد الذي ليس على أحد أن يتجاوزه أبداً: حبه لابنته.

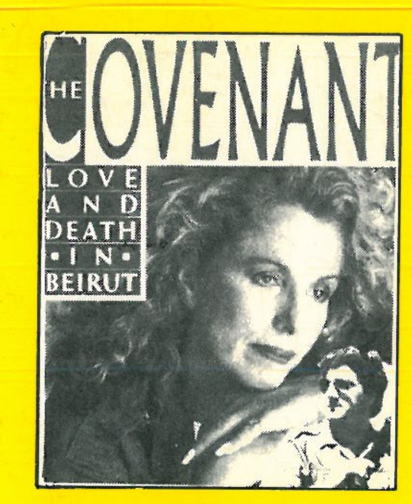
وإذا كان المرء يستحق الموت لذلك إذاً فليعنّا الله جميعاً.



بشير الجميل خلال زيارته للولايات المتحدة يوقّع على العلم اللبناني

الفهرس

٢٠٠٠/٩٤/١١٨٤



□ يقول ضابط المخابرات الإسرائيلي الشهير يهودا جيل «إن الجنس أسرع وسيلة لتجنيد العرب. أما المال فلا يؤثر إلا نادراً عليهم».

□ قبل عدة سنوات نشرت مراسلة تلفزيونية أميركية تدعى باربرا نيومان كتاباً بعنوان «الوعد: حب وموت في بيروت» وتحكي فيه تفاصيل قصة علاقتها القصيرة ولكن الحميمة مع بشير الجميل، وتكشف فيه دور الموساد وكذلك وكالة المخابرات المركزية الأميركية في تشجيعها على الاتصال به وتوثيق علاقتها معه لأغراض سياسية لا تُخفى على أحد.

□ الكتاب من سلسلة كتب غربية تصدر في الآونة الأخيرة عن سهولة اصطياد رجال ومسؤولين عرب كبار بشباك الجنس. وقد رمت باربرا شباكها لاصطياد بشير الجميل عندما كان قائداً لمليشيات الكتائب ونجحت في الإيقاع به بعد خمس دقائق فقط من أول لقاء به، باعترافها هي. وقد تطورت علاقتهما الغرامية مع صعوده القوي إلى أعلى منصب في السلطة - رئاسة الجمهورية - وفي خضم أعتى أيام الحرب الأهلية دموية التي بلغت ذروتها مع الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢.

□ كانت مناقشاتهما، حتى السياسية منها، غالباً ما تجري في الفراش... وأبلغ دليل على ذلك وصفها لليلة الحمراء التي قضتها مع بشير في شقة سرية في الأشرفية فيما بيروت الغربية تحترق تحت القصف الجهنمي الإسرائيلي.

